نكبة فلسطين

من منظور فقه التاريخ

دكتور

مصطفى حلمى

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

دار الدعوة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[الأعراف: ١٦٧].

﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر: ١٤].

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٧].

﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾(القتال)[محمد: ٣٨].

****

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

بحث سطرناه قص من مؤلفه كتاب ((الصهيونية غير اليهودية))

نكبة فلسطين

من منظور فقه التاريخ

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع القانونى
٢٠٠٢/١٠٧٠٥

الترقيم الدولى I.S.B.N: 977-253 - 296 - 4

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

المركز الرئيسى: ٢ ش منشا - محرم بك - الإسكندرية

تليفاكس : ٣٩٠١٩١٤ - ٣٩٠٧٩٩٨



المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وبعد:

فإن هذا الكون الهائل لا يسير خبط عشواء، بل يسير فى دقة وانتظام كاملين، وكذلك وقائع التاريخ، لا تمضى بلا ضابط- كما يظن البعض كأحداث متفرقة لأنهم يعايشونها - بل تمضى وفق سنن ثابتة.

والتاريخ أيضا حصيلة أفعال الإنسان الذى خلقه الله تعالى وزوّده بالاستطاعة على التعلم والتخطيط والسلوك ورسم الأهداف والسعى لتنفيذها، أى - باختصار- أهلّه بمقومات الخلافة فى الأرض[1].

ووصف ما حدث لفلسطين بالنكبة يطابق الحقيقة، فهى نكبة للأمة الإسلامية إذا نظرنا إليها من المنظور الفلسفى لتاريخنا، لا تقل ضخامة عن نكبات الحروب الصليبية وغزوات التتار وضياع الأندلس.

وتتصل نكبة فلسطين بحوادث أخرى قبلها منذ الحملة الفرنسية والاستعمار البريطانى وثورة الملك حسين شريف مكة بإيعاز من بريطانيا على الخلافة العثمانية، وقيام أتاتورك اليهودى (الدونمى) باسقاط الخلافة، وهكذا (فإن سلسلة **الحوادث**

---

(١) وذلك بالشروط التى حددها العلماء، فهى محددة - كما فسرها الطبرى بآدم عليه السلام: (ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه، ومن غير آدم ومن قام مقامه فى عبادة الله).

ويقول الأستاذ عبد الكريم غلاب (أخذ الله عز وجل على نفسه الخلق ومنح المقومات الجسمية والفكرية والروحية والنفسية ثم تبيان الطريق المستقيم وتوضيح الهدف من الحياة، وتمكين الإنسان من وسائل الحياة نفسها بكل ما يرضى طبيعته وحريته وغرائزه وميوله وشهواته فى حدود الاعتدال والعدل وعدم الاعتداء على طبيعة وحرية وغرائز وميول وشهوات الآخرين، وفى حدود قانون يضعه الله نفسه - أى شرعه - حتى لا تصبح الحياة فوضى وحتى لا يدب الفساد فيها مما يؤدى إلى الانهيار والفناء[1].

---

(١) ص١٤ من كتاب (صراع المذهب والعقيدة فى القرآن) عبد الكريم غلاب، دار الكتاب اللبنانى - بيروت سنة ١٩٧٣.

الكبرى التى وقعت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر فى مصر وما حولها، وبالذات فى فلسطين، **تصعب نسبتها إلى عبث المصادفات**[1]. وإنما وراءها تخطيط محكم، وأهداف ثابتة، وعمل مشترك دءوب.

لذلك فإن ما يلائم هذه الدراسة اتباع منهج فلسفة التاريخ الكفيل وحده برؤية حقيقية الصراع، وهو صراع وجود لا صراع حدود، ودوافعه وأسباب النكبة، بدل النظرة المجزأة التى يفرضها الواقع فتؤدى إلى الخلط فى الأحكام، والتردى إلى حالة من اليأس، ظنا بأنه لا مفر من الخضوع والاستسلام تحت راية (السلام)!

وسوف أتبع فى البحث المنهج الاستردادى لأنه سيوضح لنا أسباب نكبة أمة الإسلام - لا العرب وحدهم - بفقد فلسطين ووقوع المسجد الأقصى فى أيدى اليهود لأول مرة فى تاريخها!

كما يقوم منهج الكتاب أيضا على استقصاء العلل والأسباب التى أدت إلى تحقيق أهداف الصهيونية، مقابل هزائم العرب والمسلمين، ثم دراستها بمنهج تحليلى للتعرف على الأسباب، **وهل ترجع إلى عوامل جوهرية أى تتصل بالكيان الحضارى لأمة الإسلام (عقائدها وشرائعها وقيمها)، ومن ثم ستتعرض للفناء، أم بسبب عوامل ثانوية عارضة يمكن التغلب عليها ومن ثم تحقيق النصر بإذن الله تعالى؟**

وقد قسّمت الكتاب إلى ثمانية فصول بعد التمهيد وهى:

الفصل الأول: التفسير الدينى للتاريخ

الفصل الثانى: العقيدة اليهودية والسيطرة على العالم

الفصل الثالث: نشأة الصهيونية وتطورها

الفصل الرابع: جريمة الغرب عن غرس إسرائيل

الفصل الخامس: بعض الواقعات المعاصرة وتداعياتها:

أ- الحملة الفرنسية

ب- ثورة الشريف حسين

جـ- ثورة أتاتورك

---

(١) ص٦١ من كتاب (المفاوضات السرية) محمد حسنين هيكل.

الفصل السادس: نكبة فلسطين بين حربى ٤٨ و٦٧

الفصل السابع: شهود على العصر:

أ- الإمام حسن البنا (من المنظور الإسلامى)

ب- الدكتور محمد حسين هيكل (من المنظور السياسى)

جـ- الدكتور زكى نجيب محمود (من المنظور الفلسفى)

الفصل الثامن: كيف نكشف الغمّة عن محنة الأمة؟

(المشروع الإسلامى لا العلمانى) هو المنقذ فى صراع الوجود.

وأسأل الله عز وجل أن يقبل عملى هذا خالصًا لوجهه الكريم لكى تبرأ ذمتى يوم العرض عليه إذا ما سُئلت عما فعلت عندما نجسّ اليهود أرض المسجد الأقصى.

وما توفيقى إلا بالله وحده عز وجل ،،،

مصطفى بن محمد حلمى

الإسكندرية فى ٢٧ صفر سنة ١٤٢٣هـ

١٠ مايو سنة ٢٠٠٢م

تمهيـــــد

ربما لا يسمح موضــوع الكتاب بسرد أحداث تاريخـية مضى عليها أربعـة عشر قرنًا، لذلك سنكتفى بالتقاط أهم أحداث عصرنا مغلفة بالعبر لكى تنير لنا الطريق بمشيئـة الله وعونه فنتدبر حاضرنا، ونـأمل فى مستقبل أفـضل إن شاء الله تعالى، ولكن بشروط وسنن إلهية حددها الله عز وجل لنصر هذه الأمة.

والتاريخ بعامة معين لا ينضب من العبر والعظات، فهو للأمة كالذاكرة للفرد. (فكل إنسان يجد عندما يبلغ سن النضج والاكتـمال أنه تهديه وتحكمه تجاربه التى تعيها ذاكرته ومبادئ السلوك التى يستمدها حكمه من التجارب المذكورة. وما يقال عن الفرد يقال عن الجنس الإنسانى مع ملاحظة فارق مهم وهو أن الجنس الإنسانى فاقد لما يتصف به الفرد من الشخصية والشعور الذاتى المستمر. ليس للجنس ذاكرة طبيعية، ولكيلا يفقد الثروة الضخمة المجتمعة من تجارب الماضى، وجب أن تنشأ له ذاكرة، وذاكـرة الجنس الإنسانى هـو التاريخ. فبـالتاريخ يتـوافر للجنس الإنـسانى الشعور الذاتى. وبهذا الشعور الذاتى يمكن للجنس الإنسانى أن يصبح إلى حد ما **مسيطرا على مستقبله**، وبواسطته يستطيع التـحكم فى مصائره وأن **يمضى قدمًا فى طريق الفلاح**)[1].

إن الصفات التى استـحقت بها أمة محمد ﷺ كونها خـير أمة أخرجت للناس جاءت بالآية الكريمة ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ..**﴾ [آل عمران: ١١٠].

بينما استـحقت أمة غيرها اللعـنة فى قوله تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ويقول الشيخ عبـد الجليل عيسى[2] (لا يصلح الله حـال أمـة إلا إذا أصلحت

---

(١) هيرنشو: علم التاريخ ص ١٧٢ ترجمة الأستاذ عبد الحميد العبادى.

(٢) الشيخ عبد الجليل عيسى: المصحف الميسر، . دار الشروق ١٣٩١هـ.

ضمائرها وأعدت نفسها للتقوى فى تفسيره لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

والمراقب لما آلت إليه نكبة فلسطين تنتابه الحيرة والعجب فلا يكاد يصدق نجاح قلة من اليهود على إنشاء دولة تملك قوة نووية وتنتصر فى حروبها وتهدد جيرانها الذين يفوقونها أضعافا مضاعفة.

ولكن، ستزول هذه الحيرة إذا قمنا بدراسة تحليلية قائمة على البحث فيما وراء الظواهر البادية أمامنا. يقول الأستاذ محمد على علوبة: (**ولما كانت نكبة فلسطين غير مقصورة عليها، والشر الذى حاق بها سيجتاح جاراتها - إن عاجلا أو آجلا-** فمن الواجب علينا أن نبسط الحقائق ونتدارسها، ونبين كيف حيكت الدسائس، وكيف نفذت المؤامرات، وكيف ضاع هذا البلد العربى، وشرد أهله فى الآفاق)[١].

ولم يمتد العمر بالأستاذ علوبة - رحمه الله - ليرى الطارئ الجديد على النكبة بدخول **المسيحية الصهيونية** الحلبة واشتراكها فى الصراع جنبًا إلى جنب مع اليهود.

(فإن العديد من اليهود الصهيونيين اليوم يقولون: إنهم مسرورون لتصرف المسيحيين بهذه الحرارة: إنهم ينسبون الفضل إلى **المسيحية الصهيونية** فى مساعدة **الصهيونية اليهودية** الحديثة لتحقيق هدفها: خلق دولة يهودية حيث لا يُرحب بغير اليهودى مواطنًا فيها)[٢].

ويعتقد قادة اليمين المسيحى الجديد أن الكتاب المقدس (يتنبأ بالعودة الحتمية الثانية للمسيح بعد مرحلة من **الحرب النووية العالمية** أو الكوارث الطبيعية والانهيار الاقتصادى والفوضى الاجتماعية)[٣].

ولم يعد خافيًا أن أمريكا اليوم تعجّل بهذه الحرب ويقود حملاتها بعض كبار رجال الدين أمثال (لندس وفالويل وسواغارت وروبرتسون) واتسع الهدف لمحاربة المسلمين تحت راية صليبية جديدة باسم (الإرهاب)[٤].

(١) فلسطين والضمير الإنسانى، محمد على علوبة ص ٤٦.

(٢) جريس هالل، النبوءة والسياسة (الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية) ص١٠٧، ترجمة محمد السماك دار الشروق ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(٣) نفسه ص٤٥ وتقدر مؤلفة الكتاب عدد الإنجيليين الأصوليين بنحو ٤٠ مليون.

(٤) تراجع الرئيس الأمريكى عن تصريحه الفورى غداة تفجيرات سبتمبر سنة ٢٠٠١ بتوعده بشن حرب صليبية ولكن فلتات اللسان تفصح عمّا فى القلب.

يقول اللواء عبد الهادى بدوى (لقد انكشفت المعالم، وتأكدت النوايا، ولا مجال للتطمينات، إن مجمل ما يقع إنما هو هدر للإسلام.. وخريطة جديدة متفق عليها بتقسيمات جغرافية بدءًا بالعراق ثم القرن الأفريقى «الصومال» وإلى «السودان». وسيناريو خاص لفلسطين، وآخر لوسط آسيا ورابع أو خامس لإيران.. وتتوالى الحلقات سافرة بعد أن كانت خافية منذ عقود مضت تعرض فيها المسلمون لمحاولات تبشير أنفق عليها مائتان وعشرون مليار دولار، وأربعة آلاف محطة تلفاز وستة آلاف مبشر.. ولم يتحقق الغرض المرجو، فالتف الغرب إلى غزو ثقافى فكرى وعلمانى لم يجد صداه بالقدر المطلوب، مما ارتأت معه الإدارة الأمريكية وضع منهج جديد ينفذ الآن مرحليا بمسمى أولى حروب القرن خلف قناع مكافحة الإرهاب)[1]، يُضاف إليها توجيه إعلامى مكثف للإساءة إلى الإسلام والمسلمين.

يقول الأستاذ تامر الكتبى: (الإعلام الأمريكى الصهيونى جيش جرار له قواعده المتمركزة فى كل مكان على وجه الأرض.. يملك من الأقمار والقنوات التليفزيونية والإذاعية والاتصالات والصحف والمجلات وغيرها ما يمكنه إن شاء من إعلان حرب إبادة ضد من يريد.. هو الآن القوة رقم «١» فى الحرب المعلنة ضد العرب والمسلمين.. والموجه الفاعل للرؤساء فى الغرب وأمريكا.. وها هو **يختار العرب والمسلمين،** وشرع يطلق حممه المسمومة محرضًا ومتواطئًا ومحركا للآلة العسكرية التى باتت فى خدمة أفكاره وتوجيهاته الدموية لتصفية وإبادة العرب والمسلمين جسدًا وروحًا، إنسانًا وتراثًا وحضارة)[2].

إن المنهج الملائم لبحث هذه الحوادث كما قلنا فى المقدمة هو المنهج الاستردادى لأنه سيضع أيدينا على أسباب نكبة الأمة الإسلامية وكبواتها بسبب رئيسى **وهو إرغامها على خلع رداء شريعتها لأول مرة منذ نحو أربعة عشر قرنًا، فأصبحت أمام أعدائها عارية الصدر، وكانت الشريعة هى درعها الواقى (كعقيدة وعبادات**

(١) مقال بعنوان (أولى حروب القرن على الإسلام.. وليس الإرهاب) بقلم اللواء عبد الهادى بدوى. جريدة (الوفد) ١٦ ذو القعدة ١٤٢٢هـ- ٣٠ يناير سنة ٢٠٠٢م.

(٢) مقال بعنوان (الإعلام الأمريكى الصهيونى.. حرب معلنة ضد العرب) إعداد: تامر الكتبى ص١٤ مجلة (نيو تى دش T.V) العدد ١٠١ مايو سنة ٢٠٠٢ القاهرة.

ومعاملات وقيم ورسالة الدعوة إلى الله عز وجل.

والإسلام كدين - كما يصفه الأستاذ فتحى رضوان يرحمه الله- يقيم بناءه على قاعدة طويلة عريضة عميقة هى الإيمان بإله واحد - عز وجل - يحكم هذا العالم بقوانين ثابتة لا تتغير ويتساوى أمامه الجميع.

والإسلام كمنهج حياة، فإن التجربة الإسلامية التى استمرت بضع مئات من السنين **حققت للناس الذين شاركوا فيها، من القوة والسعادة والإخاء والتقدم المادى والطمأنينة النفسية والتألق الروحى، ما لم تحققه أية حضارة أخرى فى ظل أى مذهب آخر**[1].

وفى مجال التشريعات وإصدار القوانين، يظهر سمو الشريعة الإسلامية بمقارنتها بالقوانين الوضعية، فإذا كانت المجتمعات الإنسانية تأخذ فى صياغة القوانين كلما دعت الحاجة، ثم الاضطرار لإجراء التعديلات والتنقيحات على إثر التطبيقات وظهور الشغرات، واستفحال الأخطاء، فإن الشريعة فى الإسلام تتميز بالكمال والإحاطة بكل ما تحتاج إليه المجتمعات فى معاملاتها، وقد أكد الإمام الشافعى هذه الحقيقة، وخلاصتها: (أن نصوص الشريعة وافية بحكم كل ما يقع من الحوادث ويجبر من الوقائع، فليست هناك واقعة إلا وفيها نص من كتاب أو سنة يستدل بها على حكم الله تعالى فيها. غير أن هذا الحكم قد يؤخذ من لفظ النص، أو من معقوله بطريق القياس. يقول الإمام الشافعى (ليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها)[2].

وتفسير ذلك بشكل مجمل، أن حظ ارتقاء إصدار القوانين والتشريعات بواسطة علماء القانون وفقهائه يتجه - بعد التجارب تلو التجارب وضياع السنين والأجيال- إلى مرتبة الشريعة الإسلامية التى استقرت عليه فى مكانتها السامية منذ نحو أربعة عشر قرنًا.

ويقول اللواء عبد الحميد شرف: (وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع

---

(١) الإسلام والمسلمون، فتحى رضوان دار الشروق ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢، ص٥٠٦.

(٢) نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى ص٣١٢ للدكتور حسين حامد - مكتبة المتنبى بالقاهرة سنة ١٩٨١م ونص الإمام الشافعى من كتابه (الرسالة).

مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافى الضخم، **ولكن هذا الميراث كان لدى الشعوب وليس عند السلطة الحاكمة، ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بدياناتها ولغاتها وحضارتها**، بينما انهارت الحكومات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوة الغربية المسلحة بالعلم، والمنظمة سياسيًا وعسكريًا والمؤيدة فى الغالب من شعوبها)[1].

والمتابع لتاريخنا الحديث يلاحظ أنه منذ إسقاط الخلافة العثمانية لم تتقدم الأمة الإسلامية - برمتها- خطوة إلى الأمام، بل كانت كأنما تدور حول نفسها وتهبط عن مستواها درجة فأخرى، ذلك بأن قادتها - وأولهم أتاتورك- أبعدوا الشريعة الإسلامية وأحلوا محلها القوانين المستوردة من أوروبا، وصاغوا البرامج التعليمية والثقافية على نمط غربى واستوردوا الأيديولوجيات الماركسية والليبرالية - وهى تشكل فى مجموعها المشروع العلمانى التغريبى- فكانت الثمرة المرة هى نكبة فلسطين!

وبعد فقد أصبح من واجبنا - وكل من عاش النكبة منذ عام ٤٨ وعاصر أدوارها واكتوى بنار الهزائم والإحباط، **من واجبهم جميعًا تعريف شباب أمتنا بما حدث لكى لا يقع فى حبائل أضاليل المثبطين للهمم، والمزورين للتاريخ، والمنادين بالتسليم بالأمر الواقع والتطبيع[2] مع اليهود!**

لذلك صح ما رآه الدكتور عبد الرحمن الحجى بأن التاريخ الإسلامى من وجوه كثيرة (**هو تاريخ الشريعة الإسلامية التطبيقى الواقعى طالما كان لها الالتزام**. فالتاريخ هو الشكل الذى تحقق فيه الإسلام، وكل انحراف عن الطريق السوى أصاب هذا التاريخ كان نتيجة للانحراف عن تلك الشريعة. فدراسة هذا التاريخ هو **دراسة للإسلام من الناحية التطبيقية، وهو دراسة للذين أخلصوا له ومن أساءوا إليه أو باسمه من خارجه أو داخله، وكشف لوسائلهم)**[3].

---

(١) الصراع الكبير بين الشرق والغرب، اللواء عبد الحميد شرف ط الأهرام ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

(٢) وباسم التطبيع رفع التنويريون فى بلادنا شعارات: (التسامح وسعة الأفق تجاه الرأى المخالف، وحب السلام والعقلانية، والتخلص من الأيدلوجيات والتحيزات المسبقة التى تسمى الآن عقدًا نفسية).

ص٥٧ من كتاب(التنوير الزائف) للدكتور جلال أمين من سلسلة (اقرأ) دار المعارف رقم ٦٤٠، ١٩٩٩م.

(٣) نظرات فى دراسة التاريخ الإسلامى ص١٩، ٢٠ - دار الإرشاد، بيروت ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩م.

الفصل الأول

التفسير الديني للتاريخ

المقصود بالنظرة الإسلامية في مفهوم فلسفة التاريخ تلك النظرة التى تحلل وتقوّم الأحداث وتفسّرها طبقًا لسنن الله تعالى الكونية الشاملة فى أدوار التاريخ للأمم والحضارات، وهى والتى كانت إما مغيّبة عنا قصدًا فى حروبنا مع الصهاينة منذ حرب عام ١٩٤٨م أو لا يُسمح بنشرها وتعميمها لأسباب سياسية داخلية أو بسبب الانحياز الواضح للأجهزة الإعلامية الخارجية وعدائها للإسلام.

لقد تمخضّت تجربة القومية العربية عن تفتيت الشعوب الإسلامية وأضرّت بالقضية الفلسطينية لأنها حرمتها من المدد اللانهائى من قوة الشعوب الإسلامية غير العربية وهى الأكثرية فى الأمة الإسلامية، كذلك هناك عاملان مهمان إذا عرضنا للقضية الفلسطينية وهما:

(١) القدس: وهى قضية إسلامية وليست عربية.

(٢) العقيدة الدينية - لا الوطنية ولا القومية هى التى أجّجت الصراع، استخدمها الصهاينة أفضل استخدام واستمالوا إليها (الأصولية المسيحية) منذ قرون بشكل مرحلى خفى - أخُفى علينا عن قصد وعمد ثم أعلنوها بلا مواربة عندما تمكنوا لجذب المزيد من الأعوان تحت شعار (معركة الهرمجدون).

فهل نعى هذه الحقيقة ونمدّ الصحوة الإسلامية بالوقود اللازم؛ بزيادة الوعى وتنبيه الجماهير لتبذل ما فى وسعها فى معركة المصير القادمة؟

لقد كان العلامة ابن خلدون هو الأسبق فى وضع منهج التفسير التاريخى، إنه يرسم المنهج الصحيح للتاريخ فيقول:

[لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكمّ أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال فى الاجتماع الإنسانى، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادّة الصدق. . . .].

ويعلل الأخطاء بأن المؤرخين اعتمدوا على مجرد النقل، غثًا أو سمينًا، لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف

على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار.

أما العـالم المؤرخ المعاصر د. عمـاد الدين خليل فإنه يعرض لما سمّـاه بالسؤال الاستنكارى وأجاب عليه:

[وكـيف يكون ذلك ونحن نرى الأمم التى كـفـرت بالله تتـولى أزمّة الـقيـادة والتحضّر على السواء!

يسقط هذا السؤال - بكل وجاهته وخطورته - لأن المقـاييس التاريخية لا تأخذ بالآنى أو المرحلى وتصدر منهـا أحكامها ومقـولاتها، إنما هى تجىء أساسًا تكشيـفًا وتقعيـدًا لحركة التاريخ البـشرى كله فى ماضيـه وحاضره، مضافًـا إليه فى الرؤية القرآنية، وفى بعض الرؤى الوصفية البعد المستقبلى][1].

يعرّف هيجل **فلسفة التاريخ** فيـقول (وأعم تعـريف يمكن تقديمه هو الـقول بأن فلسفة التاريخ لا تعنى شيئًا آخر سوى **دراسة التاريخ من خلال الفكر**)[2].

ويقتضى ذلك إعمال الفكر فى نكبة فلسطين:

كيف حدثت، ولماذا؟

أما عن التفســير الدينى للتاريخ بالمنهج الفلسفى، فسنرى أنه منهج مـعتمد عند بعض مؤرخى وفلاسفـة الغرب، فإن العبرة عند (شبـينجلر وتوينبى ليست بالمظهر المادى للحضـارة من آلة ومتاع، وإنما العـبرة بالروح والقوة الـكامنة والإقدام على مواجهة المصاعب)[3] ويميل توينبى - بخاصة - فى تفسيره للتاريخ إلى الإيمان بالله القادر المصرّف للأمور[4] ويتفق معـه شبينجلر فى الرأى (**حول دور الدين فـى إنقاذ الحضارات**)[5].

ويذكر هـ. ج ولز الأفكار الرئـيسية التـى تتناقلها كتب اليـهود، منها تفـضيل

---

(١) ص ١٣٣: د. عمـاد الدين خليل: التـفسيـر الإسلامى للتـاريخ - دار العلم للملايين - بيـروت - سنة ١٩٧٨م.

(٢) ص ٩٨/ ٩٩ من كتاب (محاضرات فى فلسفة التاريخ) جـ١ ترجـمة د. إمام عبد الفتاح - ط. دار الثقافة بالقاهرة - سنة ١٩٨٠م.

(٣ و٤) كتاب (الحضارة) د. حسين مؤنس ص ٣٥٤/ ٣٥٥.

(٥) أرنولد توينبى، لمعى المطيعى، دار الكاتب العربى سنة ١٩٦٧م العدد ١٤٨.

الشعب اليـهودى على جـميع الأجناس الأخـرى. . وبأنهم الشعب المختـار للرب الأوحد للكون كله. . . والقول بزعـيم منتظر، مخلّص للعالم، ومسـيح يحقق ما ترامى به الزمن من وعود (ياهوه) التى طال الأمد عليها[1].

ويلاحظ الأستاذ روبرت فلنت أن **اليهود** كانوا ينظرون إلى الأحداث من وجهة **نظر دينية**، وكان الله فى رأيهم هو العامل المحرك الأسمى للتاريخ، وأن إرادته هى محك الحكم التاريخى، وأن مملكته هى الغاية التى يتـجه إليها التطور التاريخى. . إلى أن يقول. . وقد (**عُرف اليهود بشـدة اعتزازهم بماضيهم وإكبـارهم لتاريخهم**)[2] بالرغم من الأسـاطير المنبثـة فى هذا التاريخ، ولا يتـورع اليهود عـن نشر الرواية الخرافية وخلاصتها (أنهم شعب الله المختار تعلم من الله بطريقة مباشرة ومنحه الله بصيرة كاملة، وحكمة، ومعـرفة تامة بجميع القوانين الطبيعية وبالحـقيقة الروحية. بل إنهم يتمـادون فى رواياتهم فيزعـمون أن الله تحدث إلى آدم - عليـه السلام - باللغة العبرية)[3].

ويرى وايتهد أن بواكيـر التحضر ترجع إلى أنبياء العبرانيين الذيـن غيرّوا مجرى التاريخ تغييـرًا حاسمًا، وذلك بسبب إلحاحهم الرائد على المشاعـر الأخلاقية، ثم يسـتطرد قائلاً: (وفـى سيـاق هذا الموروث النبـوى يقف يسوع الـناصرى -عليـه السلام- وهو شخص ذو أهمية فائقة)[4].

(وذهب **المؤرخون المسيحيون** الأوائل إلى أن الحركـة التاريخية جـزء من الحركة الكونية التى يشـترك فيهـا الله والإنسان، وقد تجلى التعـبير عن هذا الاعتـقاد فى أوضح صورة فى كتاب «مدينة الله» الذى كتبـه القديس أغسطين، وكانت الفلسفة التاريخيـة التى ضّمنها هذا الكتاب مـستمدّة من أصـول فارسية وهيلينيـة وعبرية،

(١) ص ٢٥٥ من كتاب معالم تاريخ الإنسانية جـ ٢، هـ. ج ولز، تعريب عبد العزيز توفيق جاويد - راجعه زكى على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨م.

(٢) كتاب (تاريخ التـاريخ)، على أدهم - سلسلة (كتابك) رقم (٦) دار المعارف بمـصر سنة ١٩٧٧م ولم نقرأ لأحد الكتاب الذى يصف المسلمين (بالماضوية) بأن هذا الوصف ينطبق أيضًا على أصدقائه من اليهود!.

(٣) ص ٥٧/ ٥٨ من مقـدمة كتاب (مـحاضرات فى فلسـفة التاريخ) بقلم د. إمـام عبد الفـتاح الذى ترجم الكتاب وراجعه د. فؤاد زكريا - دار الثقافة بالقاهرة سنة ١٩٨٠م.

(٤) ص ٦٣ من كتاب (فلسفـة وايتهد فى الحضارة) تأليف أ. هـ. جونسون - ترجمـة د. عبد الرحمن ياغى المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - سنة ١٩٦٥م.

فالحركة التاريخية صراع بين قوى الخير وقوى الشر، وهى فى معناها التاريخى الأرضى صراع بين «مدينة الله» وهى نخبة المؤمنين بإله اليهود والمسيحيين و«مدينة الشيطان» وهو الاسم الذى أُطلق على أشياع الوثنية المعاصرة والسابقين، وسيسفر هذا الصراع عن انتصار المدينة الأولى وهدم المدينة الأخرى)[١].

فلسنا بدعًا إذن إذا فسّرنا التاريخ تفسيرًا دينيًا كما نوهنا، ونكتفى برأى فيلسوف التاريخ الشهير برتراند رسل، الحجة فى دراساته المستوعبة لتاريخ الحضارات الإنسانية مع باقى المؤرخين السالف ذكرهم.

ويدخل فى دائرة **التفسير الإسلامى للتاريخ**، ما يذكره الإمام الندوى عند تفسيره للزحف التتارى على العالم الإسلامى، إذ يعلله بأنه يخضع لسنّة الله تعالى فى الأرض، أى بمثابة الإنذارات السماوية الباعثة الناس على التوبة والإنابة إلى الله وإصلاح أحوالهم[٢].

يقول الإمام الندوى (إذا تدبرنا فى ضوء القانون العام الخالد لنتائج الأعمال والأخلاق، وازدهار الأمم وانحطاطها الذى أشار إليه القرآن، ولا سيما ما ذكره فى بدء سورة الإسراء من تدهور بني إسرائيل وإفسادهم فى الأرض وعلوهم وتمردهم وما جر ذلك إلى زحف الملوك الظالمين، وتسلطهم على بنى إسرائيل. . .)[٣].

فكرة الصراع عند هنتجتون:

أما فكرة الصراع بين الشرق والغرب فإنها ليست مبتكرة بواسطة اليهودى الأمريكى هنتجتون الذى أثار صخبًا بكتابه (صدام الحضارات)، بل هى متداولة فى كتابات بعض الغربيين: منهم (ألن مورهين) مؤلف كتابى «النيل الأبيض» و«النيل الأزرق»، إذ أرخ للصراع منذ سنة ١٨٨٣م فقال (كان يمكن القول بأن الصراع بين الإسلام والمسيحية قد وصل إلى نتيجة مشرفة للطرفين، فقد استولى الإنجليز على مصر ولكنهم خسروا السودان. لقد انتهت هذه القلاقل (ثورات عرابى والمهدى. . بالهزيمة الساحقة للإسلام على ضفاف النيل (والأصح: القول بأن المسلمين هزمُوا

(١) (تاريخ التاريخ)، على أدهم ص ٤٠.

(٢ و ٣) كتاب (غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الإسلام) أبو الحسن الندوى، ط المختار الإسلامى بمصر سنة ١٩٨٥م ص ٥ و ٧.

وليس الإسلام) . . ولكن ثبت أنها هزيمة مؤقتة ليس إلا . . .

ومنذ سنة ١٩٠٠ وهناك تقدم منتظم للإسلام فى شرق أفريقيا ووسطها، وفى الوقت الحاضر يكسب المسلمون مؤمنين جدًا أكثر من المسيحيين . . لذا فما من رجل عاقل يغامر بالقول بأن ذلك هو نهاية الأمر، التناقض بين الدينين . . الشرق ضد الغرب يبدو وكأنه جزء دائم من الواقع الأفريقى، وهذا الصراع يمضى أحيانًا تحت الأرض، وأحيانًا فوقها . . ولكنه مستمر ومحتوم كالنيل نفسه)[١] .

ووصفه لمعنى الصراع فوق الأرض وتحتها يوحى للقارئ بدوام الحرب النفسية وأسلحة الغزو الثقافى التى لم يكف الغرب وأتباعه عن استخدامها .

وبعد أن أورد الأستاذ جلال كشك السطور الآنفة علق بسخرية : (**ها هو كاتب أمريكى «مثقف جدًا»** يكتب عن الصراع الأبدى المحتوم، وقراء مثقفون فى أوربا وأمريكا يقبلون على قراءة هذا التفسير حتى يروج للمؤلف وتطبع كتبه فى جميع اللغات البيضاء فور صدورها . . . وها هو العدو يرفع الصليب . . . ويؤرخ لحروبه كانتصارات للصليبية على الإسلام . . ثم يُطلب **من الضحية** أن ترفض **التفسير الدينى**)[٢] .

إن التفسير الدينى الذى أتى به هنتجتون إذن ليس جديدًا إذ أنه بآرائه التى أعلنها يُعتبر امتدادًا لمن قبله، وقد طفح على السطح فى السنوات الأخيرة، وقد عدَّد صمويل هنتجتون منها الكثير، نقتطف بعضها فى وقائع لا تحتمل الإنكار :

إن الهجرة من شمال أفريقيا إلى فرنسا تولِّد عداوة بين الفرنسيين، وتجد قبولاً متزايدًا بهجرة البولنديين الكاثوليك[٣] .

---

(١) ص ٢٦ من كتاب (الماركسية والغزو الفكرى) محمد جلال كشك، الدار القومية بمصر ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦م .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧ .

(٣) (صدام الحضارات)، ص . هنتجتون صفحات ١١٢، ٤٠٤، ٤١٤، ٤٢٤، ٤٣٨، ٤٥٨، وهو يرى أنه فى أواخر القرن العشرين شهدت انبعاثًا أو صحوة دينية فى أنحاء العالم . هذا الانبعاث تضمن اتساع الوعى الدينى وبروز الحركات الأصولية، وأدى ذلك إلى تقوية الاختلافات بين الأديان ص ١٠٦، كذلك يقرر أن الدين قوة مركزية، وربما كانت هى القوة الرئيسية التى تُعَبِّئ الناس وتدفعهم ص ١١٠ .

والرئيس بوش أثناء حرب الخليج الأخيرة يكثـر من ذكر الله والتَّضرع إليه باسم الولايات فقوَّى من شعور العرب بأنها كانت (حربًا دينية)[١].

و(.. العداوات الحـادة والصراعات العنيـفة متغلغلـة بين الشعوب الإسلامـية المحلية والشعوب غير الإسلاميـة، فى البوسنة خاض المسلمون حربًا دموية ومدمرة مع الصرب الأرثوذكس واشتبكوا فى عنف آخر مع الكروات الكاثوليك)[٢].

ويعلن الزعيم الصربى إحياء الذكرى الستمـائة للمعركة الكبرى، كرمز للحرب المستمرة مع المسلمين[٣].

(وعندما أصـبحت العقـيدة الأرثوذكسـية والكنيسة الأرثـوذكسية مـرة أخرى، عوامل مركزية فى الهـوية القومية الروسية، التى ضغطت بدورها العـقائد الروسية الأخرى إلى الخارج وأهمها الإسلام)[٤].

وعقب تفكك يوغوسلافيا سنة ١٩٩١م تحـركت كل من «سولوفنيا» و«كرواتيا» نحو الاستقـلال واللجوء إلى القوة الغربية بحثًا عن التـأييد.. وأمام ضغط الرأى العام الألمانـى اعترفت الحكومـة بهمـا - وضغطت على الاتحـاد الأوربى ليعـترف باستقلال الدولتين.. كـما لعب الفاتيكان دورًا رئيسيًا، فـأعلن الباب أن (كرواتيا) هى (متراس المسيحية الغربية)[٥].

وما لم يذكره هنتـجتون - لأن كتابه صدر منذ سنوات - الزيارة الأخـيرة للبابا لأرض فلسطين، وحرص الإسرائيليين على إعداد برنامـج خاص لاستغلال الزيارة سياسيًـا (وفرضوا عليه زيارة أماكن تحـمل أبعادًا سياسية مـثل النصب التذكارى لما سمّى بالمحـرقة فى مدينة القدس وزيارة حـائط المبكى الذى هو فى الأصل الحائط الغربى لسور المسـجد الأقصى والذى يُطلق عليه «حائط البراق» لأن النـبى محمد ﷺ ربط البـراق عنده حـينـما صـعـد إلـى السـمـوات العـلا فى ليلة الإسـراء والمعراج)[٦].

(١ ،٢، ٣ ، ٤, ٥) المصدر السابق.

(٦) من مقال بعنوان (هل كان قلب البابا مع الفلسطينيين وسيفه مع الإسرائيليين؟!) بقلم د. محمد على الفرا عضو المجـمع الملكى لبحوث الحضارة - الأردن - جـريدة الشعب القاهرية فى ١٤/ ٤/ ٢٠٠٠م ص ١٣ ومما يذكر أن البابا اتبع تقليدًا يهوديًا ووضع فى فتحة من فتحات الحائط رسالة تضمنت «طلبًا» من الرب=

ويأتى مسك الختام فيما صرّح به رئيس أمريكا أخيرًا، إذ عندما سُئل كلينتون عن وضع الدين فى المجتمع، أجاب: [إننا جميعًا جزء من مجتمع عالمى فى تطور دائم، وقد شهد هذا المجتمع تغيرات سياسية وتقدمًا تكنولوجيًا، وتصاعدًا فى التنمية الاقتصادية. غير أنه بالإضافة إلى ذلك نواجه بأخطار قديمة وجديدة من أبرزها الإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، ومخاطر البيئة، والفقر والجوع والصراعات الحادة. وفى إطار مواجهتنا لهذه التحديات والمتغيرات، هناك شىء ثابت يتخطى الحواجز الجغرافية، وحدود الجنس واللون وهو الدين، ولا شك أن له دورًا بارزًا فى إضفاء روح المسئولية وبث اليقين على القدرة على مواجهة المشكلات، نحن فى حاجة للدين كمصدر من مصادر القوّة، ومنبع من منابع اليقين][(١)].

وكانت إجابته عن سؤال فى شكل عبارة ذكرها أحد القسس من أن (صلواتنا هى التى تساعد على تماسك العالم).

إن تجدد النكبة الحالى - بإعادة احتلال الأراضى الفلسطينية - وتدمير مخيمّ جنين - (محرم سنة ١٤٢٣ هـ - مارس سنة ٢٠٠٢م) دال على التحام التيارين الدينى والعلمانى فى موقف موحد اعتقادًا بالأساطير فى معركة الحرم الشريف التى كنا نظن أنها وقف على بعض الجماعات اليهودية المتطرفة، ثم اتضح أن (بعض القادة العلمانيين فى حزب العمل، بمن فيهم بعض من كانوا محسوبين على تيار أنصار السلام، ضموا أصواتهم إلى أصوات عتاة اليمين المتطرف الدينى منه وغير الدينى، ليخوضوا المعركة سويًا على أرضية دينية فى جانب كبير منها)[(٢)].

*****

= المغفرة لمعاناة اليهود هذا نصها: «يا إله الآباء والأجداد: يا من اخترت إبراهيم وذريته لنقل اسمك إلى الأمم: إن الحزن العميق يغمرنا لتصرفات الذين تسببوا على مدار التاريخ فى عذاب أبنائك ونطلب صفحك وغفرانك ونحن ننشد أن نقيم أخوة حقيقية مع أهل العهد».

(١) من مقال بعنوان (رؤية إمبراطورية) بقلم السيد يسين، جريدة «الأهرام» فى ٢٩/ ٦/ ٢٠٠٠م.

(٢) مقال بعنوان (عن البعد المسيحى فى المعركة الراهنة) بقلم صلاح حزين، جريدة (الحياة) - لندن ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢م.

ويفرض علينا الواقع السياسى بفلسطين الذى أصابنا بفاجعة لهول ما نراه أمامنا من مذابح مريعة فى المدن الفلسطينية، خاصة فى جنين لا يقل آثارها عما تحدثه الزلازل، **يفرض علينا هذا الواقع إعادة بحث مفاهيم ومعلومات كنا نظن أنها كالمسلّمات.**

منها:

أن إسرائيل هى أداة أمريكا فى رأى البعض أو العكس فى رأى آخر والظن بأن الغرب تخلى عن عقيدته الدينية واتخذ من العلمانية دينًا يدين به.

ويلحق بهذين الفكرتين التمييز فى الحكم على سلوك أمريكا قبل وبعد ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى عدائها للإسلام.

وتهاوت هذه الظنون والأفكار بطلقات بقاذفات الطائرات واقتحام الدبابات الإسرائيلية لمدن فلسطين وتجريف الأراضى والطرق واقتلاع أشجار الزيتون.. ثم صدور التصريحات اللامعقولة عن رجل السلام!

إن الواقع المرير له علله البعيدة الممتدة عبر القرون الطويلة الماضية، ويحتاج إلى المنهج التاريخى التركيبى لفهم ما يدور حولنا ولدفع الظلم الواقع علينا، وأولى خطوات التغيير والحركة هى فهم الصلة بين إسرائيل وأمريكا، لا اقتصاديا وسياسيًا وعسكريًا ودبلوماسيًا. فكل هذا معروف ومتداول على الألسنة وفى كتابات الدارسين والإعلاميين ولكن أعنى العقائد الدينية التى تجعل منهما قلبًا واحدًا يمتلئ حقدًا على الإسلام والمسلمين ويمضى قدمًا لإبادتهم كما أُبيد الهنود الحمر من قبل فى القارة الأمريكية، وأقصد بالمنهج التاريخى التركيبى أن نستطلع تاريخ الغرب الثقافى لأن حاضره موصول بماضيه.

والمنهج التركيبى لازم للرؤية الشاملة التى توضح مكونات هذه الحضارة، أى دراسة تراثها الدينى والفلسفى والأدبى السياسى، وبهذا المنهج نستطيع فهم حقيقة الغرب، فتنقلب أفكارنا السابقة عنه المستمدة من مناهجنا التعليمية رأسا على عقب. وإلا فكيف نصدق ظهور دولة إسرائيل فى كتابات جان جاك روسو، وهو مواطن من جنيف ينحدر من أسرة بروتستانتية، وبليز باسكال فيلسوف الصوفية

الكاثوليكية الفرنسية فى القرن السابع عشـر، فقد جاء فى كتاب روسو عن التعليم عام ١٧٦٢ :

لن نعرف الدوافع الداخلية لليهود أبدا حتى تكون لهم دولتهم الحرة ومدارسهم وجامعاتهم.

.. وكان باسكال (ضليـعًا فى الأدب اليهودى الدينى والفلسـفى.. وكان يفكر فى دور الشعب اليـهودى ويرى أن إسرائيل هى البـشير الرمزى للمـسيح المنتظر، وعبّـر عن احـترامـه الشديد لإنجـازات اليهـود «الأمة الأولى» وتمسكهم الصـادق بدينهم).

وجون لوك واضع النظرية السياسية الليـبرالية كتب بالحرف: (إن الله قادر على جمع اليهـود فى كيان واحد.. وجعلهم فى مصـنع مزدهر فى وطنهم) وسيطرت العقيدة الدينية على الروايات المسرحية.

(وغدت أفكار العهد القديم أكثر مصادر الإلهام لفنانى وشعراء العهد الجديد لا فى إنجلترا فحسب، بل فى القارة الأوروبية كذلك..).

.. وتحدثت قصيدة ملتون الشهيرة «الفردوس المستعار» عن عودة إسرائيل:

«لعل الله الذى يعرف الوقـت المناسب جيدا سـيذكر إبراهيم - عليـه السلام - وسيعيدهم نادمين وصادقين، وسيشق لهم البحر وهم عائدون مسرعين جذلين إلى وطنهم كما شق البـحر الأحمر ونهر الأردن عندمـا عاد آباؤهم للأرض الموعودة. إننى أتركهم.لعنايته وللزمن الذى يختاره».

كما استوحى قـصيدة أخرى مباشرة من كتاب القـضاة فى العهد القديم (وهى الصورة التى كررها اللورد بايرون وكولردج فى القرن التاسع عشر وجيمس جويس فى القرن العشرين).

وفى المجال العلمى لم يخل أيضا ممن جاء ليؤيد الشـعب اليهودى ويتوقع إقامة دولته، فقد كتب نيوتن يقول (إن اليـهود سيعودون إلى وطنهم.. وحاول أن يضع جدولا زمنيًا للأحـداث التى تفضى إلى العودة وتوقع تدخل قـوة أرضية من أجل إعادة اليهود المشتتين).

وجاء بعده الطبيب الفيلسوف دافيد هارتلى فأخضع قضية عودة اليهود إلى دراسة منظمة فى كتابه العلمى العام «ملاحظات حول الإنسان وواجباته وتوقعاته».

وزاد الاهتمام فى القرون التالية بقضية اليهود وأصبح وصف التاريخ الإنجليزى حسب تقسيم بربارة تخمان هو: (بعد الفترة الهلينية فى القرن الثامن عشر عاد الرقاص ثانية لفترة عبرية أخرى، إذ حلت حركة التقوية الفيكتورية محل مذهب الشك الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر، كما حلت حركة سفر الرؤيا محل المذهب العقلى).

وامتدت الفترة الإنجيلية الجديدة حتى نهاية عهد الملكة فيكتوريا (١٨٣٧-١٩٠٠).. وكان من أبرز الشخصيات حينذاك شافتسبرى «مبشر المبشرين» (الذى يعتبر شخصية رئيسية فى الصهيونية غير اليهودية) وكان مهتمًا مثل كرومويل باليهود كشعب (ولكن تركيزه كان منصبًا على إعادة هذا الشعب لفلسطين)، وعمل معه بجدية نبلاء إنجليز وكثير من أعضاء مجلس اللوردات.

ويتضح من ذلك أن جريمة الإنجليز فى إقامة دولة إسرائيل أقدم عهدا من بلفور وأكثر تغلغًا فى عقول وقلوب ساستهم وحكامهم!

وإذا مضينا لنسرد قصة الصهاينة من غير اليهود فى الغرب لنلقنا كتاب الدكتورة ريجينا الشريف بأكمله لأهميته القصوى فى هذا الغرض، ولأنها اقتحمت مجالا دراسيًا كان مجهولاً لنا تمامًا.

ولكن نكتفى بهذا القدر، ليتبين لنا جميعا كيف أسهم الأدباء والفلاسفة والساسة الغربيون فى التبرير ووضع النظريات الذى أصبحت تراثًا دينيًا ضخمًا استند إليه الصهاينة وحفزهم للمضى قدمًا فى تحقيق أحلامهم. وكيف يجمع التاريخ الاستعمارى بصفحاته بين الأدوار المتكافئة لكل من إنجلترا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وأمريكا المؤيدين لإسرائيل بدوافع توراتية.

كما نتعرف على رجال السياسة والحرب الضالعين فى المؤامرة: نابليون - بلفور- ترومان- كارتر- تشرشل - سايكس بيكو.

وهم جميعًا لا ينقصهم الحماس الدينى فى رسم سياسات دولهم! ونحن نقدم

هذه المعلومات (لكتابنا العلمانيين) لعلهم يعيدون النظر فى آرائهم! ويفهمون كيف تحولت اليهودية بواسطة هؤلاء وغيرهم من عقيدة دينية إلى أيديولوجية سياسية[١] لها أهدافها فى التوسع والسيطرة استنادا إلى نبوءة توراتية بتحقيق الألف عام السعيد! وتتميز بنظرة عنصرية بغيضة ترى فى الرجل التركى (الرهيب) أو (الكافر الفظ). وتستعلى بنظرتها على غيرها من البشر[٢] .

ربما تصدم هذه المعلومات التى التى كشفت عنها الدراسات أخيرا الكثير من بنى جلدتنا الذين يكتفون بأزياء هذه الحضارة وتراثها الفلسفى والأدبى.

إن هذه المزايا والمفاخر قاصرة على مواطنى الغرب من الجنس الأبيض ومحرمة على غيرهم من الشعوب.

وعلى ذلك فإن أصوات الأحزاب اليمينية الآخذة فى الارتفاع الآن فى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وإنجلترا ليست ظاهرة جديدة بل هى متأصلة فى هذه المجتمعات الضليعة فى عنصريتها منذ ميز فيلسوفها أرسطو بين الأثينى والبربرى فى القرن الرابع قبل الميلاد!.

ومن أهم النتائج التى استخلصتها من دراستها الشاقة - وإن كانت النتائج كلها مهمة - إن وضعت لنا منهجًا جديدًا فى فهم الأحداث السياسية، فقد كانت المبادئ البروتستانتينة التى وضعتها حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر مغايرة تماما للمبادئ الكاثوليكية السابقة.

وتوصف هذه الحركة بأنها بعث (عبرى) أو (يهودى) تولدت عنه وجهة نظر جديدة عن الماضى والحاضر اليهودى وعن مستقبله بشكل خاص. كان اهتمام حركة الإصلاح البروتستانتى منصبًا على العالم القادم، وكان ينظر إلى الحياة بمنظار الأبدية، كما ساد الاعتقاد بالمسيح المنتظر والعهد الألفى السعيد اللذين هما من مقومات المبادئ اليهودية)[٣].

---

(١) كتاب: الصهيونية غير اليهودية، ريجينا الشريف، ترجمة أحمد عبد العزيز (جذورها فى التاريخ الغربى).

(٢) سلسلة (عالم المعرفة) - الكويت ربيع الأول سنة ١٤٠٦هـ- ديسمبر سنة ١٩٨٥. وينظر صفحات ٤٩، ٥٠، ٢٥٨، ٣٩، ٢٦٧.

(٣) الصهيونية غير اليهودية ص٢٩.

كذلك طور غير اليهود فكرة أن اليهود يشكلون أمة مستقلة وأنهم كانوا أمة فيما مضى، وسيكونون أمة من جديد بالمعنى الحديث[1].

وكـانت مثل هذه الأفكار تدور فى أذهـان رؤوس أمريكا منذ ترومـان، إلى أن جاء كـارتر فقـال فى حديث له أمام الكـنيست الإسرائيلى سـنة ١٩٧٩ (لقد آمن وأظهر سبعة من رؤساء الجمهورية أن علاقـة أمريكا بإسرائيل أكثر من مجرد علاقة خاصـة (ونضيف إليـهم بوش الأب والابن). لقد كـانت ولا تزال علاقـة فريدة، وهى علاقة لا يمكن تقويضها لأنها مـتأصلة فى وجدان وأخلاق وديانة ومعتقدات الشعب الأمريكى نفسه.. إلى أن قال (إننا نتقاسم معا ميراث التوراة)[2].

وقد التزمت البـاحثة الممتازة بالمنهج العلمى واستندت إلى مـئات المصادر، ربما تصل إلى الألف - وتبين لها فى النهـاية - وهو بيت القصيد- أن الصهيـونية غير اليهودية، لدى تطبـيقها على الصراع الفلسـطينى الآن - أى تاريخ إصدار الكتاب سنة ١٩٨٥- لا تزال عنصراً رئيسًـا فى عملية صنع قرار السياسـة الخارجية للأمم الغربية خاصة الولايات المتحدة وأوروبا الغربية[3].

وقد تأكد لدينا الآن - مـارس، أبريل سنة ٢٠٠٢م- بطريقة لا تقبل الشك أن الصهيـونية غير اليـهودية هى العنصر الرئيسـى فى اتخاذ القرارات السيـاسية، وها نحن نرى ونسمع عن تبـادل كل من رئيس أمريكا وإسرائيل الأدوار فى السـياسة، والحرب أيضا - بل المجازر ضد المسلمين سواءً فى إسرائيل أو فى أفغانستان.

*****

---

(١) نفسه ص٢٦٩.

(٢) نفسه ص٢٧٤.

(٣) نفسه ص٢٦٧/ ٢٦٨.

الفصل الثاني

العقيدة اليهودية والسيطرة على العالم

تاريخ بنى إسرائيل كاشف للخلفية العقدية:

إن دراسة تاريخ بنى إسرائيل يشكل ركنًا مهمًا فى دراسة العقيدة اليهودية والتطورات التى مرّت بها، حيث حرّفوا الوحى الإلهى بالتوراة الأصلية التى أُنْزلت على موسى عليه السلام، فقد اصطبغت العقيدة اليهودية بصبغة الأحداث على مراحل تاريخ الإسرائيليين، وصاغها الحاخامات فى كتبهم، ومنها (التلمود)، و(بروتوكولات صهيون) اللتين تعد محتوياتهما المفتاح الحقيقى لفهم شخصية الصهيونى المعاصر. يقول الدكتور على عبد الواحد وافى: (الأسفار الخمسة بالتوراة مكتوبة بأقلام اليهود، وتتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التى كانت سائدة لديهم فى مختلف أدوار تاريخهم الطويل)(1).

كذلك فإن الإحاطة بتاريخهم توضح الحقائق المحيطة بقضايا كثيرة، فإن من أبرز معالم تاريخهم صور العداء مع الشعوب المختلفة. يقول الأستاذ العقاد فى وصفه لطباعهم: (لا يعرف التاريخ لهؤلاء القوم فترة واحدة جمعتهم على ألفة ووئام مع جيرانهم، فدخلوا مصر ونفر منهم المصريون، وعادوا إلى كنعان ونفر منهم الكنعانيون، وقامت لهم دولة فى عهد النبى داود - عليه السلام - فشغلتهم الإغارة على جيرانهم، واتقاء الغارة من أولئك الجيران، ثم جاء سليمان الحكيم -عليه السلام - فبنى لهم الهيكل فثاروا عليه.. ثم انقسموا بعده قسمين: إلى الشمال وإلى الجنوب. وحفظت كتبهم ما قاله الشماليون فى الجنوبيين، وما قاله الجنوبيون فى الشماليين. ثم سباهم البابليون، وحملوهم إلى أرض بابل، فلم تنعقد الألفة بينهم وبين جيرانهم، وسرحهم (كورش) عاهل الفرس بعد حين.. إلى أن يقول فى ختام وصفه لهم: (وجملة تاريخهم بعد العودة من السبى تكرار لهذا التاريخ، ولما تفرقوا فى البلاد بعد هدم الهيكل، حدث لهم فى كل بلد ما

---

(1) الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، والدكتور على عبد الواحد وافى - مكتبة نهضة مصر بالفجالة - مصر - ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤م.

حدث فى البلد الآخر)[1]. . . هذا هو التاريخ العام لهم، وسنعود له مرة أخرى معللين مفسرين.

أما عن القسوة والوحشية فى الحروب، فحدث ولا حرج عن بشاعتها مما سجلته التوراة نفسها، كما يقرر العلامة جوستاف لوبون (ويعرف جميع قراء التوراة وحشية اليهود التى لا أثر للرحمة فيها، وما على القارئ، ليقنع بذلك، إلا أن، يتصفح نصوص سفر الملوك التى تدلنا على أن داود كان يأمر بحرق جميع المغلوبين وسلخ جلودهم ونشرهم بالمنشار، وكان الذبح المنظم بالجملة يعقب كل فتح مهما قل، وكان الأهالى الأصليون يوقفون فيحكم عليهم بالقتل دفعة واحدة فيبادون باسم (يهوه) من غير نظر إلى الجنس ولا إلى السن. وكان التحريق والسلب يلازمان سفك الدماء)[2].

وإذا عرفنا من هذه اللمحات فى تاريخ بنى إسرائيل بعض الحقائق المتعلقة بنفسياتهم وطبائعهم التى لم تتغير فى واقعهم المعاصر، فإننا نريد بعد ذلك الوقوف على بعض الواقعات المهمة فى تاريخهم توطئة لاستقراء وقائعها وتحليل أبعادها، بل إن الديانة اليهودية نفسها قد تأثرت بديانات ومعتقدات بابل - بإقرار أحد مراجعهم وهو قاموس التوراة الذى يقرر: (أن تفهم الديانة العبرية مستحيل ما لم يؤخذ بعين الاعتبار، وبشكل مستمر، الديانات والثقافات الأخرى التى نمت وترعرعت فى وادى الفرات. . إن الأصول القضائية البابلية، وكذلك الطقوس المعمول بها فى المعابد البابلية، يجب أن تؤخذ كعوامل حاسمة التأثير على الشرائع

---

(١) الصهيونية العالمية، عباس محمود العقاد ص ٤١ مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨م، أما الانقسام المذكور فالمقصود به: إسرائيل فى الشمال ويهوذا فى الجنوب، وقامت الحروب بينهما وظلت مشتعلة الأوار يرثها خلف عن سلف، حتى لتقرأ فى ختام الحديث عن كل ملكين متقابلين فى يهوذا وإسرائيل هذا العبارة بنصها: (وكان بينهما حرب كل الأيام). وقال تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤] ص ٦٦. وينظر كتاب (اليهود من كتابهم المقدس) للأستاذ كمال أحمد عون، ص ٦٦/ ط دار الشعب عام ١٩٦٩م.

(٢) اليهود فى تاريخ الحضارات ص ٤٧، جوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر - ط عيسى البابى الحلبى وشركاه ١٩٧٠م. وإننا نعتقد براءة داود عليه السلام مما نسب إليه، ولعل صاحب هذا النص يحاول تبرئة قومه من هذه الأفعال بنسبتها إلى النبى داود عليه السلام، وقد أشار لوبون إلى أن التوراة كتاب ألف فى أدوار مختلفة أشد الاختلاف (ينظر ص ٧٢ من المرجع السابق).

العبرانية فى الأصول القضائية والطقوس الدينية)[1].

إن هذا الخليط من الديانات والثقافات والطقوس أفقد التوراة وحدة الموضوع لأنها ترجع إلى مصادر متعددة (وهو الرأى الذى يجمع عليه العلماء اليوم سواء كانوا من رجال اللاهوت أو غيرهم)[2].

أهم الواقعات التاريخية لبنى إسرائيل:

سنقتصر على أهم الواقعات التاريخية لبنى إسرائيل بغية الإجابة عن السؤال التالى:

هل أقاموا حضارة مستقرة بفلسطين، وكانت لها صفة الاستمرار ومن ثم تصبح دعوى إعادتها دعوى مقبولة على ضوء تاريخ الحضارات التى أقامها غيرهم من الأمم؟

وربما كان التطلع إلى إجابة سؤال آخر أهم وهو. . . .

إذا أقيمت لهم دولة مرة أخرى، هل تلتزم بالقيم الأخلاقية وتقيم كيانًا حضاريًا يفيد البشرية، أم تستأنف نشاطها الهدام العدائى للأمم والشعوب كدأبها طوال تاريخها، ومن ثم يصبح مصيرها إلى الزوال ما دامت قائمة على الاستعمار والظلم واغتصاب الأرض - فلسطين - من أهلها الأصليين[3]؟.

إذا بدأنا بتاريخ هجرة يعقوب - عليه السلام - (الملقب بإسرائيل) من بلاد كنعان (فلسطين وما إليها) إلى مصر بسبب المجاعة، قد كان الوزير حينذاك بمصر هو يوسف - عليه السلام - وظلت سلالات بنى إسرائيل بمصر تنعم بالحياة هناك، ثم تغير موقف المصريين القدماء حيث اتخذوا من بنى إسرائيل خدمًا وعبيدًا.

وبقى بنو إسرائيل كذلك إلى أن أرسل الله تعالى إليهم وإلى فرعون وقومه

---

(١) قاموس التوراة - نسورات سكرينبر - نيويورك ١٩٠٩م نقلاً عن: التوراة - تاريخها وغاياتها ص ٢٨ -سهيل ديب - ط دار النفائس ١٤٠٦ هـ.

(٢) التوراة الهيروغليفية ص ٤٦.

(٣) زوال إسرائيل حتمية قرآنية، الشيخ أسعد التميمى، ط المختار الإسلامى بمصر.

رسولين من نسـل (لاوى) (ليفى Levi) - أحد أبناء يعـقوب هما مـوسى وأخوه هارون عليهما السلام يدعوانهـم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الكواكب وأرواح الموتى والملوك والحيوان والنبات. . وظل موسى وفرعـون وقومهما فى مشادات مع فرعون حتى أتيح لهم الخروج من مصر إلى سيناء[١].

وخلال أربعين سنة كان بنو إسرائيل (يتيهون) فى صحراء سيناء عقابًا لهم على رفض الانصياع إلى أوامـر موسى - عليه السلام - بدخـول الأرض المقدسة وهى فلسطين[٢].

وبعد فناء هذا الجيل الجبان نشأ جيل آخـر تمرس بشئون القتال فأكمل الله تعالى دينهم، وأتم عليـهم نعمـته بعـد أن تلقى موسى عليـه السلام من ربه عـز وجل التوراة.

ثم يأتى الانتصار على يد يوشع خليفة موسى عليه السلام بعد وفاته، على بلاد (كنعان، فلسطين) واحتلوها بعد إبادة معظم أهلها.

ويرى جوستاف لوبون أنه (لم يكن هنالك فتح بالمعنى الصحيح على الرغم من أقاصيص مؤرخيهم المملوءة انتفاخًا ومن تعداد الانتصارات، وتقتيل الأهالى وانهيار أريحا)[٣].

ويفسر سبب نجاح بنى إسرائيل بانقسام العـشائر الكنعانية قائلاً: (ويفسر انقسام العـشائر الكنعـانية الكبـير حـقيـقة النجـاح الذى ناله بنو إسـرائيل القليلو الذوق

---

(١) يقـول الدكتـور عمـر فـروخ بكتابه (الإسـلام والتـاريخ) ص ١٦٢ : ١٦٣ - ط - دار الكتاب العـربى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. يقول: إن الأمة التى تزول حضارتها عن سطح الأرض لا تعود مرة ثانية إلى سطح الأرض وبالحضارة التى زالت معها، بينما الأرض تموت (ويدوى نبـاتها ثم يتيبس ويكون حطامًا) ولكنها ترجع فى (العام التالى) إلى الحياة بالنبات الذى كان لها فى العام السابق).

(٢) باختصار من كتاب (الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة قبل الإسلام) ص ٧ للدكتور عبد الواحد وافى.

(٣) اليهود فى تاريخ الحـضارات الأولى ص ٣٤ - جوستاف لوبـون، ترجمة عادل زعيـتر - ط الحلبى بمصر ١٩٧٠م، ويدلل لوبون على مدى تضخيم الانتصارات بقوله: (إن من يقرأ سـفر صموئيل وسفر القضاة بشىء من روح النقد يبـصر دور العنت الذى جاوزه بنو إسـرائيل فى استقرارهم بفلسطين، غـير أن هذه الأقاصيص نفسها إذا ما نظر إليها من خـلال أبخرة الحماسة الدينية ألقت فى النفوس وهمًا قائلاً إن ذلك الفتح ساطع معجز) ص ٣٦.

والضعيفو الأهلية للحرب والسيئو السلاح)[1].

ولا يقر جوستاف لوبون لبنى إسرائيل بإسهامهم فى أية حضارة، معللا ذلك بأن فلسطين **أو أرض الميعاد** - لم تكن غير بيئة مختلفة لهم، فالبادية كانت الوطن الحقيقى لهم[2]، ويحدد بداية تاريخ اليهود الحقيقى فى عهد ملوكهم وربما يقصد بذلك الفترة التاريخية التى أصبح فيها رؤساؤهم ملوكًا ذوى سلطان كبير ومنهم داود وسليمان - عليهما السلام - بعد أن كان رؤساؤهم السياسيون هم القضاة[3].

أما النكبات التى حلت بهم فإن من أشهرها غارة بختنصر ملك بابل فى سنتى ٥٩٦ و٥٨٧ ق. م، بما يعرف فى التاريخ (بنفى بابل) حيث ظلوا فى الأسر زهاء خمسين عامًا حتى تغلب قورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ ق. م. . فوقعوا تحت سيطرة الفرس زهاء قرنين كاملين، ثم تحت سيطرة المقدونيين خلفاء الإسكندر الأكبر ثم تحت سيطرة الرومان.

وعندما قاموا بثورة فى عهد الإمبراطور أدريان ١٣٥م أخمد الرومان ثورتهم وأخرجوهم من ديارهم، فأصبحوا مشتتين فى مختلف بقاع الأرض[4].

وإذا عدنا إلى الفترة التى سمح لهم قورش بدخول فلسطين، وإعادة بناء هيكلهم، فإنهم لم يتمتعوا خلالها باستقلال حقيقى لأنهم كانوا (مهددين من قبل ملوك فارس الذين كانت تساورهم الريب حول كل حجر يضاف إلى الأسوار آمرين قساة بوقف العمل فى غير مرة)[5].

لهذا حق لجوستاف لوبون فى تأريخه للحضارات والأمم أن يستخلص: أن استقلال اليهود لم يكن غير اسمى، ويستطرد فيقول: (وما فتئ الفرس والأغارقة والرومان يسطون سلطانهم المرهوب بالتتابع على تلك المملكة الهزيلة، فتتميز هذه

---

(١) المرجع نفسه ص ٦ (ولا يقر لهم بإنشاء أمة إلا ببداية شاول - أو طالوت) فاستحقوا أن تفتح لهم صفحة صغيرة من التاريخ الحقيقى الذى كان لهم فى العالم.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢، ويقول فى مقدمة كتابه (لم يكن لليهود فنون ولا علوم ولا صناعة ولا أى شىء تقوم به حضارة) ص ١٥.

(٣) الأسفار المقدسة للدكتور وافى ص ٨.

(٤) المرجع السابق ص ٩.

(٥) اليهود فى تاريخ الحضارات، جوستاف لوبون ص ٤١.

المملكة غيظًا من هذا الاستعباد المتصل، فلا تجد ما تتعزى به عن عجزها سوى إلقاء فارغ الخطب)[1].

ويبدو أن لوبون اكتفى بظاهر الوقائع والأحداث، ولم يتتبع النشاط الخفى لليهود طوال تاريخهم، إذ من دأبهم العمل من وراء الستار وتكوين الجمعيات السرية التى تضم لها الشخصيات من ذوى النفوذ والسلطان، وتعويض النقص فى عددهم باستخدام غيرهم من أعضاء الأحزاب والجماعات والأندية.

ولكن المتابع لأنشطتهم الخفية يقف على محاولاتهم الدائبة للاستحواذ على الثروات، والسيطرة على الأمم، وسعيهم الحثيث للوصول إلى مراكز السلطة السياسية فضلاً عن مسئولياتهم عن الكثير من الثورات والحروب فى تاريخ العالم.

ولقد صدرت فى السنوات الأخيرة - عقب نكبة فلسطين - الكثير من الكتب والبحوث والدراسات حول دور اليهود فى أبرز الأحداث التاريخية والمعاصرة.

ومن الوثائق التى تسربت من أحد اجتماعاتهم السرية، ما يكشف النقاب عن بعض هذا الدور، تلك الوثيقة المتضمنة لخطبة أحد كبار الحاخامات فى روسيا قال فيها: (**قد بلينا بسبى بابل، وذقنا به مر العذاب، أما الآن فقد صرنا وحدنا القادرين على كل شىء، هدمت هياكلنا، وحرقت مذابحنا، ولكننا شيدنا منها كثيراً، وأقمنا بدلها الآلاف المؤلفة، مضى علينا فى العبودية ثمانية عشر قرنًا، وخرجنا من وهدة الذل وعلونا على كل الشعوب**)[2]، أى أنهم عادوا للعلو مرة ثانية.

وعلى أية حال، فقد خدع اليهود الأمم عندنا بنوا حركتهم على صلتهم التاريخية بفلسطين، (مع أن هذه الصلة قد انتفت نهائيًا منذ تخريب الإمبراطور تيطس للهيكل سنة ٧٠ م وتشتيتهم فى أنحاء الإمبراطورية الرومانية سنة ١٣٥م فى عهد الإمبراطور هادريان)[3].

---

(١) المرجع السابق نفسه..

(٢) مكائد يهودية عبر التاريخ - عبد الرحمن حبنكة ص ٤١٦ - ط دار القلم بيروت.

(٣) إسرائيل فتنة الأجيال، إبراهيم خليل أحمد ص ٣٣١ - مكتبة الوعى العربى ١٩٧٠م.

كمـا ظهر من بينهم مـن يعارض هذا الزعم. يقـول أدوين مونتاجـو - الوزير البريطانى (١٩١٦ - ١٩٢٢): (إننى يهودى، ولكننى أعتـرف بأنه لا توجد قومية يهودية وأن فلسطين ليست لها علاقة باليهود)[١].

وقد وُظفت العـقيدة الدينية اليـهودية فى تحقيق إقـامة الكيان الصهـيونى باسم (إسرائيل)، واتفق على ذلك المتـدينون والعلمانيون معًا، وهى ظاهرة تبـدو غريبة لأنها تخالف ما عهدناه من الخصومة التقليدية بينهما فى بلاد العالم.

وأرغمت إسـرائيل العالم كله على الاعتـراف بها، بل أصبـحت محط الأنظار وموضع التـبجـيل والتقـدير من الدول الكبرى قـبل الصغرى، ويتـضح ذلك من مراسم تشـييع أحـد رجال السيـاسة والحرب هـناك (إسحق رابين)[٢] (شـارك فى جنازته خمسون رئيس دولـة، إضافة إلى أربعة آلاف من الشخصيـات الرسمية من إسرائيل وأنحاء العـالم بينهم وفد أمريكى من مائة مسـئول فى الإدارة على رأسهم الرئيس كلينتون.. ولم تكتف بريطانيـا بإرسال رئيس الحكومة جون مـيجور، بل كان هناك أيضًا ولى العهد الأمير تشارلز... إلخ).

ويستنتج جارودى من هذا الحدث البارز عدة ملاحظات:

أولها: أن قـاتل رابين ليس مجـنونًا أو عربيـدًا، ولكنه نتـاج خالـص للتربيـة الصهـيونية إذ تشـبع بتعاليم المدارس التلمـودية ويحتفظ فى مكتـبته بسـيرة باروخ جـولدشـتـاين الذى اغـتـال فى الخليل ٢٧ من الـعـرب وهم يصلون، ورأى فى التليفزيون الرسمى الإسرائيلى عرض جماعة (إيال) - أى محاربو إسرائيل - وهم يقسمـون على قبر مؤسس الصهيـونية السياسية - تيـودور هرتزل بأن «يعدموا أى شخص يفرط للعرب **فى أرض الميعاد فى يهودا وسامرا** (الضفة الغربية حاليًا).

الملاحظة الثانية: اعترف القـائل - وهو لسان حال المتطرفين اليـهود - (بأن الأمر بالقتل جاءه من الرب) كـما كان يحدث فى عهد يشوع، وهو أيـضًا نبت المجتمع الإسرائيلى، فإن المستعمرين فى قريتـى إربا وحبرون (الجليل) كانوا يرقصون فرحًا

---

(١) نفسه ص ٣٠٨.

(٢) مقالـة غادة الكرمى (الحياة ٢٣/ ١١/ ٩٥) نقـلاً عن كتاب (آليات الاختـراق الإسرائيلى للمنطقة العـربية) ص٢٨٧ مصطفى عبد الرازق، كتاب الغد - دار الغد العربى - نوفمبر سنة ١٩٩٦م.

يوم اغـتيـال رابين وهم يرددون مـزامـير داود حـول الضـريح المقـام على باروخ جولدشتاين)[1].

الملاحظة الثالثة: أن رابين كان هدفًا رمزيًا، لا كـما ادعى كلينتون من أنه حارب طوال حياته من أجل السلام، لأنه فى الحقيـقة (هو الذى قاد جيوش الاحتلال فى بداية الانتفـاضة (الأولى) وأعطى الأوامـر بكسر عظام أيدى الأطفـال الفلسطينين الذين لم يكونوا يملكون شيئًا آخر سوى الأحجار للدفاع عن أرض أجدادهم)[2].

وإلى الذين لا يزالون يـشكون فى السـيطرة العـالميـة لليـهـود، وتحكمـهم فى مجـريات الأمور السـياسـية والاقتـصادية والإعـلامية، نـسوق دراسة مـختـصرة لبروتوكولات حكماء صـهيون، التى حقق اليهود أغلبـها ولم يبق إلا تحقيق الحلم فى مد حدود دولتهم الجغرافية من النيل إلى الفرات. يقول الأستاذ أنيس منصور:

(إن إسرائيل نفسهـا ليست لها خريطة رسمية، إن حدودها مـفتوحة، لم تحدد بعد.. بل هم لا يريدونها محدودة، لأن أطماعهم لم تقف عند أية حدود بعد.. إنهم يريدون أن يحتـالوا وأن يساوموا وأن يسـرقوا، وليس صحيـحًا أنهم يريدون سلامًا أو تعـايشًا.. إنهم لم يعرفوا الـسلام ولم يعايشوا أحدًا فـى أى عصر من العصور).

ثم يستطرد: ويكذب بن جـوريون عندما يزعم أن (العالم كله يقـول إن اليهود يعيـشون على أنهم سادة البـشر، وأنهم يجب أن يتمكنوا من رقـاب العالم كله، ونحن نقـول: كـان هذا رأى اليهـود من ألوف السنـين.. ولكن ليس هذا رأيهم الآن)!

ويعلق أنيس منصور بقوله (ولكن بن جوريون يغالط طبعًا.. فلا تزال الأحزاب الدينية والكتب الحديثة التى تصدر عن إسرائيل تؤكد ما يريد أن ينفيه)[3].

---

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص ٤٢/ ٤٣ رجاء جارودى، ترجمة قسم الترجمة دار الغد العربى بالقاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٢) نفسه ص ٤٣.

(٣) وجع فى قلب إسرائيل، أنيس منصور المكتب المصرى الحديث بالقاهرة سنة ١٩٧٩م ص ٥٥.

صلة أرض الميعاد بالمسلمين

تقصىّ العلاَّمة الهندى مولانا محمد على بعض نصوص العهد القديم، فأرشدته إلى أن حق المسلمين فى أرض الميعاد ثابت طبقًا لهذه النصوص.

وقد استهل بحثه بقوله إن الجّد الأعلى لليهود والإسماعيليين هو إبراهيم الخليل عليه السلام. وعلى الرغم من أن الكتاب المقدّس الذى أُنزل على إبراهيم عليه السلام لم يصلنا، فإن سفر التكوين من (العهد القديم) يلقى ضوءًا كثيرًا على وعود الله له فى ما يتصل بمستقبل ولديه إسحق وإسماعيل. والقرآن الكريم نفسه يُلمح إلى الوعود نفسها حين يقول ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ**﴾ [البقرة: ١٢٤].

وهكذا وعد إبراهيم عليه السلام بأن تُكرّم ذريته بهبة النبوّة. ولكنها لابد أن تُنتزع منهم إذا ما ظلموا. فصلاة إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - المشتركة فى الكعبة تشير إلى المفاد نفسه ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [البقرة: ١٢٩].

وفى «العهد القديم» وعد إلهى بالمعنى ذاته فاز به إبراهيم عليه السلام حتى قبل مولد إسحق وإسماعيل (فأجعلك أمة عظيمة، وأباركك وأعظمّ اسمك. وتكون بركة، وأبارك مباركيك ولاعنُك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض) سفر التكوين ١٢: ٢-٣.

إنّ قليلاً من إنعام الفكر ليُظهر فى وضوح أن هاتين الآيتين تشيران بما لا يحتمل اللبس إلى ذرية إسماعيل، يعنى إلى المسلمين. ذلك بأن المسلمين هم وحدهم، بين أقوام العالم كله، الذين يصلّون على إبراهيم عليه السلام خمس مرات كل يوم.

... وبعد ذلك يشير سفر التكوين نفسه إلى إسماعيل عليه السلام باسمه فيقول: (وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه، ها أنا أباركه وأثمره وأكثرّه كثيرًا جدًا. اثنى عشر رئيسًا يلد، وأجعله أمةً كبيرة) سفر التكوين ١٧: ٢٠.

وهنا أُعطى الوعد الخاص بإسماعيل عليه السلام وذريته بالطريقة نفسها التى أعطى بها الوعد الخاص بإبراهيم عليه السلام وذريته. . .

وجاء بنص سفر التكوين ١٧ : ٧-٨ (وأقيم عهدى بينى وبينك - أى العهد بين الله عز وجل وإبراهيم عليه السلام - وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدًا أبديًا، لأكون إلهًا لك ولنسلك من بعدك، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض عزبتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا. وأكون إلههم).

وفى تفسير هذا النص، قال مولانا محمد على: (وهذه علامة أخرى منظورة ترينا من هم الآن الورثة الحقيقيون للوعد الإلهى لإبراهيم - عليه السلام - ومن الحقائق التاريخية الثابتة أنه ما إن جاء الرسول محمد ﷺ حتى انتزعت أرض الميعاد من أتباع الأنبياء الإسرائيليين ونقلت ملكيتها إلى المسلمين الذين بسطوا سلطانهم عليها طوال القرون الثلاثة عشرة الماضية. وإنما كان الغرض الأساسى من الحروب الصليبية هو انتزاع أرض الميعاد من أيدى المسلمين. ولا ريب فى أنها ضاعت من أيدى المسلمين «**مؤقتًا**»، ولكنها سرعان ما أعيدت إليهم بعد فترة يسيرة، **وفاءً بالوعد نفسه التى وعد الله إبراهيم - عليه السلام - ولو قدّر لها بعد أن تضيع من أيدى المسلمين فلن يستمر ذلك غير برهة قصيرة. إن السيطرة السرمدية عليها سوف تكون دائمًا للمسلمين)**[1].

أما إصرارهم على استعمار أرض الميعاد، فليس مسلمًا لهم بناء على نصوص من كتبهم نفسها. وسنأتى الآن لشرح مختصر للبروتوكولات التى تضمنّت خطط السيطرة على العالم:

بروتوكولات حكماء صهيون:

إذا بدأنا بتعريفها، فإن الأقرب إلى الدقة وصفها بأنها (مجموعة من المبادئ الأساسية الاستراتيجية، ولا يمكن تغيرها بحال، يزنون بها - وهم اليهود - تنفيذهم العملى)[2].

(١) ص٤٤، ٤٦ من (كتاب حياة محمد ﷺ ورسالته)، مولانا محمد على، وقد كتب مقدمته فى سنة ١٩٢٣. ترجمة منير البعلبكى - دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٦٧م.
(٢) حقيقة اليهود، فؤاد بن عبد الرحمن الرفاعى ص ٢٧، دار القسام بالكويت، رجب ١٤٠٦ هـ.

وهذه البـروتوكـولات - بالرغم من عـدم الترابط الـظاهر بين بنودها - إلا أن الدارس لهـا بمنهج تحليلى يتضح لـه فى النهاية أنهـا اتخذت شكل نسق مـتكامل وتضمنت خطة عمل مترابطة ترمى إلى إيقاع الأمميين - أى غير اليهود - فى شباك النفوذ اليهودى، ووضعت السبل التى تحاصـر فيها الأمميين فى كافة أوجه أنشطتهم وصنوف حياتهم، أى حياة الفرد ومعتقداته وسلوكـياته، وحياة المجتمعات ونظمها الاقتصادية والسياسية والتربوية والثقافية.

كـذلك تبدو الصـلات واضحـة بين بعض نصـوصهـا، ومحـتويات التلمـود والتنظيمات الماسونية، وإلى القارئ بعض الشواهد:

- إننا مختارون من الله لنحكم الأرض.
- يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان.
- إن الأمميين كقطيع من الغنم وإننا الذئاب.
- إننا كنا الشعب الوحيد الذى يوجه المشروعات الماسونية[١].

أما عن تاريخها فيرجع إلى آخريات القرن الماضى، واكتنف ظهورها على العالم - بعد أن كانت فى شكل وثائق سـرية - كثير من الملابسات الملفتـة للأنظار (فقد طبـعت لأول مرة فى روسـيا ١٩٠٥م ثم انتـشـرت ترجمـاتها فى سـائر الأقطار الأوربية بلغات عدة، ولوحظ - كـما أشار الأستاذ العقـاد - أنها لا تظهر فى لغة من اللغات إلا اخـتفت على أثر ذلك، وأنها اخـتفت أو تختفى كلمـا عادت إلى ظهور مترجمة أو مطبوعة من جديد)[٢].

وعندما تم نشـرها لأول مرة أعلن اليهود على لسـان زعيمهم (هرتزل) الـتبرؤ منها، وأنها مزيفـة، وضغط اليهود على بريطانيا للتدخـل فى روسيا لمصادرة نسخ

---

(١) من كتاب (الخطر اليهودى - بروتوكـولات حكماء صهيون) ترجمة محمد خليفـة التونسى وتقديم الأستاذ العقاد - مكتبة دار التراث بمصر ١٩٧٧م، الصفحات ١٤٥، ١٨٤، ١٧٢، ١٩٠.

(٢) تعقيب محمد خليفة التونسى على كتاب (الصهـيونية العالمية للعقاد) ص ١٥٧ - ط مكتبة غريب بالفجالة بمصر عام ١٩٦٨م، ويعلق فى الختام بقـوله: (وتفسير هذه الظاهرة فيما نرى أن اليهود يجـمعون نسخها كلما عادت إلى الظهور، يفضح مؤامرة من مؤامرات (الصهيونية العالمية).

الكتاب، وكـذلك فعلوا أيضًـا فى فرنسا، وعـملوا على إيقاف طبـعهـا فى ألمانيا (وشاع أنه مـا من أحد ترجم هذا الكتـاب، أو عمل على إذاعتـه بأى وسيلة، إلا انتهت حياته بالاغتيال أو بالموت فى ظروف مريبة)[١].

وهناك شواهد كثيرة ترجح صحة نسبة البروتوكولات إلى اليهود، منها الدراسة المقارنة التى قام بها الصحفـى البريطانى (فيكتور مارسون)[٢]، على أثر الانقلاب الشيوعى فى روسيـا ١٩١٧م، حيث رأى فى هذا الانقلاب تحقيقًا عمليًـا لتوقعات ناشرها الروسى نيلوس، منذ نشر البروتوكولات عام ١٩٠٥م، وكان يحذر الروس حينذاك من مؤامرات اليهود[٣].

كذلك فإن من يراقب ويتفكر فى أحوال العالم المعاصر، كما فعل (هنرى فورد فى كتابه: اليـهودى العالمى) - يميل إلى تصديق مـا ورد بهذه الوثائق السرية، لأن الواقع يشهـد بآثارها على أحوال الأمم والشعوب، كـما تشهد بصـمات الأصابع على صاحبـها، فقد صرح ذات مـرة لأصدقائه قائلاً: (مـهما كانت حقـيقة هذه البـروتوكولات، فـإنها تتـفق مع مـا هو واقع الآن. ولا يختلف مـضمـون هذه البروتوكولات عما جاء فى التلمود، ثم يمضى فيـذكر أحد نصوصها الذى يتضمن أن الثورة الفرنسية من صنع الماسون[٤]. وكل من يرجح صحتها يستند إلى مطابقة الواقع لتعاليمها، وأن (لسان الحال أصدق من لسان المقال)[٥].

البروتوكولات والحركات الصهيونية:

ولكى لا يتشـعب بنا الحديث عن البروتوكـولات، فإننا نعرض لمضمـونها من بعض المسالك المتصلة بأهداف بحثنا، ومنها:

---

(١) حقيقة اليهود - فؤاد بن سيد الرفاعى ص ٣٩.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧.

(٣) ومما قـاله نيلوس حينذاك (ولا يعلم إلا الله وحـده كم كـانت المحاولات الفـاشلة التى بذلتهـا لإبراز هذه البروتوكولات إلى النور، أو حتى لتـحرير أصحاب السلطان، وأن أكشف لهم عن أسبـاب العاصفة التى تتـهدد روسيـا البليـدة التى تبـدو من سوء الحظ أنهـا فـقـدت تقديرها لما يـدور حولهـا) ص ٢٤٤ - البروتوكولات (تعقيب سرجى نيلوس).

(٤) الماسونية تحت المجهر. د. إبراهيم فؤاد عباس ص ٢٨ دار الرشاد - جدة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٥) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

(أ) صلة البروتوكولات بمضامين تلمودية صريحة أو خفية (وغاية ما هنالك أن التلمود قد أجملت حيث عمدت هذه الوثائق إلى التفصيل والتمثيل)[1].

(ب) لعل هذه الدراسة المقارنة وما شابهها تجعلنا نعيد تقويم بعض الشخصيات، وتفسير بعض الأحداث المؤثرة فى عالمنا الإسلامى - تاريخيًا وفى العصر الحديث، وذلك ببحث مدى تطابقها مع تعاليم هذه الوثائق ونصوصها بين وقائع الأحوال والتصريحات المعلنة، أو السير بالشعوب إلى حتفها مع إيهامها بأنها تمضى نحو المستقبل المزدهر.

(جـ) تحول اليهودية إلى دين سياسى فى العصر الحاضر باسم الصهيونية، فقد برزت فى نهاية القرن التاسع عشر تقريبًا (مفاهيم الصهيونية السياسية كتعبير عن اليهودية غلفت نفسها بمنطق لغة السياسة وأساليب الوصول إلى الحكم)[2].

* * *

(أ) إننا نجد أحد الأمثلة المعبرة عن التحام نصوص التلمود مع البروتوكولات فيما أورده أحد نصوص التلمود بعد وصف الأمم والأجناس بالحيوانات وكيفية السيطرة عليهم: (يجب أن نزوج الجميلات للملوك والوزراء والعظماء وأن ندخل أبناءنا فى الديانات المختلفة، وأن تكون لنا الكلمة العليا فى الدول وأعمالها، فنفتنهم ونوقع بينهم ونجعلهم يحارب بعضهم بعضا، وفى ذلك كله نجنى الفائدة الكبرى)[3].

ثم نقرأ عن النتائج المتحققة فى البروتوكول الأول كالآتى: (ومن المسيحيين أناس قد أضلتهم الخمر، وانقلب شبانهم مجانين بالكلاسيكيات والمجون المبكر

---

(١) مقدمة البروتوكولات للعقاد ص ١٢.

(٢) د. حامد ربيع: سلوك المالك فى تدبير الممالك ج ١ ص ٤١ - ط دار الشعب بمصر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. كذلك يحدد تاريخ ١٥/ ٥/ ١٨٩١م موعدًا لإعلان البابا الكاثوليكى ليون الثالث عشر إرادة الكنيسة فى أن تدخل فى الأحداث، وأن تدفع بالقوى السياسية المدافعة عن مبادئها فى سبيل تحقيق أهدافها المدنية (نفس المصدر).

(٣) المسيح المنتظر وتعاليم التلمود - د. محمد على البار ص ١٦١.

الذين أغراهم به وكلاؤنا ومعلمونا وخدمنا وقهرماتاتنا (أى المربيات بالمنازل) فى البيوتات الغنية، وكتبتنا ومن إليهم، ونساؤنا فى أماكن لهوهم - والهين -، أضيف من يسمين «نساء المجتمع» - أو الراغبات من زملائها فى الفساد والترف[1].

وربما كان النصيب الأوفر عند تنفيذ مثل هذه الخطط للمجتمع الأمريكى، فقد أورد هنرى فورد بكتابه (اليهودى العالمى) ما يثبت بالأدلة الوثيقة كيف دمروا (الأخلاق والقيم باحتكار تجارة الخمور والبغاء والأزياء الماجنة والأشرطة الوضيعة والمسرحيات البذيئة والآداب الساقطة)[2].

بل لا يخلو مجتمع من المجتمعات بأقطار الأرض قاطبة من آثار أفعالهم، فكيف نجحوا؟.

الحق أنهم تعمقوا فى فهم النفوس البشرية ودوافعها وغرائزها، واستطاعوا بذلك قيادة عملائهم كيفما شاءوا. ولنقف قليلاً على تحليلاتهم النفسية لهؤلاء:

ينص البروتوكول الرابع عشر بإحدى فقراته على الآتى: (ومعظم الناس الذين يدخلون فى الجمعيات السرية مغامرون، يرغبون أن يشقوا طريقهم فى الحياة بأى كيفية: وليسوا ميالين إلى الجد والعناء. وبمثل هؤلاء الناس سيكون علينا أن نتابع أغراضنا، وأن نجعلهم يدفعون جهازنا للحركة).... فى فقرة أخرى نراهم يصفون الأمميين الذين يكثرون من التردد على الخلايا الماسونية بالفضول أو رغبة الحصول على الأشياء الطيبة، كما يبحثون عن عواطف النجاح وتهليلات الاستحسان (وأنتم لا تتصورون كيف يسهل دفع أمهر الأمميين إلى حالة مضحكة من السذاجة والغفلة بإثارة غروره وإعجابه بنفسه، وكيف يسهل من ناحية أخرى

---

(١) البروتوكولات ص ١٢٦ وينص البروتوكول الخامس على أنهم بذروا الخلاف بين كل واحد وغيره فى جميع أغراض الأمميين الشخصية والقومية، بنشر التعصبات الدينية والقبلية خلال عشرين قرنًا ص ١٤٤. ويذكر أن هناك طائفة عددها نحو ٤٠٠ أسلموا فى مصر عام ١٩٤٢م تعليقه على البروتوكولات ص ١٥٤/١٥٥.

(٢) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د. عبد الستار فتح الله سعيد ص ٥٤.

أن تثبط شجاعته وعزيمته بأهون خيبة، ولو بالسكوت ببساطة عن تهليل الاستحسان له، وبذلك تدفعه إلى حالة خضوع، ذليل كذل العبد)[١].

ولكن سلطان المطامع والمنافع والشهوات لا تعمل وحدها - كما يرى الأستاذ العقاد فى تحليله لنفوس أولئك الأعوان - بل لابد أيضًا من أساليب الهدم والخداع أى هدم الأخلاق والأوطان والأديان، وهى كالحصون التى تحمى ضحاياها (أما إذا أصبح المسلم غير مسلم، وأصبح المسيحى غير مسيحى، وأصبح الوطنى لا يبالى بوطنه، وأصبح الضمير الإنسانى لا موضع فيه للحلال والحرام، فهى على الأقل ميدان لا موانع فيه ولا عقبات، وإن لم يكن فيه أعوان وأذناب)[٢].

(ب) إذا كان التلمود يغذى كما رأينا فى اليهود روح العنصرية والامتياز عن باقى الأمم، وينمى فى أنفسهم الاستهانة والاحتقار لغيرهم من الأجناس والشعوب والأديان، فإن الغاية هى بسط سلطانهم على العالم كله.

إذا كان الأمر كذلك، فإن قراءة البروتوكولات بهذا الفهم لا تزد عن كونها برنامج تفصيلى للأهداف اليهودية المتحققة على أرض الواقع ومفتاحًا للوعى المتكامل لكثير من الواقعات التاريخية والمعاصرة، وحفزا للهمم - وهذه هى غايتنا- لوضع البرامج العلمية والخطط الهادفة المضادة فى سبيل استكمال وظهور اليقظة الإسلامية المرتقبة التى تنمو الآن فى رحم الأمة.

وإذا أخذنا برأى ابن خلدون صاحب النظرية التى تدرس تاريخ الأمم وواقع المجتمعات والحضارات بتشبيهها بالجسد الإنسانى[٣]، رأى كجسد حى يتكون

(١) البروتوكولات ص ١٩١.

(٢) الصهيونية العالمية، عباس العقاد ص ٧٦، ويقول أيضًا (فحسب الصهيونية كسبًا أن تتهدم أركان الوطنية والدين وأن تنهار قواعد الأخلاق والآداب... فتستريح من هذه العوائق فى طريقها، وتتفتح الأبواب لسلطان المال والخداع بغير شريك ولا حسيب (المرجع نفسه ص ٧٩).

(٣) ويرجع الفضل إلى الدكتور حامد ربيع الذى لفت النظر إليها وبيّن أثرها التطبيقى فى الممارسة على النظريات السياسية الغربية، وربما كان مصدر ابن خلدون عبارة حنين بن إسحاق (إن الدماغ ابتداء الحس والحركة الإرادية والسياسية)، ويرى د. عبد الصبور شاهين أن صفة (السياسة) تعنى قيادة الجسد وتوجيهه، ثم جاء المعنى الحديث فوسع مجال استعمال الكلمة بنقله من إدارة الجسد البشرى إلى إدارة الكيان الاجتماعى (ص ١٢٩ من كتابه: العربية لغة العلوم والتقنية) ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

إجمالاً من رأس مفكرة وقلب نابض وجسد تتقاذفه الغرائز (إن لم يخضع لأوامر ونواهي الشرع)، فإننا نرى فى تطبيق نظريته على مضمون البروتوكولات أقرب الطرق لاستيعابها، وهذا ما سنفعله بمنهج تركيبي فى القوالب الآتية:

١ - تغيير العقائد والأفكار بإزاحتها وإحلال بدلها نظريات زائفة.

٢ - صنع القيادات وجعلها تابعة للخلايا الماسونية السرية، وقد عرفنا نفسيًا كيف يسوقون الأعوان والأتباع إلى ما يريدون.

٣ - صرف جماهير الشعب عن المتابعة والاهتمام بما يدور حولها، حتى تخرج من حلبة الصراع وتتفسخ إرادتها وتصبح طوع البنان تتحرك كالسائمة لا تدرى من أمرها شيئًا.

١ - العقائد والأفكار:

ورد بالبروتوكول الثانى أن نجاح داروين وماكس ونيتشه كان بترتيبهم مع ترقبهم للأثر غير الأخلاقى لاتجاهات هذه العلوم فى الفكر الأممى[1]. ويبدو أن بعض الأعضاء كانوا مكلفين بتتبع آثارها الأخلاقية، فسجلوا فى البروتوكول التاسع هذه الملاحظة:

(ولقد خدعنا الجيل الناشئ من الأمميين وجعلناه فاسدًا متعفنًا بما علمناه من نظريات معروف لدينا زيفها التام، ولكننا نحن أنفسنا الملقنون لها)[2].

كذلك حرصوا على الترويج لما سمّوه بالنظريات المبهرجة، أى التى تبدو فى ظاهرها تقدمية أو تحررية، وهى فى حقيقتها ليست كذلك (ولا يوجد عقل واحد بين الأمميين يستطيع أن يلاحظ أنه فى كل حالة وراء كلمة «التقدم» يختفى ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التى تشير فيها هذه الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية) إذ ليس هناك إلا تعليم حق واحد)[3].

ويسجل البروتوكول الأول أنهم أول من صاغ فيها الناس قديمًا (الحرية والمساواة والإخاء)، فأخذت الجماهير ترددها كالببغاوات، بينما (حرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التى كانت من قبل فى حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة)[4]،

(١) البروتوكولات ص ١٣٢.
(٢) المرجع نفسه ص ١٥٩.
(٣) المرجع نفسه ص ١٨٣.
(٤) المرجع نفسه ص ١٢٨.

ولكنهم يفخرون بأن هذه الصيحة جلبت إلى صفوفهم فرقًا كاملة بينما هى فى الواقع تحطم سلامتهم واستقرارهم ووحدتهم مدمرة بذلك أسس الدول[١].

٢ - القيادات:

تمضى الخطة فى هذا الصدد خلال ثلاث شعب: إحداهما: إزاحة الفئة الممتازة التى تستحق تولى زمام الأمور عن جدارة واستحقاق لتفوقها، واستبدالهم بوكلائهم التابعين لهم (وسنخضع الرعاع لهذا النظام لأنهم سيعرفون أن هؤلاء القادة مصدر أجورهم وأرباحهم وكل منافعهم الأخرى)[٢].

والثانية: الحط من كرامة (رجال الدين من الأمميين) فى أعين الناس باعتبارهم عقبة كؤد فى طريق اليهود (وأن نقيد نفوذ رجال الدين على الناس ليتضاءل يومًا فيومًا)[٣].

والثالثة: السيطرة الاقتصادية، بالحصول على الاحتكار المطلق للصناعة والتجارة، مع تجريد أصحاب الأراضى من الأمميين من أراضيهم (لأن معيشتهم المستقلة مضمونة لهم بمواردهم)، مع العمل على استنزاف الثروات بحيث تصبح فى أيدى اليهود، فيعم الفقر الطبقات العاملة (وعندئذ يخر الأمميون أمامنا ساجدين ليظفروا بحق البقاء)[٤].

٣ - جماهير الشعب:

ربما تتضح فاعلية البروتوكولات الخطيرة فى التنفيذ بشكل واقعى أكبر إذا طالعنا الفقرات المتصلة بالجماهير، وكيفية قيادتها بعد إفقادها الوعى وخلخلة إرادتها، حيث تتشابك النصوص بعضها ببعض كالسلاسل الحديدية التى تقيد أيدى الإنسان وأرجله، هذه السلاسل الشيطانية وحدها لتحقيق الإفساد الذى يسعى إليه اليهود فما البال بها كلها؟

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢٩.

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٣.

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٤.

(٤) المرجع نفسه ص ١٤٩.

إنها تتشابك وتتعقد فلا تترك عضواً من الأعضاء فى جسد الأمة الممثل فى جماهير الشعب إلا وقد أحاطت به والتفت حوله، فبدءا من تدمير الحياة الأسرية وإفساد أهميتها التربوية، إلى السيطرة على الصحافة بنشر التعصبات الدينية والقبلية، وبث الفوضى الاجتماعية، إلى تضليل الرأى العام وإيقاعه فى الحيرة بتغييرات من جميع النواحى لكل أساليب الآراء المتناقضة حتى لا يكون له رأى فى المسائل السياسية[١].

وإمعانًا فى صرف الجماهير عن الاهتمام بالمسائل السياسية، فإنهم يلهونها بأنواع شتى من الملاهى والألعاب ومزجيات الفراغ وغيرها، ولا ينسون أيضًا تدبير الأزمات الاقتصادية وإلجاء الحكومات إلى القروض وتحميلها بالفوائد[٢].

(جـ) كيف أفلح اليهود - وهم أصحاب الدين المغلق - من إقامة دولة وكيان قائم على عقيدة دينية؟

تمهيدًا للإجابة عن هذا السؤال نستطلع بعض مواد البروتوكولات، ومنها (إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق فى شىء)[٣]، وفى نص آخر يشير إلى ضرورة سحق كيان حكومة الأقلية الفاضلة العادلة التى تقف ضدهم، ثم تأتى الخطوة التالية أى (نستثير مرض ضحايانا من أجل النافع، وشرههم ونهمهم، والحاجات المادية للإنسانية، وكل واحد من هذه الأمراض يستطيع وحده مستقلاً بنفسه أن يحطم طليعة الشعب، وبذلك نضع قوة إرادة الشعب تحت رحمة أولئك الذين سيجرونه من قوة طليعته)[٤]. أى يؤسد الأمر إلى غير أهله، وأضف إلى ذلك الالتزام بشعارهم وخلاصته (كل وسائل العنف والخديعة)[٥].

---

(١) ينظر البروتوكولات الصفحات ١٦٣، ١٧٩، ١٤٦، ١٥١.

(٢) المرجع نفسه ص ١٨٣ : ٢١٨.

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٢.

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٠ ويفسر الأستاذ التونسى الطليعة بأنهم الممتازون الذين يتقدمون طوائف الشعب وينتزعونها ويقضون فى أمورها.

(٥) المرجع نفسه ص ١٢٢.

وتأتينا الإجابة على لسان الأستاذ العقاد فى وصف أساليب الصهيونية، وتتلخص فى (استطلاع الأسرار والخفايا، وتسخير سلطان المال لاستغلال الحركات الاجتماعية والعلاقات الشخصية بذوى النفوذ، والاتجاه بها إلى الوجهة التى تحقق لها مصالحها وأغراضها)[1]، كما أفادوا من الاستشراق والغزو الثقافى.

وقد كشف لنا الدكتور حامد ربيع تفاصيل أنشطة الاستشراق، حيث عكف على دراسة أدوات الغزو الاستعمارى أو ما يسميها (أدوات التسميم السياسى) الذى خضعت له المنطقة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وخلص إلى لفت أنظارنا إلى طبيعة **الاستشراق** كأداة من أدوات الغزو الاستعمارى، وبين أنشطته:

١ - كوسيلة للنفوذ الغربى فى فهم العالم العربى.

٢ - كأداة لاستقطاع القوى غير المسلمة، وبذر عناصر **الطابور الخامس** فى تلك الأقليات.

٣ - كأداة لإعادة تشكيل **منطق الطبقات القيادية**.

هذا، ولم يتهيأ للاستشراق النجاح إلا بعد بذره للمدارس الأجنبية والإرساليات الإنجليزية والفرنسية والأمريكية، ثم الجامعات التى كانت أداة ثقافات غير عربية (وغير إسلامية أيضًا). **وجاءت الحركة الصهيونية فانتفعت بكل هذه الخبرات وأضافت إليها**[2].

---

(١) الصهيونية العالمية ص ٧٥، ويتحدث عن (الصهيونية المستعمرة) التى ظهرت فقط فى العصر الحديث، بينما لم تقم لليهودية كلها دولة فى العالم منذ أكثر من سبعة وعشرين قرنًا، فلم تكن قط فى عداء المستعمرين بقوة حكومتها وجيشها، وإنما كان عملها فى الاستعمار أنها تستتر وراءه، وتمهد له وتعتمد عليه فى الاستغلال وامتصاص دماء الشعوب.

(٢) باختصار من كتاب (الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإرادة التكامل القومى) ص ٢٨/ ٢٩، دار الموقف العربى بالقاهرة ١٩٨٢م. ويبرهن د. حامد ربيع على صدق استنتاجاته بأن أمة الجهاد انحرف بها قادتها إلى أسلوب التفاوض مثل سعد زغلول فى مصر ونورى السعيد فى بغداد، كذلك أخذت بعض القيادات الفكرية تسبّح بحمد الحضارة الغربية: مثل طه حسين وتوفيق الحكيم، بينما عاش العقاد مشردًا ومات فقيرًا.

الجمعيات السرية: (الماسونية):

ومن أخطرها شأنًا (الماســونية)، وهى جمعــية سرية يستــخدمها اليــهود لاتخاذ أعضائها مــن الأمميين مطايا لبلوغ مآربهم تحت شعار «الإخاء الإنســانى» ويهدفون من ورائه إلى محو العــقيدة الدينية وهدم الشعــور الوطنى بادّعاء أن الأديان سبب تأخر الأمم وأن الشعور الوطنى منافٍ للشعور الإنسانى.

ويضم اليهود غيرهم من أصحاب الأديان الأخرى للماسونية بعد محو عقائدهم الدينية والوطنية، بينمــا يحتفظ اليهود بعقيدتهم وينــفذوّن تعاليم التوراة التى تنص على سموّ عنصــرهم وتحضّهم على وجوب تأديب الشــعوب وإخضاعهــا والانتقام منها كــما جاء فى المــزمور (.. ليبــتهج الأتقيــاء بمجد ليرنمــوا على مضاجــعهم. تنويهات الله فى أفواههم، وســيف ذو حدين فى يدهم. ليصيغــوا نقمة فى الأمم وتأديبات فى الشعوب. لأسر ملوكهم بقيــود وشرفائهم بكبول من حديد. ليجروا بهم الحكم المكتوب. . .)[١].

وللماسونية مراتب ثلاث:

أولها: «الماسونية الكونية» وأعضاؤها من اليهود الخلص.

وثانيتها: «الماسونيــة الملوكيــة» وأغلب أعضائــها من اليهــود ولا يسمح لغــيرهم بالانتساب إليها إلا لمن ثبت إخلاصه وحاز فيها الدرجة ٣٣ لخدمة أدّاها.

وثالثتها: «الماسونية الرمزية» وأعضاؤها من أتباع الديانات الأخرى[٢].

يقــول الأستاذ مــحمــد على علوبة (تلك هى الأحــبولة الكبــرى التى وقع فى شراكــها كثــير من المسيــحيين والمسلمــين، فى جميع بــقاع الأرض، ومنهم ملوك وأمراء ووزراء وساسة، وعلماء ورجال أعمال، ووجــهاء وموظفون، فالمسيحى أو المسلم يدخل الماسونية وأغــراضها الظاهرة إنسانية بحــتة، . . . ثم يروض حتى إذا فسدت عقيــدته الدينية والوطنية وأصبح مطية للماسون رفــعوه إلى درجات عالية، وأغدقــوا عليه الأوســمة والألقــاب، إلى أن يحرز الدرجــة ٣٣ ولا يتعــداها، ثم

---

(١) (فلسطين والضمير الإنسانى)، محمد على علوبة ص ٧٧.

(٢) باختصار من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) ص٧٨/ ٧٩، محمد على علوبة.

يسعـون فى رفع شأنه فـى المجتمع، ويعـملون له الدعايـة، حتى ينال مـركزًا فى حكومته ويوجهونه وأمثاله من الأذلة العظماء إلى ما فيه مصلحة الصهيونية)[1].

ولا يستبعد الكثير من الباحـثين وقوف اليهود وراء الثورات فى العالم بناء على دراسة بعض تصريحات زعمـاء اليهود، ومتابعة الحوادث والحركـات السياسية فى أنحاء العـالم. فمنها خطاب (ريـشهورين) عـام ١٨٥٩: (لندفع بالمسيحـيين إلى الحرب .. إذ بالذهب والملق سنكسب إلى صـفنا العمال، وهم الذين سيـطيحون بالرأسمالية المارقة .. وإننا سنعد العـمال بأجور لم يحلموا بها قط، ولكنا سنرفع كذلك أسعار الحاجيات. وبهذه الطريقة **سنعد العـدة للثورات التى يقوم بهـا «الكفار» أنفسهم، والتى سنجنى ثمارها ..**)[2].

ورأى بعض المشـتغلين بالسـياسة العـالمية الارتبـاط الوثيق بين الماسونيـة وبين الثورات المتعـاقبة التى قامت فى فرنسـا سنة ١٨٧١ وفى البرتغال سنة ١٩٠٥ وفى تركـيا سـنة ١٩٠٥ وفى الصين سـنة ١٩١١ وفى روسيـا سنة ١٩١٧ وفى المجـر وألمانيا سنة ١٩١٨ وفى أسبانيا سنة ١٩٣٦[3].

وأن كثيرًا من كتاب الغرب نبـهّوا العالم إلى (أن الحرب العالمية **الأولى** تمخضت عن وعد «**بلفور**» وإثراء اليهود وبسط سلطانهم، وأن الحرب العالمية **الثانية** تمخضت أيضًا عن قـيام **دولة إسرائيل**، واتسـاع ثراء اليهـود، وازدياد نفـوذهم. ولم تأت الحربان العالميتان بأية نتيجة للعامل سوى الخراب، وتدهور الاقتصاديات المسيحية. **وستكون النتيجة الأكـيدة لحرب ثالثة تدفع إليها الصهيـونية إتمام خراب العالم، وسيطرة اليهود، طبق الوضع الذى حددته قرارات حكماء صهيون**)[4].

*****

(١) نفسه ص ٧٩.

(٢) نفسه ص ٨١.

(٣) نفسه ص ٨٢.

(٤) نفسه ص ١٧٢.

الفصل الثالث

نشأة الصهيونية وتطورها

الصهيونية الدينية:

الصهيـونية مشتـقة من كلمة (صهـيون)، وهو تل من تلال أورشليم. . وتطلق على أورشليم نفـسهـا من قبيل إطلاق الـبعض على الكل. . واليـهود يقـدسونه ويترنمون بذكره فى مزاميرهم، ومنها ما جاء فى المزمور ٨٧ ونصه.

«الرب أحب أبواب صهيون أكثر من جميع مساكن يعقوب. قد قيل بك أمجاد يا مدينة الله»[١].

وفى إحدى مـراحل الصراع، كان بعض كـتابنا ينادون بالتمـييز بين اليـهودية كدين، والصهيونية كمذهب سياسى، وفاتهم أنهما وجهان لعملة واحدة، ويصعب الفصل بينهما. فباعتراف رئيس الوكالة اليهودية (بيرل لوكر) وهو أمريكى (إن راية إسرائيل هى رايتنا. ومن واجبـنا أن نتألم من أجل هذه الراية، وعلينا أن ننظر إلى هذه الراية الصهيونية التى بدأت تخفق فوق دولة إسرائيل، وكأنها تخفق فوق رأس كل منا. . وإن كل آمالنا أن نراها تخـفق فوق رأس جميع الشـعب اليهودى وذلك بعد أن ننتهى من جمع المشتتين من اليهود ضمن هذه الدولة)[٢].

بل لم يفرق هرتزل بين الـيهودية والصهـيونية حـين قال فى خطابه الافتـتاحى للمؤتمر الصهيونى الأول:

(الصهـيونية هى العودة إلى حظيـرة اليهودية، قبل أن تصـبح العودة إلى أرض الميعاد)[٣].

وبناء الهيـكل هدف اليهود منذ حـصولهم على وعـد بلفور وسعـيهم الحـثيث لالتهام (القدس).

فقد صرح السير (ألفرد) اليهودى سنة ١٩٢٢:

(بأن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريبًا جدا، وأنه سيكرس ما بقى من حياته لبناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى).

---

(١) ص٨٥ من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) محمد على علوبة. كتاب الهلال بمصر مارس ١٩٧٤م.

(٢) نفسه ص١٣٧.

(٣) ص١٨٦ من كتاب (المسلمون والحرب الرابعة)، زهدى الفاتح.

وصرح يهودى آخر هو (زينكويل) بأن على (العرب أن يهدموا خيامهم ويرحلوا إلى الصحراء من حيث أتوا)[1].

وربما كان عـذرهم أن القلة من اليهود تـبرؤا من الصهـيونية كـالكاتب (ألفريد ليلينتـال) بكتابه (ثمن إسـرائيل) أو (بنيامـين فريدمـان) الذى كتب فى «الـرسالة الاقتصادية» سنة ١٩٤٧ يقول:

(الصهـيونية السيـاسية حركـة يهود شرق أوروبا، الذين لا عـلاقة لهم بأرض فلسطين أصلا، وإنما هم من أصل مـغولى آسيوى). والمستر هنرى مـرجانتو الذى صرح بأن (الصهيونية أكبر بدعة فى تاريخ اليهود)[2].

ولا يهمنا الجدل المحتـدم أخيرًا بين ما يسمون بالمؤرخين الجـدد، لأنهم - مهما اختلفـوا فى الآراء- فإنه لا يغير الأمـر الواقع، وربما كان الهدف شغلنا بمنـاقشات بيزنطية هامشية، وامتصاص غضب الفلسطينيين وجذب الرافضين للتطبيع بكلمات جوفاء عن الجـرائم التى اقترفها الصـهاينة فى فلسطين وتقديم اعتـذارات شفوية، بغـيـر اعـتـراف بحق عـودة أهل فلـسطين إلى وطنهم أو الـتنازل عن الأراضى المحتلة. . إلخ.

ونحن ندينهم من كلماتهم. . فالسلام عند أحدهم يمثل (الانتصار النهائى لتلك الحركة الصغيرة التى بدأت فى بازل قبل ١٠٠ عام)[3].

وآخر يقول بلا مواربة (أنا صهيونى، أنا ما (بعد الصهيونى) والجديد عندى هو أننى أيضًا (مـا قبل صهيـونى) إن أعوام الصهـيونية المائة هى بالنسـبة إلىّ، الرداء العصرى للوجود اليهودى، وحـتى بن جوريون شعر بأن عليه- من أجل بناء دولة صهيونية- أن يرتبط بالتوراة. .).

ثم يستطرد ليـؤكد العلاقة التاريخـية للصهيونـية المعاصرة فيـقول: (. .لو قام الحاخام موسى بن ميمون أو الحاخام عكيـفا من قبرهما فسيكون لدىّ ما أتحدث به معهما. . إن التواصل التاريخى والذاكرة التاريخيـة يستوجبان وجود الصهيونية فى

---

(١) ص ١١٥ فلسطين والضمير الإنسانى، محمد على علوبة.

(٢) نفسه ص١٦٧.

(٣) مجلة الدراسات الفلسطينية.

هذا الزى أو ذاك أيضـا فى المستـقبل. . وهذا أمـر لن نتـخلص منه إلى الأبد وأنا مسرور به)[1].

ويعتمد على فكرة (القـومية الدينية) لليهود فى تجميع شـتاتهم والانضمام تحت راية الوحدة، لأن الشـخصـيات والأمم تفنى بينمـا تظل (فكرة الدولة المنبثـقة من العقيدة) باقية فلا تفنى، ويستدل على ذلك بأن القومية المتميزة لليهود لا يمكن أن تفنى. . إنها لن تدمر لأن ألفى عام من المعاناة الرهيبة تؤكد ذلك)[2].

ويفصح فى مكان آخر من كتابه عن صلة فكرة (الدولة) بالعقيدة بقوله : (ليس هناك إنسان غنى أو قوى بالقـدر الذى يستطيع أن ينقل أمة من بيئة لتسـتوطن بيئة أخـرى. الفكرة وحـدها هى التى تسـتطيع ذلك، تـلك هى فكرة (الدولة) فـهى وحدها التـى يمكن أن تحمل فى طيـاتها القـوة اللازمة لأن تفعل ذلـك، لقد ظل اليهود يحلمـون هذا الحلم الملكى خلال الليالى الطويلة من تاريخـهم «العام القادم فى القدس» إنهـا عبارتنا القـديمة. . المشكلة الآن أن يتـحول هذا الحلم إلى واقع حى)[3].

فبـعد أن استـعرض هرتزل فى كتـابه «الدولة اليهودية» الأرض المفـضلة لإنشاء الدولة وكان الاختيار بين الأرجنتين، التى عدد مزاياها من حيث قلة عدد السكان والمناخ المعتدل ومسـاحاتها الشاسعة، وبين أرض فلسطين التى خـصها بمزايا أخرى أولها قـوة جذب الدافع الدينى فقـال (أما فلسطين فإنهـا وطننا التاريخى الذى لا تمحى ذكراه، إن اسم فلسطين فى حد ذاته سيجتذب شعبنا بقوة ذات فعالية رائعة. فإذا منحنا السلطان - يعنى الخليفة العثمانى- فلسطين سنأخذ عاتقنا بالمقابل تنظيم مالية تركيا[4].

---

(١) نفسه ص١٢٣.

(٢) ص ٤٧ الدولة اليهودية، تيـودور هرتزل، مراجعة ودراسة د. عـادل حسن غنيم، ترجمة مـحمد يوسف عدس- دار الزهراء للنشر ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) ص٤٩ نفسه.

(٤) الدولة اليهودية، تيودور هرتزل ص٦٥ ترجمة محمـد يوسف عدس مراجعة ودراسة د. عادل حسن غنيم دار الزهراء للنشر ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

ولكن السلطان عبد الحـميد -رحمه الله تعـالى- رفض هذا العرض وكتب فى مذكـراته تحت عنوان «المشكلة اليهودية» ١٨٩٥ : «لليـهود قوة فى أوروبا أكـثر من قوتهم فى الشرق، لهـذا فإن أكثر الدول الأوروبية تحبذ هجـرة اليهود إلى فلسطين لتتخلص من العـرق السامى الذى زاد كثيرًا، ولكن لدينا عدد كـاف من اليهودى، فإذا كنا نريد أن يـبقى العنصر العـربى متـفوقًا، علينا أن نصـرف النظر عن فكرة توطين المهـاجرين فى فلسطين وإلا فـإن اليهـود إذا استـوطنوا أرضًا تملكوا كـافة قدراتها خـلال وقت قصير، وبذا نكون قـد حكمنا على إخواننا فى الدين بالموت المحتم.

لن يستطيع رئيس الصهاينة «هرتزل» أن يقنعنى بأفكاره[1].

ولكن هرتزل كان قد حدد دور اليهود فى هذه الأرض الواقعة بين أوروبا وآسيا «ومن هناك سوف نشـكل جزءًا من استـحكامات أوروبا فى مـواجهة آسـيا لموقع أمامى للحضارة فى مواجهة البربرية «هكذا» وعلينا كدولة لها طبيعتها أن نبقى على اتصال بكل أوروبا التى سيكون من واجبها أن تضمن وجودنا.

وكان الأستاذ العقاد ثاقب النظر حـينذاك عندما لمح مساعدة الدول الكبرى لهم فيذكرنا بأن الدولة الكبرى تعينهم تعصبًا على الإسلام والعرب وإن لم يكن تعصبنا لهم[2].

ولكننا نعذر العقاد لأنه حينما كتب هذا التحليل لم تكن قد ظهرت «الصهيونية غير اليهـودية» بعقائدها ودعاياتها ودعاتهـا والمؤيدين لها فى أوروبا وأمريكا. وإذا خصـصنا أمـريكا بالحديث. فـسوف يكون الحـديث عن المعتـقد الدينى المـمزوج بالأساطير التوراتيـة وذلك من خلال الحركة الضخمة للأصوليين المـسيحيين الذين يجاوزون المائة والثلاثين مليـون مواطن أمريكى والذين يشغل بعضـهم أكثر وأرفع المناصب والمواقع السياسية والعسكرية والإدارية والفنية والاقتصادية[3].

---

(١) السلطان عبـد الحميـد الثانى - مـذكراتى السيـاسية (١٨٩١-١٩٠٨) ص٣٤ مـؤسـسة الرسـالة/ بيروت ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(٢) الصهيونية العالمية - مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨م.

(٣) د. محمد عصفور (الوفد ٣٠/٧/١٩٨٨).

ويذكر الدكتور محمد عصفور رئيسين مشهورين قد اعتنقا هذه العقيدة (منهم الرئيس الأمريكى كارتر وبعده ريجان الذى كان أشد إيمانا بأساطير التوراة التى تتنبأ باستعادة إسرائيل لدولتها من النيل إلى الفرات، وأخطر هذه الأساطير تلك التى تعتبر من واجب المسيحى الحق تنفيذ هذه النبوءة التوراتية، وذلك تمهيدا لعودة المسيح - عليه السلام- وحكمه الألفى السعيد وتنصير اليهود[(١)].

ويختم د. محمد عصفور مقالته بقوله (فإن الصهيونية المسيحية تصر على موقفها العقيدى المعادى للعرب والمسلمين).

ونصت وثيقة إعلان دولة إسرائيل على أنها ستكون مفتوحة للهجرة اليهودية ولجمع الشتات، وسوف تقوم على أساس الحرية والعدل والسلام وبهدى من نور أنبياء إسرائيل[(٢)].

وحرصت إسرائيل أيضا على أن يعبّر علمُها على نصوص دينية مأخوذة من التوراة ويرمز إلى الصلاة عند اليهود (فإن الشريطين الأزرقين الموجودين فى العلم الإسرائيلى يرمزان إلى النيل والفرات كما أخذ هذان الشريطان من شرائط وشاح الصلاة اليهودى (التاليت)[(٣)].

وبعد كل المعاهدات التى عُقدت ولم يجف مدادها بعد، صرح رابين رئيس وزراء إسرائيل بأن احتلال إسرائيل لأراضى الضفة الغربية وقطاع غزة لابد أن ينتهى، وقال: (إننا لا نريد ضم الضفة الغربية وقطاع غزة لأنها تشكل كيانًا مختلفًا عن الكيان الإسرائيلى سياسيًا ودينيًا وقوميًا، وأى ضم لهذه الأراضى سيحول دون استمرار إسرائيل كدولة يهودية وسيجعل منها دولة ذات قومية ثنائية، ولا أعتقد أن اليهود الذين صلوا وحلموا على مدى ألفى عام بعودة صهيون كانوا يسعون إلى قيام دولة ذات قومية ثنائية)[(٤)].

---

(١) د. محمد عصفور (الوفد ١/٧/١٩٨٨).

(٢) ص١١٣ الاستيطان الأجنبى فى الوطن العربى د. التميمى- سلسلة عالم المعرفة.

(٣) نفسه ص٣٥٨.

(٤) أخبار اليوم، السبت ١٠ صفر ١٤١٦هـ- ٨/٧/١٩٩٥.. تصريحه مع جريدة النيويورك تايمز، وأضاف (إن هناك عقبات على الطريق وهو يشبه حقل الألغام).

عوامل نجاح المخطط الصهيونى فى احتلال فلسطين:

كانوا يملكون كل أدوات الصراع واستخدموها بكفاءة لتحقيق أهدافهم، فيرجع الفـضل لأصحـاب رؤوس الأموال اليـهود وخـاصـة أسرة روتشـفيلد ونفـوذهم الاقتـصادى والسيـاسى - حيث كانت لهم صلة ببـعض ساسة الدول الغـربية ممن يملكون اتخاذ القـرارات فى إنجلترا - فى الحـصول على وعد بلفـور، ولما غربت شمس إنجلتـرا انتقلوا إلى أمريكا فكانت خيـر معين لليهـود، ساعدتهم اقتـصاديًا وعسكريًا وسياسيًا.

كيف ضغطت على الدول للحصول على موافقتها على قرار التقسيم

إنهم يمتلـكون أجـهـزة الإعلام؛ من وكالات أنبـاء وصحـافة سينمـا، لجذب الرأى العام لصـفهم وتشويه سـمعة العـرب والمسلمين وإشاعـة الأكاذيب وطمس الحقائق إلى حد تبديل القـيم المتفـق عليـها بـين البشر، فيصورون الضحايا من بنى فلسطين بالإرهـابيـين ويسمون أنفـسهم بطلاب السلام المضطهـدين المغلوبين على أمرهم.

تحددت الأهداف فى وقت مبكر، ومن فرط ثقـة هرتزل بنفسه وببنى جلدته أنه حدد خـمسين عامًـا منذ انعقاد المؤتمر الصـهيونى فى بال لإعلان الدولة اليـهودية (١٨٩٧-١٩٤٨).

وأسس المؤتمر المنظمة الصهيونية لتشرف على البرنامج محددًا فى أربع نقاط:

١- الحصول على حق معترف به دوليًا للشعب اليهودى فى استعمار فلسطين.

٢- تشجيع استيطان العمال الزراعيين والصناعيين اليهود فى فلسطين.

٣- تنظيم اليهـود وربطهم جميعًـا عبر مؤسسـات مناسبة على الصعـيدين المحلى والعالمى.

٤- تقوية الحس والوعى القومى عند اليهود[(١)].

وفى ذلك الوقت - أى عند انـعقـاد المؤتمر الصـهـيـونى الأول فى مـدينة بال بسـويسرا عام ١٨٩٧ لـم يكن العالم العـربى والإسلامى يدرى عن هذا البـرنامج شيئًا. وقام اليهود بتنفيذ مخططاتهم فى غفلة من العرب والمسلمين.

---

(١) ص ٥١ من كتاب (النشاط الصهيونى) د. عبد الرحيم أحمد حسين.

الإرهاب اليهودى:

وبدأ الارهاب اليهودى ضد الشعب الآمن بفلسطين مبكرا أى قبل عام ١٩٤٨.

وكشفت الوثائق الرسمية عن ذلك.. ففى رسالة للقنصل الأمريكى بتاريخ ١٩٢٩/٦/١٢ إلى وزير خارجيته كتب ما يلى:

(بدأ الارهاب اليهودى فى ١٩٣٩/٥/٢٥ ضد العرب وليس ضد البريطانيين).

ويمضى فى ذكر الحادثة..

ثم ذكر بعد ذلك تفصيلا: (تزايد الإرهاب اليهودى واتخذ شكل إلقاء القنابل بالإضافة إلى إطلاق النار وتوجه نحو تخريب المنافع العامة أكثر من قتل الأشخاص فى الفترة الأخيرة..)(١).

وقبل شهرين من انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى ١٩٤٨/٥/١٥ أمطرت عصابة (الهاجاناه) كل فلسطين بمنشورات تقول فيها:

(على الذين يودون تجنب هذه الحرب والنجاة بحياتهم أن يهربوا بأزواجهم وأطفالهم لأنها ستكون حربًا وحشية لا ترحم).

وعمدوا صباح ٤٨/٤/٩ إلى مهاجمة القرية العربية «دير ياسين» وقتلوا ٢٥٤ عربيًا يشكلون معظم سكانها وقاموا بتصوير جثث القتلى وتسريبها إلى باقى القرى ومعها التحذير الآتى:

(هذا ما ينتظركم إذا لم تغادروا).

وفى ٤٨/٥/١٥ تم طرد ربع مليون عربى بالقوة.

وقد علق المؤرخ الروسى على هذا بقوله:

(لو نفذت هذه العمليات ضد اليهود فى أى بلد فى العالم لسميت إبادة، وهذا صحيح. ولكن عندما تم الشىء نفسه ضد العرب أطلق عليه الصهيونيون الاستعماريون: الحصول على أرض بدون شعب لشعب بلا أرض)(٢).

---

(١) ص٣٦/ ٣٧ من كتاب (النشاط الصهيونى..) د. عبد الرحيم أحمد..

(٢) ص٣٢١ من كتاب (النشاط الصهيونى) د. عبد الرحيم أحمد.

ويضيف الأستاذ هيكل إلى ذلك قوله:

(وكانت مباريات الطرد، هى الرياضة المفضلة لدى الضباط الإسرائيليين، وفى ذلك الوقت فإن البطولة كانت من نصيب «إسحاق رابين» وهو يومها برتبة «ماجور» وقد قام وحده، كما روى بنفسه فى مذكراته.. بطرد ما بين خمسين إلى ستين ألف رجل وامرأة وطفل من عرب فلسطين)[١].

عناصر نجاح المخطط الصهيونى:

وسنرى مع تخبط الدول العربية فى اتخاذ القرارات وعدم وضوح الهدف، وغياب التنسيق فيما بينها كان اليهود- فى الوجه المقابل - يعملون وفق تخطيط محكم اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا، وتوزيع أدوار زعمائهم فى بلاد أوروبا وأمريكا، ووضوح الهدف والإقدام على تنفيذه خطوة خطوة منذ هرتزل بل قبله.

واكتمل التخطيط المعنوى أيضًا باسهام شعرائهم لإثارة الحماس الدينى وإنهاض الهمم وتوحيد الرأى العام، منهم لامارتين الشاعر الفرنسى الذى قال فى خطابه أمام مجلس النواب الفرنسى:

(بريطانيا تريد جمهورية يهودية وفرنسا يجب أن تصر على مملكة مسيحية عاصمتها القدس)[٢].

ونشر الدكتور (توماس كلارك)- أحد أبرز أساتذة التاريخ فى جامعة اكسفورد- كتابه الشهير (فلسطين لليهود) (مع نشر المجموعة الكاملة للأغانى العبرية التى كتبها الشاعر الإنجليزى الكبير اللورد «بايرون» وذاعت بينها قصيدة جديدة تقول:

«اطلع أيها الإله العظيم ودع قدرتك تتجلى

وأرسل أشعتها مضيئة ودافئة على أبناء يعقوب

وأعد فلولهم التائهة إلى أرضهم الموعودة هناك

واهدهم لكى يذهبوا إلى فلسطين فهى وطنهم».

---

(١) ص٦٠ من كتاب (العروش والجيوش). وأضاف التعليق الآتى بالهامش (أصبح إسحاق رابين رئيسًا لأركان الجيش الإسرائيلى سنة ١٩٦٧ ثم رئيسًا لوزراء إسرائيل، وهو الرجل نفسه الذى اعتبره بعض الساسة العرب شهيدًا للسلام بعد أن أطلق الرصاص عليه مستوطن إسرائيلى سنة ١٩٩٥م.

(٢) ص٤٧ من كتاب أسرار المفاوضات، هيكل.

(٣) ص٥٨ من كتاب اسرار المفاوضات. هيكل.

الفصل الرابع

جريمة الغرب عن غرس إسرائيل

فقد عرضنا بكتاب (حضارة العصر . . الوجه الآخر)[1] لمسئولية الغرب عن زرع إسرائيل، وخلصنا إلى أن العامل الأكبر فى نكسات العرب إذا حللناه بمنطق الصراع بين الحضارات - يرجع إلى رجحان كفة الغرب منذ البداية، فقد كانت الحضارة الغربية فى حالة مدّ واكتساح للعالم بينما كانت الحضارة الإسلامية فى خطوط الدفاع عن نفسها، ثم فى وضع الحصار ثم الانحسار أمام هجمات الجيوش العسكرية التى لا تتوقف، ويصاحبها بعثات التبشير الصليبى والغزو الثقافى الضارى.

كان المغرب في أوج قوته العسكرية والاقتصادية والتكنولوچية، وأمدّ إسرائيل بكل عناصر تفوّقه، بينما نهب ثروات المسلمين وقهرهم عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، وفتتّ بلادهم، وأقام عليها حكامًا من صنائعه، يعملون بأوامره ووفق مصالحه.

وللقارئ وصف أحوال البلاد الإسلامية الواقعة بين فكيّ الاستعمار الأوروبى شرقًا وغربًا على مدى نحو قرنين سابقين لنكبة فلسطين:

- تاريخ الاستعمار الأوروبى - بشقيه الغربى والشرقى - للعالم الإسلامى على مدى قرنين:

١٧٩٨ - ١٨٢٥ تمام إخضاع إندونيسيا وسومطرة.

١٨٢٠ خضوع الساحل المتصالح لبريطانيا.

١٨٣ احتلال فرنسا للجزائر.

١٨٣٤ - ١٨٥٩ ضم روسيا للقوقاز.

١٨٣٧ - ١٨٤٧ سحق الروس للثورة الإسلامية فى وسط آسيا.

١٨٣٩ احتلال بريطانيا لعدن.

١٨٤٢ القضاء على استقلال الهند المسلمة.

١٨٤٦ - ١٨٦٤ إتمام إخضاع الروس لوادى سيرداريا.

(١) حضارة العصر . . الوجه الآخر. مع مقال . . . . ط دار الدعوة بالإسكندرية . . . .

١٨٤٩ التوسع البريطانى فى الهند الإسلامية من الشمال الغربى.

١٨٥٠ - ١٨٦٥ احتلال الروس لطشقند.

١٨٥٧ القضاء النهائى على إمبراطورية المغول المسلمة فى الهند.

١٨٦٦ - ١٨٧٢ التوسع الروسى فى منطقتى سمرقند وبخارى.

١٨٧٠ دخول البحرين فى الحماية البريطانية.

١٨٧٣ - ١٨٨٧ استيلاء الروس على بلاد الأزوبك (أوزبكستان).

١٨٧٥ - ١٨٧٦ احتلال الروس لمنطقة خوكند.

١٨٨١ احتلال فرنسا لتونس.

١٨٨٢ احتلال بريطانيا لمصر.

١٨٨٥ - ١٨٩٠ احتلال إيطاليا لأريتريا.

١٨٩٠ احتلال فرنسا للسنغال أو «صنهاجة».

١٨٩١ - ١٨٩٩ احتلال فرنسا للنيجر وساحل العاج.

١٨٩١ سقوط مسقط وعمان تحت الحماية البريطانية وكان قد سبقها انتزاع زنزبار.

١٨٩٥ ضم روسيا لمنطقة بايد.

١٨٩٨ احتلال السودان.

١٨٩٩ الحماية على الكويت.

١٩٠٠ - ١٩٠١ الحرب البريطانية فى الصومال واحتلال فرنسا لتشاد.

١٩٠٣ غزو نيجيريا ومعركة كانو.

١٩٠٦ وضع سلطنات نيجيريا تحت الحماية.

١٩١٢ احتلال إيطاليا لليبيا.

١٩١٢ احتلال فرنسا وإسبانيا للمغرب وطرد المسلمين من البلقان.

١٩١٣ الاعتراف بسيطرة بريطانيا على قطر.

١٩١٤ - ١٩١٨ فرض الانتداب على العراق وسوريا ولبنان وفلسطين من جانب بريطانيا وفرنسا][١].

فكيف يمكن للعالم الإسلامى وهو مكبّل بهذا الشكل أن يظفر فى صراع حضارى أو حتى ينتصر فى إحدى المعارك مع عدوّ ملكّه الغرب كل أسلحة التفوق؟!

ونترك أحد الباحثين الأوروبيين يسجّل هذه الملاحظة بقوله:

(أليست هذه الدولة الإسرائيلية **ثمرة الغرب نفسه**.. الغرب الممقوت الكريه؟ ونجاح وتفوق إسرائيل وتفوقها على صعيد التقنيات الحديثة الرائع.. أليس هذا النجاح وهذا التفوق هما ثمرة لرؤوس الأموال التى انهالت على إسرائيل من **كافة أنحاء العالم كله**؟

.. واستعراضات القوة هذه ضد مصر عام ١٩٤٨ وأيام أزمة تأميم قناة السويس والمسيرة الزاحفة المنتصرة بجيش صغير عبر صحراء سيناء عام ١٩٥٦ .. ألا يثير كل ذلك الخوف والعداء والغيرة؟

وكلها إضافات تنضم إلى **الصراع القديم**)[٢]؟.

ولا يخفى على أحد أن إسرائيل الحديثة إنما سيطرت بقوة أسلحة الغرب وأموال الغرب وهى بحق (جيب غربى استعمارى عنصرى فى تلك المنطقة)[٣].

وسجّل التاريخ الحديث أنه منذ البداية رأى هرتزل أن إسرائيل لن تستطيع البقاء

---

(١) ص ٢١٥، ٢١٦ من كتاب (السعوديون والحل الإسلامى)، محمد جلال كشك ص ٤ - ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م - المطبعة الفنية - القاهرة.

(٢) ص ١١٣ من كتاب (تاريخ وقواعد الحضارات) تأليف فرناند بروديل، ترجمة وتعليق سفير د. حسين شريف - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٩م.

(٣) كتاب (ملف إسرائيل - دراسة الصهيونية السياسية) ترجمة د. مصطفى كامل فوده ص ١١٣ دار الشروق ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

فى الشرق دون اندماج بالمنطقة (بشرط أن تكون بشكل أو بآخر منتدبة من قبل الاستعمار الجماعى الغربى)[1].

وهكذا بفضل سيطرة اليهود وتغلغلهم فى الأجهزة الحاكمة الغربية قامت دول **أوروبا ثم أمريكا بدورها فى فرض إسرائيل على شعوب المنطقة** فرضًا فكانت ثمرة من ثمار الغرب وصورة طبق الأصل من (حضارته) كما يذكر ذلك صراحة فرناند بروديل[2].

ولكن بروديل أغفل عوامل أخرى - يعد تدفق رؤوس الأموال ومدّها بالتقنيات الحديثة عوامل ثانوية وتأتى فى المرتبة التالية إذا ما استعرضنا الدور الذى قامت به إنجلترا بتأييد دول الغرب، وقد اخترعت اللفظ الاصطلاحى الذى يتستر وراءه الاستعمار، وهو «الانتداب» ووضعت (فلسطين) تحت الانتداب البريطانى ١٩٢٠م بموافقة (عصبة الأمم).

وأخذت إنجلترا تقمع العرب بكل قسوة إذا ثاروا لما يرونه من اغتصاب اليهود لقطع من وطنهم جهارًا (هكذا ضربتهم بريطانيا سنة ١٩٢٠ وسنة ١٩٢١ وسنة ١٩٢٩ . . . إلخ).

وفى الجهة الأخرى تعين يهوديًا بريطانيًا صهيونيًا ليكون المندوب السامى الأول للملك بريطانيا فى فلسطين. .

وكانت إنجلترا هى أول دولة أوروبية تشجع وتساعد على إنشاء إسرائيل ووظفت الدين لخدمة مصالحها المادية الدنيوية.

فقد كانت حكومة كرومويل تتطلع إلى ما وراء البحار، فاستجلبت اليهود الذين عُرفوا بأنهم استفادوا من علوم ومعارف النظام الإسلامى العالمى، استجلبتهم لاستخدام معارفهم الإسلامية فى عملية اقتحام آسيا وأفريقيا.

وفى عام ١٦٤٩ - أى منذ ثلاثة قرون ونصف القرن (نظم بعض الإنجليز حركة

---

(١) نفسه ص ٧٠.

(٢) فرناند بروديل (تاريخ وقواعد الحضارات) ترجمة وتعليق سفير د. حسين شريف، ص ١١٣ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م.

تدعـو لعودة اليـهود إلى فلـسطين، وأرسلوا عريضـة إلى الحكومـة البريطانيـة - بالاتفاق معهـا طبعًا - جاء فيها ما يلى: إن أمـة إنجلترا وسكان هولندا، سيكونون أول الناس وأكثـرهم استعـدادًا لنقل أبناء وبنات إسرائيل علـى سفنهم إلى الأرض التى وعد بها أجدادهم إبراهيم وإسحق ويعـقوب - عليهم السلام - لتكون ميراثًا لهم إلى الأبد)[1].

وظهر دور فـرنسا أيضًـا بواسطة نابليون بونابرت إبان حـملته على مصـر وفلسطـين سنة ١٧٩٩م والذى أصـدر نداءً إلى اليهـود (دعاهم فـيه إلى الالتـحاق بقـواته، ووعـدهم بإقامـة دولةً لهم على أرض فلسطين كـثمن لـمشاركـتهم فى مـجهـوده الحربى)[2].

والثابت تاريخيًا أن إنجلترا تبنت تحقيق أحلام اليهود، إذ أمر الملك هنرى الثامن (ملك إنجلتـرا عام ١٥٣٨م بترجـمة التـوراة للغة الإنجليـزية - وسمـيت: التوراة الوطنية لإنجلترا، وأصبح لها تأثيرها على روح الحياة هناك، ولولا التراث التوراتى لما صدر وعد بلفور سنة ١٩١٧م)[3].

وجاء دور أمريكا بعد إنجلترا، إذ حمل المهاجرون الأوائل معهم تفسيراتهم للعهد القديم، وكانت اللغة العـبرية لغة مهمة فى المسـتوطنات الأمريكية الأولى[4]، ولا نعجب من ممارسة اليهود بأرض فلسـطين الأسلوب الاستيطانى لأن أجدادهم سبق أن مارسوه فى أمريكا مع الهنود الحمر[5].

وانتقـلت إذن القيادة الـعملية لـلصهيـونية فى المجـال السيـاسى من لندن إلى نيويـورك فواشنطن تحت لواء عناصـر كانت تمثل الجـهة المتطرفـة من أمثال سـلفر

---

(١) مقدمة كتـاب (المسألة اليهودية) - القبيلة - الشريعة - المكان - لإيلان هاليـفى، بقلم نصر سمالى ص ٧ مكتبة الخدمات الطباعية - دمشق - ١٩٨٦م.

(٢) نفسه ص ٩.

(٣) البعد الدينى فى السياسة الأمـريكية تجاه الصراع العربى/ الصهيـونى د. يوسف الحسن: ص ٥٢. - مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة أطروحات الدكتوراه (١٥) بيروت - فبراير ١٩٩٠م.

(٤) نفسه ص ٣٧.

(٥) نفسه ص ٤٠، ٤١.

الأمريكى الذى أقحم حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى سياسة صهيونية محضة منددًا بسياسة وايزمن نفسه، فقال: (إن سياسة الدبلوماسية القديمة لم تعد ذات جدوى اليوم. **يجب على اليهود أن يستعدوا ويتكتلوا للطوارئ والحرب والصراع الدموى والتكتيك الإرهابى** وألا يخلطوا بين هدف الصهيونية وهدف إنشاء دولة يهودية بمجرد قبول عدد معيّن من اللاجئين اليهود)(١).

وألقت أمريكا بثقلها كلّه وراء قرار تقسيم فلسطين الذى قوبل بالرفض فى أول الأمر من أغلب دول العالم لمخالفته للعدل.

إن الولايات المتحدة الأمريكية أجبرت الأمم المتحدة فى ٢٩/١١/١٩٤٧م على اتخاذ قرار بإنشاء الدولة الإسرائيلية وذلك بتقسيم فلسطين إلى دولة إسرائيلية وأخرى فلسطينية ولكن لم يحصل القرار ابتداءً على الأصوات الكافية لصدوره.

وبالطبع فقد صوتت مجموعة الدول الإسلامية ضد قرار تقسيم فلسطين، وقد تعاطفت أخرى رافضة قرار التقسيم. ولذلك لم يحصل القرار على أغلبية الأصوات فالدول التى أيدت القرار الأمريكى كانت تشكل أقلية.

وهناك حذر الرئيس الأمريكى ترومان الدول الرافضة لقرار التقسيم من أنه سيلزمهم بدفع هذا الرفض، فقد ابتزت بالتهديد كل من فرنسا واليونان وهايتى وليبريا والفلبين لكى يصوتوا فى صالح هذا القرار، وقيل لهم إنكم إن لم تصوتوا فى صالح هذا القرار فإننا سنجبركم على ذلك. فجميع هذه الدول فقيرة أو كانت تحتاج إلى المساعدة والعون من الأمريكيين، وقيل لهم إنكم إن لم تساندونت فى هذه المسألة فسنقطع عنكم المساعدة أو المعونة. وسيلزمكم دفع الثمن.

وبذلك فقد استصدروا قرار التقسيم هذا بالقوة من خلال الأمم المتحدة(٢).

---

(١) ص ١١٩ من كتاب (إسرائيل فتنة الأجيال) - إبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعى العربى بالفجالة - القاهرة - المحرم ١٣٩٠هـ - مارس ١٩٧٠م.

(٢) ص ٣٥، ٣٦ من كتاب (عاصفة الصحراء.. المبررات والدوافع) أحمد ديدات - ترجمة محمد مختار - ط المختار الإسلامى - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

ويقول الدكتور هيكل:

(قررت الجمعية إنشاء دولة إسرائيل بأغلبية لم تبلغ الثلثين من عدد الأعضاء الحاضرين، وذلك لكثرة الممتنعين عن التصويت، ومع ذلك اعتبر القرار بإنشاء دولة إسرائيل صحيحًا متفقًا مع ميثاق الأمم المتحدة)[١].

وينمحي من الذهن تلك الصدمة التي تحدث بمتابعة هذا السلوك السياسي المتعارض مع مصالح أمريكا ذاتها - عندما نعرف التلاحم العقدي بين المذهب البروتستانتي والصهيونية.. وقامت بتفسير ذلك الباحثة القديرة ريجينا الشريف التي أثبتت بدراستها الفريدة أن الصهيونية غير اليهودية عنصر أساسي في التاريخ الديني والاجتماعي والسياسي الغربي وهي تشكل خطا موازيًا لتاريخ الصهيونية اليهودية وليس خطًا تابعًا له[٢].

وفهم هذه الحقيقة هو مفتاح حل المشكلة الفلسطينية بل إنها لن تحل إذا لم يتخل الغرب عن **أهدافه الصهيونية** المتأصلة فيه والتي تشكل جزءًا لا يتجزأ من ماضيه وحاضره.

وكيف أصبح التيار الخفي **للحضارة والثقافة الغربية** ملوثًا بالأساطير الصهيونية - سواء الدينية منها أو العلمانية - التي تجعل الصهيونية أقوى روابط إسرائيل بالغرب وإن كانت تلك الرابطة غير بادية للعيان[٣].

وتاريخ الارتباط الديني بين النصرانية واليهودية مليء بالأسرار، وهو تاريخ طويل متعرج المسالك متشعب الارتباطات والعلاقات تظهر فيه ميادين التعاون في مجالات الآداب والتاريخ والعقائد والسياسة حتى أصبح التراث الغربي مليئًا بالأساطير اليهودية.

وإذا شئنا التفضيل تبدأ من حركة البروتستانت على يد (لوثر).

---

(١) ص ٢٧٤ من كتاب (مذكرات في السياسة المصرية) جـ ٢ ط دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

(٢، ٣) ص ١٢، ١٨ من كتاب (الصهيونية غير اليهودية) جذورها في التاريخ الغربي ريجينا الشريف - ترجمة أحمد عبدالله عبد العزيز - سلسلة كتب ثقافية (عالم المعرفة) - الكويت ربيع الأول ١٤٠٦هـ - ديسمبر ١٩٨٥م.

ودور الاتحاد السوفيتى لا يقل شأنًا عن غيره من دول أوروبا، كل ما هنالك أنه نجح فى اتباع سياسة ذات وجهين: أحدهما بتأييد العرب سياسيًا ومّدهم بالأسلحة وإعلان صـداقته وتأييده والـثانى الوقوف بحزم ضـد أى مساس بوجـود إسرائيل وحرصه على أمنها. وأخفت ذلك وراء دعايات يخدعون بها العرب.

وقد اتضـحت الحقـائق عقب كارثة حـرب سنة ١٩٦٧م، إذ تبين عـدم وجود حشـود إسرائيلية على حـدود سوريا فى مـايو سنة ١٩٦٧ وهى ذريعة الاستـعداد للحرب معها، كذلك قام السفير السوفيتى (حوالى الساعة الثانية من صبيحة الرابع من حزيران (يونيو) بالتخلى عن الخطط الهجومـية ضد إسرائيل التى كانت القيادة العسكرية المصرية تطالب بتنفيذها). وإمعانًا فى الخداع طمأن المسئولين بأن إسرائيل «لا تملك لا الوسائل اللازمة وليس لديها رغبة فى القيام بعمل عدوانى ضد الدول العربية»[١].

بل منذ بداية نشـأة إسرائيل، فـقـد كان سـتالين (أول من أيدّ إسـرائيل، وأن الإسرائليين حاربوا خلال عامى ١٩٤٧ - ١٩٤٨، بفضل الأعتدة التشيكوسلوفاكية التى زُودوا بها بناء على أوامر ستاليـن بالذات، وكان المندوب السوفياتى فى الأمم المتحدة أول من اعترف بإسرائيل)[٢].

واتخذت كل الدول التـابعة للاتحاد السوفـيتى نفس الموقف (تشيكوسلوفـاكيا - بولندا - يوغوسلافيا)، تحت شعار أن مصلـحة العرب واليهود واحدة فى مكافحة الرجعية وفى تلاحم الأخوة الاشتراكية[٣].

ويقول الأستاذ محمد على علوبة:

(.. إن المتتبّع لجلسات هيئة الأمم المتحدة، يرى كما رأى بعض كتاب الغرب،

---

(١) ص ١٠٢ المسلمون والحرب الرابعة، زهدى الفاتح ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

(٢) تصريح لأحـد كبـار مؤرخى اليهـود عقب هزيمة يونيـو، نقلاً عن المصدر السـابق ص ٥٤، وعن تسليح العرب أكدّ دّيان عقب حرب يونيو أن موسكو لن تُحسّن قدرة العرب العسكرية إلى الحد الذى يتمكنون معه من مجابهة إسرائيل ص ١٠١.

(٣) نفسه ص ٨٤.

أن حكومة السوفييت لم تتفق مع الغرب إلا فى مسألة واحدة وهى الاعتراف بإسرائيل. . . وذلك لأنها تعلم أن إسرائيل دولة يهودية صهيونية، وأنها تشمل يهود العالم، فإذا غضبت إسرائيل غضب يهود العالم، وروسيا تتوق لاحتضان إسرائيل كى تحتضن اليهود أجمعين)[1].

*****

(١) ص ١٧٢ من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى)، محمد على علوبة.

الفصل الخامس

بعض الواقعات المعاصرة وتداعياتها

١- الحـملة الفـرنسـيـة.

٢- ثورة الشريف حسين.

٣- ثـورة أتـاتـورك.

إذا صورنا التاريخ بمجرى النهر الذى يتجمع متدفقًا عند المصب، فإن الأحداث التاريخية بالعالم الإسلامى منذ أواخر القرن الماضى وإلى عصرنا الحاضر تتسع وتتشابك بشكل يصعب فهم أبعادها إلا بعد تفكيكها أولا بمنهج تحليلى لنقترب من تفسير سبب فوز الغرب وانتصاره بإقامته لدولة إسرائيل، ثم البحث عن العلاقات بينها والكشف عن أبعادها.

ونرى أن هناك ثلاث واقعات فى مسارنا التاريخى لها تداعياتها المستمرة حتى الآن، وستظل كذلك حتى يمسك بالزمام من لا يجهل سنة الله عز وجل فى نصر الأمة الإسلامية أو هزيمتها.

١- الصراع مع الغرب(الروم قديمًا) والاستعمار الفرنسى والإنجليزى حديثًا منذ الحملة الفرنسية على مصر ثم الاستعمار الإنجليزى لبلاد المسلمين عسكريًا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا.

٢- ثورة (الشريف) حسين على الخلافة العثمانية وإسهامه الفعال فى طعنها فى مقتل بمساعدة القوات البريطانية فأدت إلى تجزئة الأمة فكان الوهن الحقيقى.

٣- ثورة اليهودى الدونمى أتاتورك ودوره فى هدم الخلافة العثمانية وتبنيه المشروع العلمانى التغريبى، ثم سارت على نهجه الثورات المشابهة.

كذلك حرص الغرب على تفتيت المجموعات السياسية الإقليمية، وطبق هذه السياسة فى (سوريا ولبنان وفى العراق وشبه الجزيرة العربية ومصر والسودان وشمالى إفريقيا وغربيها، وكان فى تطبيقه لسياسته حريصًا على القضاء **على الوحدة المادية والسياسية والتاريخية التى كانت قائمة فعلا بينها)**[1].. ثم تطورت بحوث الغرب لمقاومة اتجاه العرب إلى الوحدة، **فقام بعزل العرب تمامًا عن (الرابطة الإسلامية)**[2] وتم ذلك بهدم الخلافة العثمانية.

لم يكن هدف الحملة الفرنسية - كما يروج البعض - ضرب المصالح البريطانية

(١، ٢) ص ١٦٣/ ١٦٤ من كتاب (ثورات العرب فى سنة ١٩١٩ جـ١ - المقدمة.
من الحروب الصليبية إلى حرب السويس، محمد على الغتيت، ط الدار القومية للطباعة والنشر. .

في الشرق، بل كان هدفها إقامة إمبراطورية فرنسية، إرضاءً لطموحات سياسية داخلية، وإرضاء للكنيسة التى ظلت تحتفظ بنفوذها على كثيرين من أبناء الشعب.. ومن ثم تعددت الأهداف لخليط من (أهداف اقتصادية وتوسعية وسياسية ودينية، أو بالأحرى غزو عسكرى وفكرى، ولهذا اصطحب نابليون معه فى حملته هذا الحشد الهائل من العلماء)[1].

ويستخلص الدكتور عبد العزيز الشناوى عدة حقائق من الحملة الفرنسية، منها أن الشعب المصرى بقيادة علماء الأزهر نظروا إلى الحملة على أنها غزوة صليبية تستهدف دينهم كما تستهدف الخلافة الإسلامية، لذلك هبوا فى وجهها بحركة جهادية كبرى بثورتى القاهرة الأولى والثانية لإنهاء الحكم الفرنسى النصرانى لمصر، وإعادتها إلى الخلافة العثمانية[2].

وكانت الحملة الفرنسية أيضا هى أولى الضربات القاصمة لهذه الخلافة لتدميرها وتهيئة الظروف المناسبة لإقامة الدولة اليهودية على أشلائها. قال حاييم وايزمان الذى أصبح فيما بعد أول رئيس لها:

(إن فتح أبواب الشرق لاستقرار اليهود فى فلسطين، يتوقف **بالدرجة الأولى على تدمير الإمبراطورية العثمانية**، وبتدميرها تزول الحواجز والعقبات التى تعترض المسيرة إلى أرض الميعاد)[3].

ولم تكن الحملة الفرنسية إذن بغرض (تحضيرنا) كما أراد البعض إيهامنا وخداعنا بأنها أتت تحمل مشاعل حضارة أوروبا، بل أتت لتخريب بلادنا وتدميرها، وفرض دينها وثقافتها علينا، كما مهدت - كما أسلفنا- إلى تمكين اليهود من دخول فلسطين غزاة مستعمرين.

وتضيق صفحات الكتاب، وقد تخرج بنا عن موضوعنا، ولكن من واجبنا

---

(١) الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط ص٣٢٨ للدكتور على محمد الصلابى ط دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(٢) الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها جـ٢ ص٩٤٢.

باختصار نقلا عن المصدر السابق ص٣٣١. وننوه بالكتاب الفذ للأستاذ محمد جلال كشك - يرحمه الله - بعنوان (ودخلت الخيل الأزهر)!

(٣) المسلمون والحرب الرابعة، زهدى الفاتح ص٣٥- ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م.

التعـريف بحقيقـة هذه الحملة فى سلسلة غزوات أوروبا الاستـعمارية الوحـشية، مكتـفين بإيراد بضـعة أسطر من الكتـاب الموسوعى للدكـتورة ليلى عنان (الحـملة الفرنسية - تنوير أم تزوير)، فـقد نقلت الكثير من مصادر فرنسيـة تعترف بجرائم الغزاة، وهى تشبه مـا حدث أيام الحروب الصليبية. يقول أحـد مؤرخيهم (ولكن ذهب رجال ونساء وشيوخ، حتى الأطفـال إلى أحد المساجد حيث ذبحهم جنودنا لأنهم كـانوا فى حـالـة من العنف الجنونـى الذى عـادة مـا ينتـاب الجـند عند الهجوم»[1].

ولا نتعجب من سلوك الجند الهمـجى إذا كان قائدهم بونابرت عند مروره على يافا فى الطريق إلى عكا، واستـسلم له الأسرى العثمانيون قـد أمر بإعدامهم على الفور وهم بالآلاف[2].

وكانت النزعة الدينية المتعصبـة فى أقواله وسلوكه، لأنه كان مدركًا أنه لن يغزو قلوب المسلمين (وأن حـائطًا لا يمكن كسره كان يفـصل بين المسيحيـين- حتى إن كانـوا غير مـؤمنين كـما كان جـنده - وبين (الكفرة)، و(الكفـرة) هنا هو الاسم الدارج للمسلمين عند كثير من الكتاب الفرنسيين)[3].

أما نداء نـابليون لليـهود بقولـه (أيها الإسرائيـليون انهضـوا فهـذه هى اللحظة المناسبـة) فقد كـان فى حقيـقته نقطة بداية لخطط فـرنسا فى قلب أملاك الخـلافة العثمانية[4].

ويرى الأستاذ هيكل أن نداءه لليهود لم يكن أكـذوبة كما فعل مع المسلمين لأن (ورقته الإسلامية كانت موجـهة إلى كتلة بشرية من سكان مصر، عددهم فى ذلك الوقت يفوق المليونين، وفى استطاعتهم إذا قاوموا أن يجعلوا مصر مصيدة لجيوشه وليس رأس جسر، وهو لهذا قد عمد لخديعتهم لكى يكذب عليهم)[5].

---

(١) الحملة الفرنسية تنوير أم تزوير، د. ليلى عنان ص٢٤٩ جـ١.

(٢) نفسه ص٢٥٣ كتاب الهلال مارس سنة ١٩٩٨م.

(٣) نفسه ص ٢٥١/ ٢٥٢.

(٤) المفاوضات السرية، هيكل ص٢٩.

(٥) نفسه ص٣٣)

وتحقق المتوقع عندما وجد شعب مصر قائدًا يحقق بهم النصر فى ثورتى القاهرة الأولى والثانية، وظلت مصر موضع طمع الغرب منذ ذلك الحين.

ونعود لما يسميه هيكل (بورقة نابليــون اليهودية) ولقد عددهم حينذاك بفلسطين (١٨٠٠، منهم ١٣٥ فى مدينة القدس)، (فليس فى مقــدورهم مهما فعلوا لا أن ينصروه ولا أن يخذلوه).

لذلك فــقد أراد تجنيــد يهــود العالم ووجــه نداءً إليهــم، لم يوزع فى فلسطين وحدها وإنما جرى توزيعه فى فرنسا والإمارات الألمــانية، وأسبانيا، ومن هنا يتأكد دور نابليون فى نكبة فلسطين، وجاء فى ندائه لهم:

(.. سارعوا! إن هذه اللحظة المناسبة التى قد لا تتكرر لآلاف السنين للمطالبة باستعــادة حقوقكم ومكانتكم بين شعوب العالــم، تلك الحقوق التى سُلبت منكم لآلاف السنين وهى وجودكم السياسى كأمــة بين الأمم وحقكم الطبيعى المطلق فى عــبادة إلهكم يهــواه، طبــقا لعــقــيدتكم، وافــعلوا ذلك فى العلن، وافــعلوه إلى الأبد)[1].

إن ورقة نابليون اليهودية إذن كما يعلق الأســتاذ هيكل هى (الوثيقة التى تستحق الاهتمام فى الســياق التاريخى لأنها الأثر الاستراتيــجى الباقى فى المنطقة من تلك الأيام وحتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادى والعشرين)[2].

(وكان حلم نابليــون القديم قد تحقــق، وحلم بالمرستون لويد جورج وونســتون تشرشل. وقامت الدولة الحاجزة. وانقطع العالم العربى إلى نصفين)[3].

إذن، فلابد لدارس التاريخ السياسى للمسلمين فى العصر الحديث من بحث ما دار حول الخلافة العــثمانية، ودراسة ما لها ومــا عليها لأنها كانت العقــبة الأخيرة التى منعت اليهود مــن إقامة دولتهم، فلما انهــارت أصبح الطريق مفتوحًــا أمامهم إلى القدس وإن تأخر دخــولهم القدس بالكامل إلى عام ١٩٦٧، ولكن مــقدمات الأحداث وتسلسلها كان مؤشرا بيقين إلى الفاجعة.

---

(١) نفسه ص٣٢.

(٢) نفسه ص٣٣.

(٣) المفاوضات السرية، هيكل ص٣٠٦ دار الشروق سنة ١٩٩٦م.

كذلك تصبح المادة العلمية لتاريخنا فى العصر الحديث موضوعًا جديرًا بدراسة مقارنة بين ما اصطلح عليه (بالمشروع الإسلامى)، و(المشروع التغريبى) لأنه بانقضاء عمر الخلافة الإسلامية فى شكلها الأخير، قام أتاتورك لينفذ على أشلائها مشروعه التغريبى، ودب النزاع فى العالم الإسلامى لأول مرة فى تاريخه، بين من ينحازون لمشروعه، وبين المعارضين له. وقد ظهرت الغلبة لآراء أتاتورك ومقلديه فى الظاهر، ولكن هل نجح المشروع التغريبى بشكل نهائى وحاسم؟!

يقوم المشروع التغريبى على العلمانية وتقليد حضارة الغرب، بينما يقوم المشروع الإسلامى على ضرورة نهضة تجمع بين الاحتفاظ بالأصالة والمعاصرة، فبالرغم من المساوئ والبدع التى اجتاحت المجتمعات الإسلامية فى عصور الانحطاط، إلا أن الإسلام - الذى كان سببًا فى قيام حضارة إلهية- ما زال كما هو بمصادره وشرائعه ومبادئه- يقول الإمام الندوى (ولا يغربن عن البال أن الدين لم يزل طول هذه المدة حيًا محفوظًا من التحريف والتبديل، مهيبًا بالمسلمين ناعيًا عليهم انحرافهم عن طريقه، ولم يزل منارة عاليا وضوؤه مشرقًا ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة: ١٦]، ولم يزل الكتاب والسنة يبعثان فى نفوس القراء ثورة على الشرك والبدع، وعلى الجهالة والضلالة، وثورة على أخلاق الجاهلية وعوائدها، وثورة على ترف المترفين واستبداد الملوك، ولم يزل ينهض بتأثيرهما فى كل دور من أدوار التاريخ الإسلامي، وفي كل ناحية من نواحى العالم الإسلامى رجال يقومون فى هذه الأمة على طريقة الأنبياء، يجددون لها أمر دينها، وينفخون فيها روح الجهاد، ويفتحون لها باب الاجتهاد.. وهم مصداق الحديث الشريف «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله**» فتاريخ الجهاد والتجديد فى الإسلام متصل لا تقطعه فترة، ومشاعل الإصلاح متسلسلة بعضها من بعض لم تطفئها العواصف)[1].

(١) (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للإمام أبى الحسن الندوى ص١٢٥ مكتبة الإيمان بالمنصورة سنة ١٩٩٤. وحديث الرسول ﷺ الوارد بالنص رواه الحاكم فى المستدرك.

ونحن أمام التجارب الأليمة على مر تاريخنا، مرورا بغزوات التتار والحروب الصليبية، والاستعمار الغربى فى العصر الحديث وربيبته إسرائيل، إننا أمام ذلك كله لا يخالجنا شك فى أن النكبة الحالية يمكن اجتيازها بشرط استمداد العون من الله تعالى وطاعته والعمل بشريعته ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] مع إعداد العدة والعتاد ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وتحقيق الوحدة ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾، وسد الثغرات التى نفذ منها اليهود إلى عقولنا وقلوبنا وأبنائنا وساستنا وكبرائنا، حتى ظن بعض مثقفينا أن الأمر الواقع لا يمكن تغييره.

ويدحض هذا الظن قول الدكتور عماد الدين خليل:

(إن الأجسام الغريبة محكوم عليها بالطرد، ولن تكون الأرض التى تسطو عليها وطنًا لها فى يوم من الأيام.. تلك هى حتمية التاريخ والقرآن الكريم يقولها بوضوح﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فليس ثمة أمة أو جماعة أو دولة أو قوة فى الأرض بقادرة على تجاوز حتمية التاريخ.. إنها لكلمات ثلاث ولكنها تلخص التاريخ البشرى كله وتمنحه قيمته وحيويته وقدرته على الحركة فى الوقت نفسه)[١].

وكما بدأنا الحديث عن دور الحملة الفرنسية الاستعمارى فى إخضاع الشرق الإسلامى والتمهيد لغرز إسرائيل، فإن تقييمها من المنظور الفلسفى يضعها على رأس فرض (التغريب) أيضًا، وفى الدراسة المتعمقة فى التفسير التاريخى لحملة نابليون على مصر، خلص الأستاذ محمد جلال كشك - يرحمه الله تعالى - إلى أن القاهرة «المتخلفة» «المغلقة» بحسب وصف (التنويريين) غير المغرّبة، (بل الإسلامية الشرقية، المعتزّة بحضارتها، المتمسكة بذاتها وشخصيتها.. كيف قاومت ببطولة نادرة جيش الاحتلال الفرنسى خمسة أسابيع، وكيف قاتلت من بيت إلى

(١) هجمات مضادة فى التاريخ الإسلامى، د. عماد الدين خليل ص٣٦. مكتبة النور بمصر الجديدة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦.

بيت بالمعنى الحـرفى للكلمة. بينمـا لما تولىّ عمـلاء الغرب تغريب بـلادنا، كانت مدننا تسقط بسهولة وتستسلم بسهولة أشد كلمّا زاد حظّها من التغريب)[1].

وقد أثبت أيضًا أن من جرائم الحملة الفرنسيـة إجهاض النهضة الصناعية الذاتية فى مصر (ففى ثورة القاهرة الثانية، أوشك المصريون أن يضعوا أقدامهم على بداية الطريق إلى الثورة الصناعية)[2].

وتأتى إحدى صور المأساة بقلم فرنسى لتصوّر نذالة وعار جنود فرنسا بعد وقوع المدينة فى قبـضتهـم (٥/ ٥/ ١٨٠٠م)، قال «جالان» (عمّ الخـراب أحياءً بأكـملها وتمثل لنا شبحه المخيف فى الأزبكيـة، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة، فليس فى الإمكان أن تخطو خطوة إلا عـلى كثبـان من الخرائب والأتربـة، وكانت رائحـة العـفونة تنبـعث من الرمم المدفـونة تحت الردم، وزاد هذا المنظر فظاعـة أن الجنود مدفـوعين بفكرة النهب،كانوا ينبـشون الجثث من تحت الأنقاض والخـرائب فكلما أظهروا جثة، زاد المنظر هولاً وفظاعة)[3].

(١، ٢) ص ٣٢٩ من كتاب . . ودخلت الخيل الأزهر، محمد جلال كشك، الدار العلمية - بيروت ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م.

والكتاب مرجع مهم ضخم (يـقع فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبـير) لا يستغنى عنه باحث فى تاريخنا الحديث، ويوضح قضـايا مؤثرة فى خط سير أمتنا عـقب اصطدامها بالاستعـمار الغربى. وقد أهداه المؤلف إلى (سليمان الحلبى بطل الوحدة العربية يوم كان طريقها عبر الأزهر).

(٣) ص ٣٢٥ نفسه، ويعلق الأسـتاذ جلال كشك على ذلك بإبداء تعـجبّه (أى صورة حـضارية قدمّت لأبناء القاهرة جند الثورة الفـرنسية، ينبشون جثث المـوتى للتفتيش فى جيوبهـا وقطع الأقراط والخواتم من آذان وأصابع النساء!).

ثورة الشريف حسين، والى مكة

قام الشريف حسين بالثورة ضد العثمانيين بتحريض من الإنجليز، وكان لورنس العرب - الجاسوس الإنجليزى الشهير - المحرك الأول للثورة التى سُميت (الثورة العربية) وكانت البداية لإثارة إحدى نزعات الجاهلية التى أبطلها الإسلام، وهى (القومية العربية) فيما بعد.

ورد فى وصفه (إنه يظهر أنه نصير العرب فى كفاحهم من أجل التحرر، والساعى إلى وضع حد للخصومات فيما بينهم، وإلى توحيدهم.. والحقيقة، حسبما يتبين الآن من تقاريره، هى أن مهمته الأساسية، منذ بدء الثورة، كانت تهدف إلى توثيق رباط العرب بالسلطة البريطانية، وتثبيت انقسامهم بعضهم على بعض).

ويقول لورنس (إن نشاط «الحسين» مفيد لنا، إذ ينسجم مع أهدافنا المباشرة وهى تفكيك الرابطة الإسلامية وهزيمة الإمبراطورية العثمانية.. إن العرب هم أقل ثباتًا من الأتراك، فإذا تمكنا من التحكم بهم بصورة صحيحة، فإنهم سيبقون منقسمين سياسيًا إلى دويلات تحسد بعضها البعض، ولا يمكن لها أن تتحد)[1].

استطاع الإنجليز استخدام حسين سلاحًا لطعن أمته الإسلامية فى القلب، ونسى أنهم من (الفرنجة) الذين قام أجدادهم أثناء الحروب الصليبية بذبح المسلمين عند دخولهم القدس، وكأنما ساعد أحفادهم - دون أن يدرى- إلى تكرار الجريمة من جديد ولكن هذه المرة على أيدى أبناء القردة والخنازير.

ويسجل التاريخ أنه بعد الاستيلاء على القدس أثناء الحروب الصليبية لبث الفرنج فى البلد أسبوعًا يقتلون المسلمين.

وكتب جيبون (خدام رب المسيحيين رأوا حينئذ تمجيده وتكريمه، فذبحوا سبعين ألف مسلم من أهل القدس، من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، قربانًا للرب».

---

(١) ص١٨ من كتاب (صليبية إلى الأبد) عبد الفتاح عبد المقصود- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٥م.

وتبدو نزعة التعصب الدينى على أشدهـا على لسان مؤرخ الكنيسة فلورى حين قرر: (المسـيحى الذى يبيـد أعداء دينه، لا يخرج عن نطاق الإيمـان- لأنه بفعله هذا، إنما ينحر القرابين ويقدمها ارضاءً لله)[1].

واكتشف حسين - ولكن بعد فوات الأوان - أن الإنجليز خدعوه (وقيل إنه كان يطوف بعدما خُلع بأرجاء القصر وهو يهتف: «هذا جزاء من يثق بالإنجليز»[2].

وعلم المسلمون فى أطراف الأرض كلها بخيانة الشريف وأولاده (وكانت المرارة ضد الترك قد زالت، بزوال دولتهم، وانتبه الـعرب على المصير الذى سقطوا فيه، مع سقوط دولة الخلافة، وحملوا مسئولية ذلك كله للحسين وأولاده)[3].

وتوزعت التركة على أولاد الحـسين فتم تنصيب عـبد الله على الأردن بعد أن توجه إلى لندن ووقع عـلى إقرار بقبـول الانتدابات البريطانيـة (الأردن - العراق- فلسطين)، وتولى فيصل حكم العراق.

وظل الحسين يشكو من عقوق ولديه عبد الله وفيصل - وكان يردد فى مجالسه (فيصل ليس إلا أداة بيد الإنجليز، ولا يهمه إلا ارضاء الإنجليز)[4].

ويقول الأستاذ عبد الهادى البكار لوصف ما حدث بعد ثورة العرب بقيادة ملك الحجـاز الحسين: (هكذا كـانت المياه تجرى من تحت أرجل العـرب المسلمين الذين ساندوا الحلفاء، ركائز الحضـارة الغربية الأوربية المسيحية، ضد الخـلافة الإسلامية العثمـانية، رافعين بتلك المسـاندة الساذجة (المسألة القـومية) إلى ما فوق (العـقيدة الدينية) ليواجهوا من بعد كل ما نحن فيه اليوم من مواجهة شديدة التعقيد مع ورثة الحضارة الغربيـة، وهى المواجهة التى أنذر بها مجدداً المفكر الصـهيونى الأمريكى صموئيل هنتجتون فى كتابه الشهير (صراع الحضارات) فى العام ١٩٩٦ .. وكانت نتيجة ثورة الحسين نفيه إلى جزيرة قبرص...[5].

---

(١) ص٤٤ من كتاب (صليبية إلى الأبد) عبد الفتاح عبد المقصود الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٧٥.

(٢) (السعوديون والحل الإسلامى) محمد جلال كشك ص٥٠٩.

(٣، ٤) نفسه ص٥٠٩.

(٥) عبـد الهادى البكار، مـقال بعنوان (فى الـذكرى الـ ٨٦ لتوقـيع اتفاقـية «سـايكس - بيكو») الأهرام فى ٢٠٠٢/٥/١٤م ص ١٢.

دور أتاتورك فى إجهاض نهضة الأمة

قلنا فى المقدمة إن نكبة فلسطين تتصل بحوادث كبرى قبلها منذ الحملة الفرنسية، وثورة الشريف حسين على الخلافة العثمانية، وثورة أتاتورك على هذه الخلافة وإسقاطها وقيامه بإلغاء الشريعة الإسلامية وإرغام الأتراك على السير فى ركاب حضارة الغرب وتطبيق المشروع العلمانى كاملاً، مستخدمًا الجيش للبطش بالشعب وفرض هذا المشروع عليه فرضًا بالقوة التى لا تراعى أية حُرمة، فأصاب الأمة فى مقتل ومهّد الأرض تحت أقدام إسرائيل. **(فإن الهزيمة العسكرية قد تبقى على كيان الأمة، أما الانهزام الفكرى فمعناه بدء النهاية للأمة كلها)**[١].

يقول الدكتور محمود سفر:

(جرب المسلمون فى الخمسين سنة الأخيرة .. ليبرالى متحرر يسعى إلى التبعية الحضارية، بانسلاخ تام من ذاته وهروب كامل من تراثه، إلى علمانى متعسف يستعدى العالم على دينه وتراث أمته، إلى يسارى مخدوع سجن نفسه وعقله فى فكر غيره، ولبس رداء سواه.

كان هذا وحال الأمة لا يتغير ولا يتبدل، ثم كان أن توالت النكبات والأزمات والهزائم والنكسات على الأمة، بأيدى من وعدوها بالتقدم والنهضة والتطور إن هى سارت فى طريقهم، والتحقت بركابهم، واعتنقت مبادئهم، والتزمت بمنهجهم)[٢].

لذلك فإننا نتخذ من دراسة ما حدث للخلافة العثمانية سندًا لإثبات تهافت التجربة الكمالية التى أدت إلى النكبات وأن (البديل - أو المشروع - الإسلامى سيكشف زيف وفساد المنهج العلمانى الذى ظل يسعى سعيًا حثيثًا إلى صدم الإسلام كدين وكنظام حياة .. و(يتجاهل) دعوة الإصلاح الجذرية والشاملة التى

(١) ص ٢٥ من كتاب (عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى)، شوقى أبو خليل، دار الفكر، دمشق ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) ص ٢٢ من كتاب (دراسة البناء الحضارى ومحنة المسلم مع حضارة عصره) د. محمود محمد سفر، كتاب الأمة - الكويت - رجب سنة ١٤٠٩هـ.

تبناها الإسلام على لسان الرسل والأنبياء عليهم السلام)[1] وخاتمهم نبينا محمد ﷺ.

ومما يؤسف له أن الانقلابات العسكرية فى البلاد العربية والإسلامية قامت بتقليد أتاتورك، ولم تتحقق النهضة المنشودة.

يقول الدكتور أحمد شلبى - يرحمه الله:

أجمع الباحثون على أن من أهم فوائد علم التاريخ أن نتخذ من الماضى عظة تخدم حاضرنا ومستقبلنا، وقد برهنت الأحداث التاريخية المتعددة على أن الحكم العسكرى يلحق الضرر أبلغ الضرر بالمجتمع، ويبدأ الضرر بالعسكريين الذين يقومون بالانقلاب، إذ سرعان ما يضرب بعضهم بعضا، مما يؤكد أن الصحبة بينهم قصيرة العمر، فشركاء الانقلاب تقفز العداوة بينهم بمجرد نجاح الانقلاب، ثم يتجه الضرر للمدنيين فالبلاد، وهذه النتيجة لم تتخلف على الإطلاق فأنىّ وُجد الحكم العسكرى يحل البلاء والدمار بالشعب والبلاد، لقد حدث هذا بوضوح فى أمريكا اللاتينية وحدث فى بعض البلاد العربية ومن بينها مصر، وحدث فى الباكستان وأفغانستان وأوغندة وأفريقية الوسطى واليونان)[2].

(١) ص ٦ من مقدمة كتاب (المنهج الإسلامى لدراسة التاريخ وتفسيره) للدكتور محمد رشاد خليل - والمقدمة بقلم محمد أمحزون - دار الثقافة - الدار البيضاء، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢) ص ٨٠١ من كتاب (موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية[٩]) د. أحمد شلبى - مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٩م.

ثورة أتاتورك والثورات الكبرى
فى الغرب «دراسة مقارنة»

إننا نزداد يقينًا بصحة نبوءات الرسول ﷺ عن مستقبل الأمة الإسلامية كلما تحققت هذه النبوءات وقد حذرنا ﷺ من تقليد الأمم الأخرى، ولكننا مع الأسف خالفناه فاستحق علينا العقاب الإلهى، وتكالبت علينا الأمم بسبب تقليدنا للأمم فى حركاتها (الثورية) السياسية أتت علينا بالخراب، وقمنا بهدم بنياننا الحضارى بأيدينا.

كانت الثورات الكبرى فى الغرب فى العصر الحديث - من منظور فلسفة التاريخ الغربى - تغييرات اجتماعية وسياسية من الجذور (الثورات الإنجليزية والأمريكية والفرنسية والروسية)، وقد قلبت الأوضاع القائمة هناك إلى أوضاع جديدة وتخلصت من الأمراض السياسية والاجتماعية التى أثقلت كاهل البلاد **(وهى ليست مجرد تطور وتغيير جزئى وعلاج لبعض العيوب، بل هى فوران وبركان وقوة لا قبل للحكام على الوقوف فى وجهها، وهى من أهم قوانين العلوم السياسية من حيث الحركة والنشاط)**[1].

وكان العالم السياسى كرين برنتون قد درس هذه الثورات بكتابه (علم تشريح الثورة)، ويرجع سبب اختياره لها أنها اتخذت جميعًا طابعًا شعبيًا، وقامت طلبًا للحرية، وكانت على أكتاف الأكثرية ضد الأقلية المستأثرة بالامتيازات[2] ثم استخلص من دراسته بعض الحقائق، منها: (أن الثورات الأربع كانت تعد الإنسان المستضعف بحياة أفضل، وتعزز أمله بالسعادة، وتقوى رجاءه بتحقيق حاجاته

---

(١) معجم العلوم السياسية الميسر، د. أحمد سويلم العمرى - الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٨٥ نقلا عن:

- (أيدولوجية الصراع السياسى- دراسة فى نظرية القوة) د. عبد الرحمن خليفة ص٢٥٠. دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية - بدون تاريخ.

(٢) أيديولوجية الصراع السياسى د. عبد الرحمن خليفة ص٢٥٢

المادية.. ولكن الثورات الأربع لم تتوصل بعد لإنجاز هذا الوعد إنجازًا صحيحًا[1].

وبالمقارنة بالحركات الثورية فى عالمنا الإسلامى وعلى رأسها ثورتى الشريف حسين، ثم أتاتورك اليهودى الدونمى- سنجد الاختلاف الجذرى من واقع النظام السياسى (العثمانى حينذاك)، ودوافع كل منهما ثم الآثار الناجمة عنها، مما أدى بالنظر إلى تاريخ الإسلام السياسى فى سياقه العام- إلى هدم كيان الأمة برمتها، مما يجعلنا نصفهما (بالتمرد) أو بالاصطلاح السياسى الإسلامى (خروج عن الحاكم)[2] بغير سبب شرعى.

ونعرض فى عجالة للسمات الجوهرية فى النظام السياسى فى ظل الخلافة العثمانية الذى يبدو مناقضًا تمامًا للنظم السياسية فى المجتمعات الغربية التى قامت بها الثورات الأربع، وعلى رأس ذلك كله ما اتسمت به الأمة الإسلامية من نظام سياسى فريد هو نظام الخلافة الذى هو بتعريف ابن خلدون:

(هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا)[3].

وإذا تدبرنا النص بعناية، وجدنا حرص ابن خلدون - وهكذا كان علماء الإسلام الذين عرضوا للنظام السياسى فى الإسلام - على تأكيد الصلة بين الدين والدنيا.

---

(١) نفسه ص٢٥٥.

(٢) ينظر كتاب (غياث الأمم فى التياث الظلم) للإمام الجوينى بتحقيق د. فؤاد عبد المنعم، د. مصطفى حلمى دار الدعوة بالإسكندرية.

والكتاب الجامع لهذه القضية من كافة جوانبها بعنوان (الخليفة: توليته وعزله) للدكتور صلاح دبوس.

ونحن نميز بين الثورات الشعبية التى قامت للمطالبة بإجلاء الاستعمار كما حدث بمصر والعراق وفلسطين وبين الثورات التى هى فى حقيقتها (انقلابات)، قامت بها جمعيات سرية لا يخفى احتمال اختراقها بواسطة أعضاء مجندين من مخابرات أجنبية، وكانت نتائجها النهائية مضادة لمصالح الشعوب.

(٣) المقدمة ص١٩١ ط المكتبة التجارية.

ويركز ابن خلدون على لب نظام الخلافة وجوهره فيقول: (وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط، فإنها كلها عبث وباطل، إذ غايتها الموت والفناء، والله يقول **﴿أفحستم أنما خلقناكم عبثا﴾**؟.

فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم.

وبالرغم من السيئات التى يحرص البعض على وسم العثمانيين بها، فإننا سنكتفى ببيان أبرز السمات التى تحول دون أى رغبة فى (الثورة) من العرب أو من غيرهم كدافع للتغيير الدموى الذى ساد فى معظم الثورات:

أول هذه السمات أن العثمانيين كانوا يسمون الخليفة سلطانًا، احترامًا وتعظيمًا لمنصب ولفظ الخلافة، وإقرارا منهم بالتواضع والعجز أمام الإسلام كدين ودولة كتواضع التلميذ أمام أستاذه.

السمة الثانية: كانت خطتهم عند دخول أى بلد عربى تشمل المحافظة على النظام الاقتصادى والاجتماعى بعكس ما فعلوه فى أوروبا (وتطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية وتنفيذها تنفيذا عمليًا حاسمًا سريعًا على المذهب الحنفى)[1].

ثورة أتاتورك فى ضوء تفسير التاريخ الإسلامى:

إن تقويم حركة أتاتورك تحتاج إلى استقصاء أحوال الكماليين وحركة الاتحاد والترقى التى تزعمها أتاتورك لنعرف أشخاصها ومصادر تمويلها وأغراضها وأهدافها وعقائدها ومذاهبها السياسية وأسباب إسقاط السلطان عبد الحميد.

فقد نشأت جمعية الاتحاد والترقى فى حماية النفوذ الأجنبى وكان مركز نشاطها ونقطة تحركها فى مقدونيا التى سُلخت عن إشراف السلطان ووضعت تحت الإدارة أو الحماية الأجنبية.

وكانت قيادة الحركة فى يد أجنبية، إما يهود الدونمة وهم معروفون بتظاهرهم بالإسلام أو الماسونيين أو (شتى العناصر المشبوهة).

(١) ص١٢٩، ١٣٠ من كتاب (مصرع الخلافة العثمانية) د. فهمى الشناوى، المختار الإسلامى سنة ١٩٩٥م.

يقول (ستون وطسن): (**إن الحقيقة البارزة فى تكوين جمعية الاتحاد والترقى أنها غير تركية وغير إسلامية،** فمنذ تأسيسها لم يظهر فى زعمائها عضو واحد من أصل تركى صاف، فأنور باشا مثلا هو ابن رجل بولندى مرتد، وكان جاويد فى الطائفة اليهودية المعروفة بـ«دونمة»، وقره صوه من اليهود الأسبان القاطنين فى مدينة سالونيكا، وكان طلعت باشا بلغاريًا من أصل عجرى. أما أحمد رضا فكان نصفه شركسيًا والنصف الآخر مجريًا.

ويقول: **إن قيادة جمعية الاتحاد والترقى وزعماءها كانوا جميعا وبدون استثناء من الماسونيين، وكان يهود سالونيك جزء لا يتجزأ من الجمعية).**

(وكانت العقول المحركة وراء الحركة إما يهودا أو مسلمين من أصل يهودى، وأما العون المالى فكان يجيئهم عن طريق يهود الدونمة ويهود سالونيك الأثرياء، كما كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية أو البيهية الدولية من فيينا وبودابست وبرلين وربما من باريس ولندن).

ويقول أوبدى هربرت النائب البريطانى:

(إن يهود سالونيك الذين يُعرفون بالدونمة كانوا مدبرى الثورة الحقيقيين، وهؤلاء هم من العرق اليهودى ولم يكن أحد يعلم عنهم الكثير إلا العلماء، ولكن ما من أحد كان يتنبأ بأن هذه الفئة اليهودية المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيًا فى ثورة كان لها نتائج خطيرة فى سير التاريخ)[1].

وفى ضوء تفسير التاريخ الإسلامى، يتضح أن هذه الحركة يهودية فى صميمها، وقد حولت خط سير الأمة الإسلامية- بإلغائها الخلافة العثمانية - إلى طريق العلمانية والتغريب الذى لم تعرفه قط منذ أيام الرسول ﷺ ومهدت الطريق لإقامة إسرائيل.

---

(١) ص ٣٩، ٤٠ من كتاب حوار فى أنقرة، محمد جلال كشك ط المختار الإسلامى ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م ومن أبرز العلماء الشيخ مصطفى صبرى الذى فضح الثورة بكتابه (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة). وقد نشرته دار الدعوة بعنوان (الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية) ط ٣١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

ويقر برنارد لويس فى دراسته عن الشرق الأوسط أن التغريب جاء بتغييرات يشك كثيرا فى قيمتها: **أول هذه التغييرات هو الانحلال السياسى الذى أدى إلى تفتيت المنطقة وتجزئتها**- وهو ما ساعد على غرس إسرائيل بينها- بينما كانت البلاد التى يحكمها السلطان العثمانى تضم بشكل موحد جميع مسلمى العالم تقريبًا، وهم يعترفون بشرعية الحكم، وربما لا يكون كل السلاطين محبوبين من رعاياهم، ولكنهم كانوا فى موضع احترام. وعندما هُدمت الخلافة قام مقام السلطان العثمانى (**عدد من الملوك والرؤساء والديكتاتوريين الذين دبروا لمدة معينة أمرهم وربحوا تصفيق وتأييد شعبهم**. . ولكنهم لم يكونوا أبدا موضع الرضى التام والقبول الطبيعى والولاء الأكيد الذى كان ممنوحًا لحكومة السلطان الشرعية، وهذا الولاء والقبول والرضى جعل السلطان غير محتاج للضغط والعنف والإرهاب أو للديماجوجية السياسية فى الحكم)[1].

والفقرة الأخيرة كافية لشرح سياسة الحكام الجدد الذين تولوا حكم البلاد بعد تفتيتها بالضغط والعنف والإرهاب، وعلى رأسهم أتاتورك، فضلا عن الديماجوجية التى شارك فيها الجميع بلا استثناء.

وربما لا يعد ضياع الشرعية أمرا ذا بال، إذا قورن بضياع الشعوب (لهويتهم الواحدة) التى كانت تجمعهم الإمبراطورية الإسلامية طوال ألف سنة أو تزيد من التراث والتاريخ، وجد الناس أنفسهم مواطنين لوحدات سياسية مفتعلة. **واستتبع ذلك انحلال اجتماعى وثقافى وسخرية من القيم القديمة ثم إهمالها (وقام محلها مجموعة من المؤسسات والقوانين والمقاييس الوضعية المستوردة من الغرب، والتى بقيت لمدة طويلة غريبة عن أحاسيس وآمال المسلمين فى الشرق الأوسط، بالإضافة إلى كونها تافهة بالنسبة لحاجاتهم)**[2].

(١) الغرب والشرق الأوسط، برنارد لويس ص٥٧، تعريف د. نبيل صبحى.

(٢) نفسه ص ٥٨.

- أتاتورك المنفذّ الأول للمشروع التغريبي والقضاء على وحدة الأمة:

تلقفت الأجيال منذ أتاتورك، تجربته كـأنها المنقذ من تدهور الأمة، فتربت على أفكار العلمانية والقومية، واتخذت من تقليد الغرب طريقًا إلى التقدم، وتخرّج من هذه الأجيال القادة والسـاسة والزعماء والثوريون، حيث قادوا الشعـوب الإسلامية وراءهم، فخاضوا التجـارب المريرة، انتهت باحتلال فلسطين عام ١٩٤٨م وزحف اليهـود لتدنيس المسـجد الأقصى عـام ١٩٦٧ وأيقنت الأمة فى النهـاية أن الآمال المعقودة على التـقدم هى السراب بعينه، واتضح بعـد فوات الأوان أن أتاتورك كان دجّال اللادينية الأكبر.

فـقد كـان من الضرورى أن نعـيش عـهدًا من الأوهام والضـلالات ... وأن نتجـرع كؤوس الهـزيمة فى سـيناء - حرب ٦٧ ودخول اليـهود للقـدس واحتلالهـا بالكامل - وأندونيسيا والباكستان، لكى نـشعر بالخطر، وأن يكون بيننًا من يفيضون فى الحديث عن الحرية والازدهار والتقدم.. ولا يحققون إلا الظلم والفساد ... إن ذلك كله كان ضروريًا لحلول عهـد الصحوة ... وأن ثمـة مخرجًا وحـيدًا للعالم الإسـلامى مما يتخبط فـيه: هو الرجوع إلى أصوله الروحية والمادية الخاصة به، أى الرجوع إلى الإسلام[(١)].

وإن صح افتراض وصف التاريخ بأنه (معمل التجارب الإنسانية)، فإن الشواهد على صحة هذا الفرض هى:

(أ) فقدت الأمـة وحدتها وكيـانها الحضارى الإسـلامى المتميزّ، وضـاعـت منها القدس.

(ب) أسفر العداء الغربى الكامن بالقلوب عن وجـهه، إذ لم تفتر جهود البلدان الأوربية لـتحطيم الخلافـة منذ قام مـحمـد الفاتح بفـتح القسطنطينيـة (فقـد كان الفرنسيون - والغربيون بصفة عـامة - يدركون السر فى قوة المسلمين والذى يتمثل فى جانبين مهمـين: الأول هو تمسكهم بالدين، والثانى فى وحدة بلادهم فى ظل حكومة إسلامية مطاعة مهابة)، وعندما انتصر الحلفاء فى الحرب العالمية الثانية وجّه الأساقفة الخطابات إلى القادة العسكريين لاحتلال الآستانة.

---

(١) (مقومات العمل الإسلامى - واتجاهات وبرامج وآراء للحركة الإسلامية) ص٦٦، إعداد: جماعة مسلمى يوغوسلافيا، شركة الشعاع للنشر/ الكويت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(جـ) حقق اليهود حلمهم بإقامة دولة فى قلب الأمة الإسلامية، لأول مرة فى تاريخها، وكانت نكبة فلسطين.

- خطة الغرب نحو تفتيت الأمة الإسلامية:

فإن أفضل مدخل لمعرفة حقيقة الخلافة العثمانية ودورها فى حماية الأمة الإسلامية وتوحيدها، هو عقد مقارنة بين ما آلت إليه الأمة الآن وما كانت عليه فى ظل الخلافة[2].

وليس من غرض دراستنا، العرض التاريخى، فإن شرحه يطول، حيث كانت هدفًا للصليبيين طوال ستة قرون، بل نجتزئ بعض مواقفها العسكرية والسياسية فى مواجهة الاستعمار الأوربى، ثم نبحث فى **تعليل حركة أتاتورك بحكم كونها رأس حربة للقضاء أولاً على الإسلام فى قلعته، ثم الانسياح فى ديار الإسلام تقتيلاً لعلمائه وإبعادًا لشريعته وتخريبًا لأراضيه وغزوًا ثقافيًا لأهله، وما تمكن الاستعمار الغربى من العالم الإسلامى، وغرس إسرائيل كرأس حربة فى قلبه إلا بعد كسر هذا الحاجز المنيع الذى حال دون تحقيق مطامعه،** وإذا كان العصر هو **عصر ازدهار الصهيونية وسيطرتها على العالم فإنه فى الحقيقة أيضًا عصر (انحلال) عرى دولة الإسلام وتفتيت شعوبه وإقصاء شريعته،** وكفّة ميزان الصهيونية الآن هى الراجحة بلا جدال.

ولو صحّ (استبداد السلطان عبد الحميد فلا يقارن باستبداد النظام الثورى لأتاتورك، فإن صح استبداد الأول فإنه اقتصر على عملاء دول أوروبا من الجواسيس والمخربين والأعداء، بينما امتد استبداد أتاتورك إلى الشعب المسلم التركى بأكمله).

ثم قلدته (الثورات) التى تابعته فأصبحت علمًا على الاستبداد السياسى والعلمنة (إقصاء الشريعة) والتغريب والتخريب الاقتصادى والحرب الشعواء على الإسلام والمسلمين عقب إسقاط الخلافة.

---

(1) من نتائجها الترحم على (الاستبداد العثمانى) وتمنى عودتها بعد بضع وعشرين راية بدلاً من راية واحدة وضياع فلسطين وحواجز الحدود وحظر الانتقال من بلد إلى آخر إلا بعد تأشيرات وجوازات وجمارك .. الخ ثم فقدان العزة والكرامة، ص ١٢١ من كتاب (جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك) زياد أبو غنيمة - ط دار الفرقان/ عمان ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

وقد تواطأت الصليبية واليهودية على إسقاطها والقضاء عليها وهى رمز وحدة المسلمين وقوتهم، وفصول الرواية طويلة جدًا، أى لعدة قرون:

بدأت (عشية انتهاء الحروب الصليبية عام ٦٩٠هـ - كما يقول أحد مؤرخيهم ويدعى (ديجو فارا):

«**إن الخطة للقضاء على الدولة العثمانية الإسلامية قد بدأت عشية انتهاء الحروب الصليبية عام ١٢٩١م** (٦٩٠هـ) واستمرت حتى حققت أهدافها عام ١٩١٨م.. إن أصل العداوة المزمنة التى يشعر بها الأوربيون للأتراك راجعة إلى العداء الشديد الواقع بين النصرانية والإسلام»[١].

وفعلوها وأصبحنا الآن فى حالة تمزق وتشتت وشرذمة لم تحدث فى تاريخنا من قبل قط. يقول أحد الباحثين: «لقد التقى إحسان الجابرى عام ١٩٣٢م مع بن جوريون فحدثه هذا عن أن اليهود مصممون على انتزاع فلسطين من أيدى العرب مهما كلفهم الأمر، وأنهم سيبلغون هدفهم هذا لا محالة، فرد عليه إحسان الجابرى ساخرًا (**أنتم تحلمون! هناك ثمانون مليونًا من العرب مستعدون أن يفتدوا فلسطين بأرواحهم**، فقال بن جوريون واثقًا: ولكن عندنا سلاح سيتغلب على هذه الكثرة، فسأله إحسان الجابرى (تعنى انجلترا وأمريكا؟) فقال بن جوريون بحزم (**لا، لا بل أعنى تفرق العرب**)[٢].

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى لمحب الدين الخطيب، نقلاً عن العالم الإسلامى والمكائد الدولية لفتحى يكن - مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) كتاب(اليهود فى المعسكر الغربى) داود عبد الغفور سنقراط ص ٩ط دار الفرقان عمان ١٩٨٣م ١٤٠٣هـ. جريمة إسقاط الخلافة مدونة بمخطوطات مكتب السجل العام بوزارة الخارجية البريطانية رقم ٧٨/ ٨٧٤ بتاريخ ٧/ ١١/ ١٨٥١، رقم ٧٨/ ٤٢٧ بتاريخ ١٧/ ٢/ ١٨٤١ ومصدق عليها من الملكة فكتوريا، وبدأت الجريمة على مائدة عشاء بين اللورد شافتسبرى واللورد بالمرستون وزير خارجية بريطانيا حيث قدم الأول للثانى مشروع الاستيطان اليهودى. وعندما وافق الثانى أعلن الأول أن الله قد اختار بالمرستون ليكون أداة لخير شعبه القديم. ثم وضعت الخطة لمساومة السلطان، وهى التى ذكرها السلطان فى مذاكراته، وعندما قاومهم وضع بالمرستون خطة للقضاء على السلطان والدولة. تقوم هذه الخطة على إحياء شباب تركيا وتزويده بالمال اليهودى حتى يتم صهره داخل الثقافة اليهودية، وبدأ التنفيذ وسقطت الخلافة.
ص ٣٢٤ من كتاب (المسيح الدجّال) سعيد أيوب، ط١ الفتح للإعلام العربى بالقاهرة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

وهكذا تحقق الهدف وأصبحنا فى حالة تمزق، وعندما نسعى للوحدة، فى أى صورة من صورها الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية، تحول بيننا وبينها العراقيل، حتى تسرب اليأس إلى القلوب فى أمة علّمت البشرية فكرة الوحدة العقدية وحققت الرابطة العالمية.

ويحز فى نفس كل مسلم أن تصل أمتنا إلى هذه الأوضاع بينما هى التى قادت العالم إلى **رباط العالمية التى أصبحت من سمات العصر**، فقد كانت روسيا (قبل الانهيار) تضم الملايين ويحس المواطن بالفخر أن الدولة التى ينتمى إليها تنافس قوة أخرى عالمية، بل كان الماركسى فى أى جهة من العالم يشعر بهذا الفخر ولا تجرؤ الحكومات التى يحيا فى ظلها أن تقبض عليه أو تلقى به فى السجن إلا فى حالات استثنائية، لأن (روسيا) كانت تتدخل بنفوذها السياسى للدفاع عنه!

ولا يحتاج الشرح لبيان فخر الأمريكى بالانتماء لأمته، فهذا أمر ملحوظ ومشاهد فى كل مكان.

كذلك أوروبا الساعية إلى الوحدة على أشلاء الملايين من بنيها خلال الحروب الطاحنة التى كانت بين بلدانها لسنوات طوال.

ولا زالت مشاريع الغرب لتفتيت البلاد العربية ماضية على قدم وساق، ولكن انتقلت الرغبة فى تنفيذها إلى اليهود لتحقيق مطامعهم، فى دولة إسرائيل الكبرى على أشلاء بلدان: مصر وسوريا ولبنان والعراق وليبيا والأردن والسودان.

والشاهد على ذلك المقال الذى نشرته مجلة «كيفونيم» (التوجهات) التى تصدرها فى القدس المنظمة الصهيونية العالمية، وعنوانه: الخطط الاستراتيجية فى الثمانينيات:

إن مصر بوصفها جسدًا مركزيًا، فإن هذا الجسد قد مات لا سيما لو أخذنا فى الاعتبار المجابهة التى تزداد بين المسلمين والمسيحيين. كما أن تقسيمها إلى مقاطعات جغرافية منفصلة يجب أن يكون هدفنا السياسى فى التسعينيات، على الجبهة العربية. فإذا ما تفككت مصر وحرمت من السلطة المركزية، فإن بلدانًا أخرى مثل ليبيا والسودان وغيرها من البلدان الأبعد، ستعرف نفس التفكك،

وتعتبر تشكيل دولة قبطية فى صعيد مصر، هو مفتاح الحل لتطور تاريخى تأخَّر اليوم بسبب اتفاق السلام، ولكن لا بد منه على المدى الطويل.

ورغم المظاهر، فإن الجبهة المغربية تمثل مشاكل أقل من مشاكل الشرق. ويجسد تقسيم لبنان إلى خمس محافظات.. ما سيحدث فى العالم العربى بأسره. وتفكك سوريا والعراق إلى مناطق محددة على أساس المعايير العرقية أو الدينية ينبغى أن يكون على المدى الطويل هدفًا ذا أولوية لإسرائيل على أن تكون الخطوة الأولى هى تحطيم القوة العسكرية لهاتين الدولتين.

فالهياكل العرقية فى سوريا تعرّضها للتفكك الذى قد يؤدى إلى إنشاء دولة شيعية على طول الساحل، ودولة سنيّة فى منطقة حلب، وأخرى فى دمشق، وكيان درزى قد يرغب فى تشكيل دولته الخاصة به - وربما فوق هضبة الجولان - وعلى أى حال مع حوران وشمال الأردن.. ومثل هذه الدولة ستصبح على المدى الطويل، ضمانًا للأمن والسلام فى المنطقة. وهو هدف فى متناول يدنا بالفعل.

والعراق الغنى بالبترول، والمرتع للمنازعات الداخلية هو خط التسديد الإسرائيلى، وتفكيكه سيكون بالنسبة لنا أهم من تفكيك سوريا، لأنه يشكل على المدى القصير أخطر تهديد لإسرائيل)[1].

إزالة شبهة الاستعمار عن الخلافة:

يتوهم الكثيرون بسبب النزعة القومية والوطنية، والاقتصار فى الحكم على الدولة العثمانية فى عصور انحطاطها والمظهر اللامع للتطبيق الديمقراطى فى شعوب أوروبا وأمريكا - القاصرة عليها وحدها دون شعوب العالم الثالث التابعة لها سياسيًا واقتصاديًا - يتوهمون بسبب كل هذا أن خلافة العثمانيين تقترن بالاستعمار الغربى بآثامه ومآسيه وفظائعه وأهواله التى مازلنا نعانى من آثاره الظاهرة والخفية.

إن عواطف التأثر بأزمنة الضعف والانحلال الأخيرة التى عانت الشعوب

---

(١) الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية ص ١٨١، ١٨٢، رجاء جارودى، ترجمة قسم الترجمة بدار الغد العربى بالقاهرة، ١٩٩٦م.

الإسلامية خلالها فعلا كـثيرًا من المظالم والآلام، هذه العواطف تقودنا إلى الوقوع فى الكثير من الأخطاء، بينما الحكم على دولة امتد عمرها نحو ستة قرون يقتضى آفاقًا أبعد، وتفاصيل أشمل.

يقول الأستـاذ عبد الرحمن عزام - أمـين الجامعة العـربية الأسبق - **(ولو كان الأمر كمـا يتصوره الذين ينخدعـون بآثار دور الانحطاط من استخدام الطـوائف والغيرة بين العناصر والبطش لتـغطية الضعف، لاستحـال أن يدوم ملك آل عثمان سـتمائة سنة، منها مائتان لا يسندهم فيها إلا سيف مبتور)**[١].

وكان يعـبر عن الرأى المضـاد الأستاذ مـحمـد عبد الله عنان فى كـتابه (مـصر الإسلامية) الذى كال الطعنات للخلافة العثمانية ورأى أن مصر الإسلامية لم تعرف من الخطوب والنكبات نكبة أعـظم من الفتح العثمانى بسـبب الضربة التى أصابت الإسلام من جرائه. وشبّـه تصرفات الترك بأعمال السفك والتـخريب الهائلة التى بدأها هولاكو وبرابر التـتار بسحق الدولة العبـاسية والمدنية الإسـلامية واستـأنفها تيمورلنك فى أواخر القرن الرابع عشر.

وأيضًـا اعتـبر مـا فعله السـلطان سليم من بعثـة العلمـاء ومهـرة الصنّاع إلى القسطنطيـنية - اعتـبر ذلك (نفيًـا) لهم، واعتبـر نقل الكتب والآثار النفيـسة إلى الآستانة تخريبًا[٢].

ويتدخل الشيخ مصطفى صـبرى ليصحح هذه المعلومات، فيذّكر صـاحبها بأن معظم الآثار كـانت كتبًـا مخطوطة، دينيـة وعلمية، فنقلهـا السلطان إعجـابًا بها واعتناءً بشأنها إلى عاصمة ملكه، بعد أن أصبحت مصر جزءًا من بلاد الدولة، لا فرق بينها وبين الآستانة فى ذلك. فكيف يساوى بين عمل السلطان سليم وهولاكو الذى قذف بما فى خزائن بغداد من كتب إلى الدجلة والفرات؟!.

أما نقل علماء مصر وزعمائها ومهرة الصناع فيها، فلا يعد نفيًا، بل ليكونوا من

---

(١) من مقـاله فى (الأهرام) بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٩٤٤ بـعنوان [آخر الخلفـاء] نقلاً عن الكتـاب الكبير للـشيخ مصطفى صبرى جـ١ ص ٨٦.
(٢) نفسه ص ٨٤.

المقربين إليه، وليصبح نفعهم عامًا لجميع البلاد، إذ لا فرق بين المسلمين بسبب أوطانهم أو جنسياتهم. ولم يكن غرض السلطان سليم من الفتح إلا توحيد مصر الإسلامية بتركيا الإسلامية.

أما إذا اعتبره الأستاذ عنان انتزاعًا لمصر من حكم المماليك الشراكسة (فقد كانوا هم الآخرون انتزعوها من حكم المماليك البحرية الترك وهم مماليك هؤلاء المماليك، ولم تكن مصر يومئذ تحت حكم فاتحيها العرب، ولا المقصود من الفتح التحكم على الشراكسة والمصريين العرب)[1].

والحق أننا لا نستسيغ هذه الصور من التنافس على السيطرة، لأننا لا نضعها فى إطارها التاريخى الذى حدثت فيه، بينما هى فى الحقيقة تخضع للعرف الدولى (حينذاك). ثم نعود فنتحفظ لأن هذا العرف يشكل قانونًا مستمرًا ينظم العلاقة بين القوى والضعيف.

ودعونا نقوّم الواقع الدولى الراهن. هل يختلف عما كان يحدث فى التاريخ القريب والبعيد؟ . . إن بلاد العالم الثالث كانت مقسمة بين الدولتين المتعاليتين - روسيا وأمريكا - كل ما هنالك أن الدول فى العصور الماضية افتقدت وسائل الإعلام التى تصور الأشياء بغير حقيقتها، ولم تكن عقول حكامها بنفس الدهاء الذى اخترع أشكالاً من الاستعمار والسيطرة تحت أسماء (الوصاية) و(الانتداب) وغيرهما!! . . أو وضعت نظمًا شكلية باسم الاشتراكية والديمقراطية و(الكومنولث) لخداع الشعوب وإلهائها عن حقيقة أوضاعها، وإيهامها بأنها تحكم نفسها بنفسها، والحقيقة أنها خاضعة خضوعًا تامًا للقوى الكبرى!!.

نعود لآراء الشيخ مصطفى صبرى التى أوردها دفاعًا عن الدولة العثمانية، فاقتبس نصًا من كتاب (أد. انكلهارد: تاريخ تطورات الدولة العثمانية) يذكر فيه أن **(الإسلام الذى قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقى حاكمًا مطلقًا فوق الحكومة ناظمًا، فقد كان القانون المدنى متحدًا مع القرآن)** ثم يفصح عن نوايا دول أوروبا المسيحية التى ظلت تعمل على تقويض الدولة العثمانية بالقوة طيلة خمسة قرون، فلما فشلت اتبعت الحيلة لكى تحول حكومة آل عثمان (من الروحانية إلى الدنيوية

(١) نفسه ص ٨٥.

بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع فى العالم المسيحى)[1].

وكان هذا هو السبب الرئيسى للعداء، لأن أوروبا ظلت فى حالة حروب صليبية مستمرة منذ عهد السلاجقة الأتراك، لتيقنها من حقيقة **دور العثمانيين فى الدفاع عن الدين وعن بلاد المسلمين الذين لا يفرقهم وطن ولا لون ولا جنس ولا قوم**. كل ما هنالك أن الحروب الصليبية المبتدئة منذ عهد السلاجقة الأتراك كانت فيها أوروبا هاجمة والسلاجقة مدافعون، وانقلب الحال فى أيدى الأتراك العثمانيين فأصبحوا مهاجمين، وظلت أوروبا تعمل لهم ألف حساب **لأنهم يجمعون العالم الإسلامى تحت رايتهم، ويصدون الخطر الاستعمارى الأوروبى الفادح**.

ليست إذن العلاقة مشابهة بين دولة مستعمَرة (بفتح الميم) وأخرى مستعمِرة (بكسرها) ولعل من أقوى الأدلة على ذلك أنه بمجرد انفصال الدول العربية، بعد **نجاح الثورة بقيادة الشريف حسين**، حتى انقلب (النجاح) وبالاً على الشعوب، لأن الثورة - ثورة العرب التى كسرت الحماية العثمانية- **أسهمت فى كسر شوكة القوة العثمانية التى كانت تقف فى وجه الأطماع الاستعمارية التى تدفقت بعدها كالسيول الجارفة تقضى على الأخضر واليابس**، أو كالوحوش الكاسرة التى ما إن رأت السور الحديدى الفاصل بينها وبين ضحاياها ينكسر حتى التهمتها فى ضراوة وقسوة، وغرست فى قلبها الإسفين الذى لن يتحقق خلعه إلا بعد تحقيق وحدة الأمة من جديد: إسرائيل!

ولنقارن بين الأحداث التى لحقتنا تباعًا، وبين ما فعله العثمانيون مع غير العرب من دول أوروبا، ولنسأل أنفسنا هل يُعدّ ما فعلوه استعمارًا؟ .. يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام:

(لما وصل العثمانيون إلى شرق أوروبا، وكلها سجون أبدية يتوالد فيها الفلاحون للعبودية، **فكسروا أغلال السجون وأقاموا مكانها صرح الحرية الفردية. فهم الذين قضوا على نظام الإقطاع والارستقراطية ليحل محله نظام المواطن الحر والرعية المتساوية الحقوق، فوصل فى دولتهم الرقيق الشركسى والصقلى، وغيره، إلى أكبر مقام فى الدولة، كما وصل النابه من عامة الناس، حتى المجهول الأصل، إلى مقام الصدارة العظمى والقيادة العليا، وتعلمت أوروبا الشرقية على يد**

(١) نفسه ص ٨١.

محرريها، سيادة القانون على الأحساب والأنساب والطوائف والملل والنحل[1].

إن هذه القيم تنفى عن الدولة العثمانية تهمة الاستعمار تمامًا. فما كان دور الغرب معنا؟ .. لعلنا نصدم القارئ - كما صُدمنا - بحقيقة تقييمه لنا. إنها حقًا صدمة غير متوقعة لأنها صادرة عن **(منتسكيو) صاحب كتاب (روح القوانين) الشهير الذى يقول:**

[إذا طلب منى أن أدافع عن حقنا المكتسب **لاتخاذ الزنوج عبيدًا**، فإنى أقول: إن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم تر بدًا **من أن تستعبد شعوب أفريقية لكى تستخدمها فى استغلال كل هذه الأقطار الفسيحة**. والشعوب المذكورة ما هى إلا جماعات سوداء البشرة من أخمص القدم إلى قمة الرأس، وأنفها أفطس فطسًا شنيعًا، بحيث يكاد أن يكون من المستحيل أن ترثى لها. **ولا يمكن للمرء أن يتصور أن الله سبحانه وتعالى - وهو ذو الحكمة السامية - قد وضع روحًا - وعلى الأخص روحًا طيبة - فى داخل جسم حالك السواد]!!**[2]، وللمقارنة بين موقفين وطبيعة حضارتين سنأتى بتعريف الأمة فى الحضارة الإسلامية: وجاء بمعجم العلوم السياسية الميسر **تعريف الأمة** كالآتى:

«الإسلام دين ودولة، وقد انبثق من شبه الجزيرة العربية غير أن شعوبًا عديدة اعتنقته طواعية أو نتيجة هجرة أو بفعل الغزو، **ولم يكن الهدف ضم أراض للإمبراطورية العربية بقدر ما هو نشر دعوة وإيمان وتكوين مجتمع أكثر عدالة من المجتمعات القائمة فى فجر الإسلام كمجتمع بيزنطة وفارس**. وهكذا تكونت حضارة هى الحضارة الإسلامية أهم مظاهرها القرآن الكريم والحديث والسنة وسير الخلفاء الراشدين والإجماع والقياس والاجتهاد، والمسلمون أخوة طبقًا للفلسفة الإسلامية والناس سواسية كأسنان المشط، وهكذا كان الاهتمام فى الإسلام بالأمة لا بالأرض وحدودها وتكوين الدولة وفق المبادئ الحديثة المعروفة والمسلم للمسلم كالبنيان للحائط، والمسلمون يشعرون مهما بعدت الدار أنهم فى وطن الأمة التى لا يرتضون بها بديلاً، وهم يكونون وحدة بناظمهم الاجتماعى وبترابطهم الدينى والروحى والسياسى»[3].

---

(١) نفسه ص ٨٦.

(٢) نص مترجم من الفرنسية، بقلم الدكتور محمد عوض محمد، بكتابه (الاستعمار والمذاهب الاستعمارية) ص ٣٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧م.

(٣) معجم العلوم السياسية الميسر ص ٣١: إعداد د. أحمد سويلم العمرى-الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م.

فأين الأمة الإسلامية من رباط العالمية الآن؟ وأى المشروعين أولى بالتنفيذ: المشروع الإسلامى الداعى للوحدة، أم المشروع التغريبى الذى فتتها إلى قوميات ووطنيات وعصبيات ودعاوى جاهلية (رجعت) بنا إلى الوراء؟

عندما سمع النبى ﷺ أن أبا ذّر الغفارى، رضى الله عنه، سابّ رجلاً فعيّره بأمه، فأتى الرجل النبى ﷺ، فذكر ذلك، فقال له النبى ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

ويعلق ابن تيمية كل هذا الحديث بقوله: (ففى هذا الحديث: إن كل ما كان من أمر الجاهلية فهو مذموم . . . والسنّة الجاهلية: كل عادة كانوا عليها . . فالناس قبل مبعث الرسول ﷺ كانوا فى حال جاهلية منسوبة الجهل - أى الأقوال والأعمال التى أحدثها جهّال - وكذلك كل ما يخالف ما جاء به المرسلون: من يهودية، ونصرانية، فهى جاهلية، وتلك كانت الجاهلية العامة . . أو المطلقة . . . والجاهلية المقيدة قد تقدم فى بعض ديار المسلمين، وفى كثير من المسلمين، كما قال ﷺ: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**»[1].

ويستطرد بعد ذلك أن الفضل الحقيقى لأصناف العجم من الحبشة والروم والترك وغيرهم: سابقون فى الإيمان والدين لا يحصون كثرة، على ما هو معروف عند العلماء، إذ الفضل الحقيقى: هو اتباع ما بعث الله به محمدًا ﷺ من الإيمان والعلم، باطنًا وظاهرًا، فكل ما كان فيه أمكن، كان أفضل.

والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة فى الكتاب والسنة مثل: الإسلام والإيمان، والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان ونحو ذلك. **لا بمجرد كون الإنسان عربيًا أو أعجميًا أو أسود أو أبيض، ولا بكونه قرَويًا أو بدويًا**)[2].

ونعود فنتساءل: أين الأمة الآن من رباط الوحدة الإسلامية لإنقاذ إخواننا بفلسطين من المجازر الإسرائيلية؟ لقد فقد المسلمون الرابطة السياسية التى كانت تحميهم أيام الخلافة، حتى فى عصور ضعفها، فكان السفير الإنجليزى يستعطف

---

(١) ص ٧٥ - ٧٨ من كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) تحقيق عصام الدين الصبابطى - دار الحديث بالقاهرة سنة ١٤١٢هـ.

(٢) نفسه ص ١٣٩.

الخليفة العثمانى خشية إعلان الجهاد فيثور مسلمو الهند فى **وجه إنجلترا آنذاك**. وأصبح المسلمون الآن هم الوحيدون فى أنحاء العالم المستهدفون لحملات القتل والتشريد والإبادة بلا رادع من ضمير أو وازع من أخلاق، فأحوال الأقليات - بل الأغلبية - لا تخفى على أى مراقب. كما لا يخفى على أحد الجرائم الوحشية - ولفظ الوحشية ربما لو عقله الوحوش لاحتجوا - على جرائم الصرب فى البوسنة والهرسك التى تدين العصر كله وهى سبّة فى جبين الغرب بل العالم، **أما كارثة اغتصاب فلسطين فإنها العار الأكبر لحضارة الغرب، وهى الموضوع الرئيسى لكتابنا،** حيث فرض علينا العلمانية قسراً بواسطة عملائه، بينما كان يدفع بالدين إلى الأمام ليقود سياساته.

انحسار العلمانية فى الغرب وعودة الدين إلى المسرح السياسى:

يبدو للمراقب لتطورات الأنظمة الغربية أن **العلمانية** التى نشأت هناك للفصل بين الدين والدولة كانت تتسم - كما وصفتها كارين آرمسترونج - بالتسامح، إذ نظر إليها فى مراحلها الأولى، على أنها أسلوب أفضل للتدين، وكانت العلمانية الغربية أيضًا تتطور تطوراً إيجابيًا، أدى فى معظم الأحيان، إلى مزيد من التسامح[1].

ولكنها بالمقارنة بينها وبين العلمنة فى الشرق قالت (.. فإن عملية العلمنة فى الشرق الأوسط كانت هجمة عنيفة قسرية)[2] مستدلّة بذلك على ما فعله أتاتورك الذى صمم على **«تغريب» الإسلام** ومضى فى طريقه بإغلاق المدارس الدينية وفرض الزىّ الغربى بقوة القانون وتقليص الدين ليصبح عقيدة فردية بغير تأثير قانونى أو

---

(١)، (٢) ص ٣٠٥ من كتاب (معارك فى سبيل الإله) الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام، كارين آرمسترونج، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى، كتاب سطور بالقاهرة سنة ٢٠٠٠م.

ويقول جيل كيبل (ينفتح الربع الأخير من القرن العشرين، فى أوروبا الكاثوليكية على مفارقة: إذ يبدو المجتمع وكأنه لم يكن يومًا على هذا القدر الكثيف من الدنيوية العلمانية ومن اللامسيحية. ومع هذا فإن حركات معاودة تنبعث وتتولد فى كل مكان ... أى جماعات فى حقل الجامعات - وعمليات الشفاء العجائبى.. ومنظمات مثل «التناول والتحرير» التى تريد إعادة خلق مجتمع مسيحى بعد **«إفلاس العلمانية»**) ص٥٩ من كتاب (ثأر الله- الحركات الأصولية المعاصرة فى الديانات الثلاث) ترجمة نصير مروة - دار قرطبة - قبرص) ط٢ سنة ١٩٩٨م.

سياسى أو اقتصادى وإخضاعه للدولة، وعندما قـامت حركة العصيان بقيادة سعيد النورسى «سحقها أتاتورك بسرعة وحزم فى غضون شهرين»(١).

وارتفعت نغـمة العصـبية الدينية فى أوربـا وأمريكا، فرسمت إحـدى المجلات الإنجليزية صـورة رمزية للقائد اللنبى فى عودته من حـرب فلسطين وكتبت تحـتها **(العودة من الحروب الصليبية)**، ووّقع مائة عضو من أعـضاء البرلمان الإنجليزى على مذكرة اللورد سيسل تتضمن المطالبة بإخراج الأتراك من الآستانة، وأرسل اثنا عشر أسقفا فى الآستانة برقية إلى رئيس أساقفة كانتربرى يدعونه فيها إلى المساعدة على إخراج الأتراك من الآستانة . . . كما أرسل أسـقف نيويورك إليه أيضًا بهذا المعنى نيابة عن مائة أسقف (**وشكره على المساعى التى يبـذلها فى «الحروب الصليبـية» التى تبذل ضد بقاء الأتراك فى الآستانة..**)(٢).

وبنفس الدوافع الصليبية كتب القائد الفرنسى بيير كيللر يقول (إن مصالح فرنسا فى الشرق الأوسط هى قبل كـل شىء مصالح روحية، وتعـود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين. .)(٣).

وأخيـرًا أضاف الرئيس الأمريكى (بـوش) فى سبتـمبر ٢٠٠١م، برهانًا قـاطعًا على **صبغة الحرب الصليبية** عندما صرّح بذلك علنًا (ولا يؤخذ تراجعه بعدها مأخذ الجد لأن فلتات اللسان أصدق تعبيرًا عما فى النفس) فهو يمضى سياسيًا وعسكريًا وفق الشعار المرفوع منذ حرب الخليج سنة ١٩٩١م **وقبلها أصدر الكونجرس قرارًا فى منتصف الثمانينيات معلنًا أن الإسلام هو الخطر الأكبر فى نظر الولايات المتحدة**(٤).

---

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥.

(٢) ، (٣) باختصـار من كتاب (الاتجاهات الوطنيـة فى الأدب المعاصر) جـ٢ ص ١٩، ٢٠ للدكتور مـحمد محمد حسين ط مكتبة الآداب بالجماميز بالقاهرة ط٢ ١٣٨٨هـ = ١٩٦٨م.

(٤) ص ١٦٩ من كتاب (سرّ إسلام الأمريكيات) تأليف Carol l.anway الباحثة الكهنوتية المسيحية، ترجمة محمد عبد العظيم، ط دار المنارة - المنصورة - مصر ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م وسبقهم جميعًا روسو (رئيس قسم التخطيط فى وزارة الخارجيـة الأمريكية مستشار الرئيس الأمريكى جـونسون لشئون الشرق الأوسط حـتى عام ١٩٦٧م)، قـال عندما أقبلت نذر الحرب الإسـرائيليـة: [. . بل هى خلافـات بين الحضـارة الإسلامية والحضارة المسيحية] معلنًا تأييد أمريكا التام لإسرائيل فى حربها العدوانية.
ص ١٠٩ من كتاب (المسيح الدجال، قراءة سياسية فى أصول الأديان الكبرى) سعيد أيوب.

ويالها من مفارقة صارخة:

تعلمت أوروبا الوحدة، من الخلافة الإسلامية، وتخلى عنها المسلمون وتقهقروا إلى الخلف بسبب الانقسامات ومحاكاة الغرب واستعارة نظمه فى القومية والوطنية التى أصبحت من مخلفّات القرون الماضية.

واسترد الدين مكانته **بالمفهوم السياسى الواسع**، كما عاد ليملأ الفراغ النفسى والوجدانى بعد علل القلق والاضطراب النفسى الذى عانت منها المجتمعات هناك طويلاً.

تقول آرمسترونج أستاذ الأديان المقارنة بجامعة اكسفورد:

(فقد تقدّم الأيديولوجيات الإنسانية والتطلعات والحماس، الوعد بنوع من الخلاص، لكنها فى النهاية لن تؤدى إلا إلى الإحباط . . . وغير مستطيعة أن تهدئ القلق وعدم الرضاء الأساسى للبشر والذى يلجئ الكثيرين إلى السلوى التى يقدمها الدين ويقدمها الفن.

وبدراستها للفارق بين الأيديولوجيات الغربية، مثل القومية والاشتراكية، التى لجأ إليها بعض المسلمين، وبين الإسلام، تذكر أن النتائج لم تأت بالإرضاء المأمول كما توقع المصلحون من العلماء المسلمين، ولمعرفتها بالقيمة الكبرى للتوحيد فى الإسلام، ولوعيها بمحاذير الوقوع فى الشرك تقرر أن (خطيئة الشرك تحذر المسلمين من تبنى مُثُل بشريّة خالصة مهما بلغ صلاحها فى حدا ذاتها - وذلك من الأهمية القصوى بمكان، كى لا يتحولوا إلى الوثنية)[1].

وما لم تقله آرمسترونج، أن الكنيسة فى الغرب استعادت سلطانها فى التأثير فى الأحداث السياسية المحلية والعالمية، ويرى الدكتور محمد يحيى أن المسيحية الغربية أصبحت الآن قوة دولية كبرى فى مجال السياسة، وفى ميادين الإعلام والدعاية أولاً فى مجلس الكنائس العالمى جهاز سيطرة وتوجيه وتوحيد **أشبه بمفهوم (الخلافة)** فى الإسلام، وبالوكالة اليهودية عند الصهاينة[2].

---

(١) محمد ﷺ، كارين آرمسترونج ص ١٨٠/١٨١ ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عنانى، ط ٢ سطور سنة ١٩٩٨م.

(٢) (الرد على العلمانيين) ص ٣٨ «ورقة ثقافية»، الزهراء للإعلام العربى بالقاهرة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

لذلك فإن الإصرار على التاريخ المزيف ووضع الدولة العثمانية فى مصاف الدول الاستعمارية، والمضى قدمًا فى طريق التغريب وإقصاء شرع الله عن حياة المسلمين وتبرير تفتيت العالم العربى والإسلامى، مما يعطى سندًا قويًا للاستعمار الغربى وبقاء نفوذه الثقافى والسياسى والاقتصادى لاعتماده على هذه الانقسامات[(١)] وتغذيته المستمرة ودعمه المستمر للكيان الصهيونى المالى والعسكرى والسياسى، ومع هذا، فإننا لا نفقد الأمل فى صحوة الأمة من جديد وأماراتها ظهرت والحمد لله، فلم ينته أجلها بانقضاء الخلافة ولا زلنا نغلبّ روح الأمل مسترشدين بالمبشرات التى نستمدها من أحاديث الرسول ﷺ، ولئن كانت الخلافة هى النظام السياسى الأمثل لأمتنا، فإننا لا نفتقد من علمائنا فى هذا المجال، إضافة إلى حرمان الأجيال الصاعدة من أمل الوحدة الذى يجعل من أمة الإسلام قوة يُخشى بأسُها ويحقق مصالحها فى الرخاء والاكتفاء الذاتى وإنشاء جيش قوى يقف فى مصاف جيوش الدول الكبرى، كما كان الشأن أيام الخلافة العثمانية وما قبلها منذ عصر النبى ﷺ.

يقول الدكتور أحمد صبحى بكتابه (فى فلسفة التاريخ) [. . ومادتنا التاريخية هى الحضارة الإسلامية، منذ أن انبثق نورها بالبعثة النبوية إلى **أن انقضى أجلها، ولكل أمة أجل، بانهيار الخلافة العثمانية**، ثم فترة من التاريخ أعقبتها، تزيد قليلاً على نصف قرن، تتأرجح بين الوطنية والقومية. .][(٢)].

---

(١) يذكر ليونارد بانيدر أن الحدود الإقليمية لبلاد الشرق الأوسط هى المقومات الشرعية والسياسية الأولى لوجودها . . وكانت له الشجاعة الكافية للاعتراف بأن هذه الحقيقة مناقضة للمنطق، ولكنه يبررها بأنها ضرورية لأمن أمريكا الوطنى فى الشرق الأوسط.

ص٤١ وص٣٩٩ من كتابه (الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط).

وبينما كنت أعد لكتابة هذه المقدمة طالعت خبرًا بعنوان (الجيش الإسرائيلى يستعد لحركة تجنيد كبرى للمقيمين فى الخارج تحسبا لاندلاع حرب شاملة) الأهرام فى ٢١/٧/٢٠٠١م.

فشتان بين أمة كانت موّحدة تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله تجمع العقيدة والشريعة ووحدة الهدف وشرف الرسالة، فتفرقت دولاً ودويلات وتفتت إلى قوميات ووطنيات متناحرة، وبين أمة أخرى كانت فى الشتات لعشرات القرون ثم تجمعت وتوحدت فهل نعى الدرس؟!

(٢) ص ٢٦٥/٢٦٦ من كتاب (فى فلسفة التاريخ) د/ أحمد صبحى، ط مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية سنة ١٩٩٠م.

ولا نشارك الدكتور أحمد صبحى فى رأيه، عن انتهاء أجل الأمة الإسلامية بانهيار الخلافة العثمانية، لأن الأمة تتميز بخاصية لا تشاركها فيها أمة أخرى، فهى باقية بالرغم من انفراط عقد الخلافة - أى الرابطة السياسية الجامعة لها - لأن القرآن الكريم يوّحد بينها، وهو ما يراه الدكتور على عزت بيجوفيتش، فمع التسليم بتعدد شعوب العالم الإسلامى، فإن الشىء الذى يربط دوله هو القرآن الكريم، (الذى يُقرأ فى كل أصقاع العالم الإسلامى من الهند إلى الجزائر إلى نيجيريا)[1] ولم يفت الرئيس بيجوفيتش استكمال رأيه فى كتاب آخر حيث يقول:

(إذ المتفق عليه أن الرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة على مدى العصور كلها حتى قيام الساعة ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ**﴾ [الأحزاب: ٢١]، هو وحده ﷺ الذى ضرب المثل الأعلى فى السلوك الإنسانى فى مسالكه كافة، وقدم الحلول الصحيحة لما يعترضنا من أزمات كأفراد ومجتمعات وأمة.

كذلك فإن اتبّاعه ﷺ يعصم المسلمين من الافتتان بكل ناعق، من هؤلاء المصنوعين والمروّج لهم بأجهزة الإعلام التى يدير أغلبها اليهود، وتقود الشعوب إلى حتفها.

يقول الرئيس على عزت بيجوفيتش بكتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) يوجد للإسلام مصدران أساسيان: هما القرآن والسنة النبوية يمثلان معًا الإلهام والخبرة، الخلود والزمن، التفكير والممارسة، الفكرة والحياة. والإسلام طريقة حياة أكثر منه طريقة تفكير. وتشير جميع التفاسير القرآنية إلى أنه بدون السنة النبوية . . أى بدون حياة النبى ﷺ يتعسر فهم القرآن فهمًا صحيحًا. إنه فقط من خلال فهمنا لحياة الرسول ﷺ يعرض الإسلام نفسه كفلسفة عملية أو خطة شاملة للحياة كلها[2].

---

(١) ص ١٧٠ من كتاب (البوسنة والهرسك . . من الفتح إلى الكارثة) للدكتور محمد حرب (المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى والبلقان) ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) ص ٣٠٤ من كتابه (الإسلام بين الشرق والغرب) ترجمة محمد يوسف عدس، مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

ولكن مع انحلال رابطة الخلافة السياسى فإن الأمة الإسلامية باقية، وهو ما اتفق عليه المفسرون لقوله تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** . . ﴾ الآية.

ففى تفسير قوله تعالى ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا** . . ﴾ [البقرة: ١٤٣]. يقول النيسابورى: أمة وسطًا، أى عدولاً . . . وإنما أطلق الوسط على الخيار، لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والعيب، والأوساط محمية محوطة، ثم يستطرد: والخطاب لجميع الأمة من حين نزول الآية إلى قيام الساعة كما فى سائر التكاليف، مثل ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** ﴾، ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ** ﴾ فللموجودين بالذات وللباقين بالتبعية، لكنّا لو اعتبرنا أول الأمة وآخرها بأسرها لزالت فائدة الآية، إذ لم يبق بعد انقضائها من تكون الآية حجة عليه، فعلمنا أن المراد به **أهل كل عصر**(1). ويُفهم من هذا أن الأمة باقية إلى قيام الساعة لأداء ما كلُفّت به، والله أعلم.

وهو ما يقرّ به ليونارد بانيدر - أستاذ العلوم السياسية فى جامعة شيكاغو الأمريكية - إذ يرى أن مفهوم (الأمّة) فى الإسلام ما زال قائمًا فى الإسلام (وباستمرار منذ أيام عهد السقيفة فى المدينة المنّورة)، كذلك لم يؤد انحلال الحكم الشرعى فى التاريخ الإسلامى الممثل فى الخلافة (إلى انهيار الدين أو انحلاله. وقد يمكن القول إن انحلال التنظيم السياسى الإسلامى أدّى إلى تقوية التنظيم الدينى، عن طريق يجسّد الأخير فى مجتمع المؤمنين كله)(2).

ومن هذه النظرة المتفائلة، يرى الرئيس على بيجوفيتش أن الاعتماد - بعد الله عز وجل - على الأجيال المسلمة المقبلة (هذه الأجيال التى تشكلّ مائة مليون شاب وشابة وُلدوا فى الإسلام وتربوّا فى مرارة الهزيمة التى تربط فيما بينهم، والذين سيرفضون العيش على الأمجاد القديمة والمساعدات الأجنبية)(3).

فمن كان يصدّق انحدار الماركسية وتحرر المسلمين من فتنتها؟!

---

(1) من كتاب (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للنيسابورى، تحقيق وتعليق د. حمزة النشرتى، الشيخ عبد الحفيظ فرغلى، د. عبد الحميد مصطفى.
المجلد الثانى ص ١٢٨/ ١٢٩ وص ١٣١/ ١٣٢، ط دار الغد بالقاهرة.

(2) ص ١٨١ من كتاب (الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط) تأليف ليونارد بانيدر وتعريب خيرى حمّاد، ط دار القلم بالقاهرة سنة ١٩٦٥م.

(3) (البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة) للدكتور محمد حرب ص ١٦٩.

ومن كان ينتظر، بعد سنوات من البطش والقهر، انبلاج الظلام عن صحوة إسلامية تعم بلاد العالم؟!

لذلك فإن ثقتنا لا تتزعزع فى ارتفاع موجات اليقظة واستمراريتها، نستقرؤها من حديث الرسول ﷺ ومطابقته مع ما أصاب الأمة من كوارث فى القرون الماضية، وما تعانيه من شدائد فى واقعنا المعاصر.

فقد ثبت عنه ﷺ فى الصحيحين أنه قال «**لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، ولا من خذلهم، حتى تقوم الساعة**».

وفى تفسير الحديث يقول ابن تيمية (فإن هذه الأمة - ولله الحمد والمنّة - لم يزل فيها طائفة ظاهرة بالعلم والدين والسيف لم يصبها ما أصاب مَنْ قبلها من بنى إسرائيل وغيرهم، حيث كانوا مقهورين مع الأعداء، بل إن غُلبتْ طائفة فى قطر من الأرض، كان فى القطر الآخر أمة ظاهرة منصورة، ولم يسلّط على مجموعها عدوًا من غيرهم، ولكن وقع بينهم اختلاف وفتن)(1).

ونعود ننادى ببعث (الروح) فى اقتراحات الدكتور السنهورى - يرحمه الله - وإحياء لعلاج الأمة من أمراض الانقسام والتشرذم وإنقاذها من (فخ) العولمة، فقد اقترح - عقب إلغاء الخلافة - تكوين «**عصبة أمم شرقية تتمشّى مع الاتجاه العالمى نحو التكتل والتجمع**»(2).

وكانت دعوته أثناء انقسام العالم حينذاك إلى كتلتين: الاتحاد السوفيتى والولايات الأمريكية، وأصبحت الآن أكثر ضرورة وإلحاحًا فى عصر (العولمة) التى تريد التهام العالم.

وفى النهاية، بعد أن طوّفنا - سريعًا - حول مأساة إلغاء الخلافة، فسنقف لنتأمل نتائج الحدث واستخلاص الدرس والمغزى، لأن الإسهام فى بحثه من جوانبه الدينية والحضارية، يقتحم بنا مجال الدراسة المقارنة بين المشروع الإسلامى

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، جـ٤ ص ١٤٦، مطبعة المدنى بمصر- بدون تاريخ.

(2) مقدمة كتاب (أصول الحكم فى الإسلام) بقلم د. توفيق الشاوى (مكتبة الأسرة سنة ١٩٩٨م) وسنعود لعرضه تفصيلاً بالفصل الثامن، ويُنظر كتابنا (حضارة العصر: الوجه الآخر) دار الدعوة بالإسكندرية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

الحضارى، والمشروع التغريبى التنويرى، ويغلّب الأول على الثانى، إذ يوفر استقراء النتائج المستخلصة مما حدث لأمتنا فى السبعين سنة الماضية - الجهد فى الحوار الدائر بين طرفى النزاع، لأنه تجلى فى **الواقع المعاش** والحقائق الواضحة وقدّم الدليل التجريبى المستخلص مما حدث بالفعل، وعلى رأسها استعمار فلسطين، وتقهقر الأمة فى كافة المجالات أمام طغيان الغرب.

ففى المقابل، أى بالمقارنة بما حدث بالغرب، يرى الدكتور جلال أمين رؤية الحدود التى قيدت **التطبيق الواقعى** (لمبادئ التنوير النظرية التى رفعت قبل قرنين من الزمان . . . (أى) ما فعلته النازية والفاشية بالحرية، واحتياج الديمقراطية الغربية لإشعال حرب عالمية ثانية أفدح ثمنًا من الحرب الأولى، ومغزى إلقاء قنبلتين ذريتين على اليابان دون وجود حاجة عسكرية إلى ذلك، وما فعلته الستالينية بالحرية والديمقراطية وتفسيرها الخاص للعلوم الاجتماعية، وما ألقته المكارثية من ضوء على مدى استعداد الغرب الحقيقى للتسامح مع الرأى المخالف . . الخ)[(١)].

ويرى الدكتور جلال أمين طريق الخلاص بتخليص مفهوم التنوير مما دسّ فيه، (وإعطائه المضامين التى تتفتق عنها أذهاننا **نحن**، لمواجهة المشكلات التى نقوم **نحن** بتشخيصها وصولاً لأهداف نقوم **نحن** بتحديدها)[(٢)].

وهذا حق، لأن المضىّ فى المشروع التغريبى - بعد الفشل المروّع الذى عانت منه الأمة عقب سقوط الخلافة، وتحوّل مسارها بقيادة أتاتورك ومقلدّيه - سيسهم فى المزيد من تبديد طاقات الأمّة وجهودها فى ميادين الاقتصاد والسياسة والتعليم والثقافة والتربية والقوى العسكرية، لأن هذا المشروع ليس نابعًا من تراثنا، ولا يمثل تواصلاً لتاريخنا الحضارى، فضلاً عن تآكل معالم هويتنا أمام زحف سرطان العولمة الثقافية، وقبل هذا وبعده تأجيل حل نكبة فلسطين كما أسلفنا.

---

(١) ص ٥٢ من كتابه (التنوير الزائف) سلسلة اقرأ - دار المعارف [٦٤٠] سنة ١٩٩٩م.
(٢) نفسه ص ٥٨.

دراسة الخلافة الإسلامية بمنهج التفسير التاريخى[1]

إذا التزمنا بمنهج الدراسة التحليلية النقدية لتاريخ الخلافة الإسلامية وتقييم المشروع العلمانى الذى تبناه أتاتورك، فإنه ينبغى:

أولاً: الالتزام بمنهج التفسير الإسلامى للتاريخ، حيث تتشكل أحداثه وتمضى حركته وفق قاعدتى:

(أ) المد والجزر:

إن المد والجزر فى تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر فى الإيمان وقوة معنوياتهم التى تنبثق من الدين [2].

(ب) حقيقة الدفع بين أهل الحق وأهل الباطل:

قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٥١] أى لولا أن الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا.. كما قال تعالى: ﴿ **وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا** ﴾ [الحج:] [3].

ومثل هذه النظرة تحذرنا، علميًا وإسلاميًا، من اقتفاء أثر كتابات المستشرقين الذين نظروا إلى الخلافة نظرة حاقدة متحيزة، سببها ما ورثوه من آبائهم وأجدادهم عن الدور التى لعبته هذه الخلافة فى تاريخ أوروبا، فقد كانت جيوشها بين كر وفرّ حتى طرقت أبواب «فيينا» إلى جانب خطأ وضع الخلافة فى مصاف الدول الاستعمارية وتشبيهها بها.

---

(١) يسرنا التنويه بالموسوعة التى أصدرها الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الشناوى تحت عنوان «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها»، فى ثلاثة أجزاء - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٤.

(٢) أبو الحسن الندوى: المد والجزر فى تاريخ الإسلام ص ٩٢ - الشركة المتحدة بيروت - دمشق دار العلم ١٣٩١ هـ - ١٩٧١م.

(٣) تفسير ابن كثير ج ١، ص ٣٠٤ دار الفكر - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

ولعلاج مساوئ هذه النظرة: **على الباحث أن يتحرر من نظريات المستشرقين وآرائهم، لأنهم مهما زعموا من حيدة فى البحث فإن بصمات الحقد والعداء لابد وأن يظهر أثرها فى مؤلفاتهم.**

على الباحث إذن البدء فى **التصور الإسلامى للخلافة كنظام للحكم ورابطة دينية وسياسية وحّدت المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم،** فى إطار واحد، فأوجدت روح التضامن بينهم، وميزتهم (كأمة إسلامية) بصرف النظر عن تضارب المصالح أو ظهور الاختلافات التى لابد منها بين عناصر الأمة.

والدراسة طبقًا لهذا المنهج تقتضى بحث ما آلت إليه الخلافة العباسية بعد انحلال رابطتها على أثر سقوط بغداد عام ٦٥٦هـ، مع استمرارها فى شكل ولايات متناثرة - حافظت على اسم الخلافة - ثم قيامها مرة أخرى على أسس قوية بواسطة الأتراك العثمانيين الذين قاموا بفتح القسطنطينية - العاصمة الشرقية للدولة الرومانية - بواسطة محمد الفاتح. ولا ينبغى أيضًا إغفال الدور الكبير الذى قام به السلطان عبدالحميد فى المحافظة على الخلافة فى وجه أعدائها.

يقول الدكتور الريس رحمه الله: «إن تاريخ الخلافة الإسلامية فى الدول التى تفرعت عنها كانت سلسلة من أمجاد، وحلقات من انتصارات، ففى عهودها حدثت المواقع المجيدة: فى اليرموك والقادسية ونهاوند وأجنادين وبابليون والقيروان وغيرها، ثم مواقع حطين وعين جالوت والمنصورة وأمثالها. فليت لنا اليوم جزءاً من قوة أو أمجاد الخلافة الإسلامية والدول الإسلامية التى كانت مرتبطة بها أو مماثلة لها» (١).

ويحدثنا التاريخ بأن الخلفاء أو السلاطين العثمانيين الأوائل أبلوا بلاءً حسنًا فى رفع شأن دولتهم وفى نصرة الإسلام ونشر لوائه **وظلت الخلافة مزدهرة ومؤثرة فى سياسة العالم فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، فكانت الدولة العثمانية - وهى تمثل الإسلام - أقوى الدول فى أوروبا كلها، وربما العالم)** (٢).

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس: الإسلام والخلافة فى العصر الحديث (نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) ص٢٨٤. منشورات العصر الحديث ١٣٩٣هـ-١٩٧٣م.

(٢) نفسه ص ٤٠ - ٤١.

أما الانهيار، فقد ظهرت بوادره فى القرن الأخير وقبل إعلان سقوطها بواسطة حركة الانقلاب العسكرى بواسطة أعضاء جمعية (الاتحاد والترقى)، حيث أسهم أعضاء هذه الجمعية بالقسط الوافر فى إنهائها، وثبت أنهم لا ينتمون إلى السلالة التركية العثمانية ولكنهم خليط من أجناس وأديان وقوميات مختلفة، وقاموا بحركة الانقلاب ضد السلطان عبدالحميد بسبب رفضه السماح لليهود بشراء أراضى فلسطين [1].

وفى هذا الصدد كتب السيد رشيد رضا فى مجلة (المنار) آنذاك يقول: «وإن **ملاحدة الترك هم الذين يبثون الدعوة إلى تشويه الدولة العثمانية ويبثون الدعوة إلى الإلحاد ويحرضون الزنادقة والمرتابين على ترك الإسلام واحتقار تشريعه وآدابه ولبس قلانس الإفرنج وإثارة الغيرة القومية والعصبية الجنسية**.. وقلما ثبت لهؤلاء الملاحدة نسب صحيح فى الشعب التركى الذى صار عريقًا فى الإسلام، بل هم أوشاب منهم الروسى والرومى والبلقانى واليهودى الأصل، وقد سلطوا على إفساد هذا الشعب بدعاية العصبية الجنسية وترجمتهم للقوانين الأوروبية ولبسهم البرنيطة وأن السواد الأعظم من الترك يمقتون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمقتون إخوانهم الاتحاديين» [2].

لذلك يقتضى البحث الاستناد إلى المصادر الإسلامية التى أُبعدت عن عمد فى الكتب المدرسية وقُدمت بدلاً منها مصادر الدوائر الاستشراقية وتلاميذها.

---

(١) والآن، وبعد نشر مذكرات السلطان عبدالحميد وظهور كثير من الوثائق التاريخية فضلاً عن واقع أحوال المسلمين بعد كسر شوكة الخلافة ومعرفة الأسرار وراء حركة إلغائها - **الآن ينبغى إنصاف هذا السلطان المفترى عليه وكتابة تاريخ الخلافة العثمانية أيام سلطنته بأمانة وصدق لمحو آثار الأكاذيب التى أحاطه بها المؤرخون الغربيون من اليهود والنصارى لدوافعهم التى لم تعد خافية.**

ولمناسبة حديثنا عن الخلافة، فإن الرجل - رحمه الله تعالى - كان بحكم موقعه يدرك تمامًا أهمية هذا النظام السياسى الإسلامى وخشية الدول الأوروبية منه: قال فى مذكراته: «**ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبًا مسلمة عديدة فى آسيا، مثل انجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله، لهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية**» . ص٦٧ من مذكرات السلطان عبدالحميد - ترجمة وتقديم د. محمد حرب عبدالحميد - دار الأنصار بالقاهرة ١٩٧٨م .

(٢) ينظر كتاب الأستاذ أنور الجندى (تاريخ الصحافة الإسلامية) الجزء الأول، المنار ص ١٤٩، دار الأنصار بالقاهرة سنة ١٩٨٣م .

ونقصد بالمصادر الإسلامية، الكتب التى ألفها العلماء المسلمون المعروفون بالصدق والنزاهة العلمية، والذين نذروا أنفسهم لخدمة الحق وتصوير التاريخ بمحاسنه ومساوئه [1].

وينظر نقّاد الخلافة العثمانية من زاوية واحدة ويتجاهلون العوامل الآتية:

١- روح العداء الصليبى واليهودى نحو الخلافة الذى ظل حيًا لم يخمد، وظهر فى أشكال المعارك العسكرية الضارية والغزو الثقافى المتواصل.

والقارئ لكتاب «الدولة العلية» كمثال يلاحظ أن الدول الأوروبية كثيرًا ما فرضت الحروب على الدولة العثمانية فرضًا، وكان معظم السلاطين يتفادون الحرب لاسيما السلطان عبدالحميد.

٢- التفوق العسكرى الغربى الذى أخذ يعمل لتحقيقه منذ صدمة الغرب لهزيمته فى الحروب الصليبية، فعاد بروح الانتقام والتصميم، فطوق العالم الإسلامى بالسيطرة على المحيطات (انجلترا والبرتغال).

٣- لم يحقق أتاتورك أغراضه **إلا بكسر إرادة الجماهير المسلمة التى خدعها فى البداية ثم تنمر عليها،** فقمع ثورات المسلمين وعلمائهم بأشد أنواع القوة والقسوة، وتاريخ حركة الجهاد الإسلامية بقيادة الشيخ سعيد النورسى تشهد بذلك.

وقام أتاتورك بقمع الحركات الإسلامية الشعبية بالقوات العسكرية والمحاكم الثورية

---

(١) ونقصد مؤلفات أمثال: الأساتذة الأفاضل: مصطفى كامل بكتاب (المسألة الشرقية)، محمد فريد (تاريخ الدولة العلية)، مصطفى صبرى (النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين - الجزء الرابع)، د. محمد ضياء الدين الريس (الإسلام والخلافة فى العصر الحديث،الشرق الأوسط فى التاريخ الحديث).

الموسوعات التاريخية للأستاذ أنور الجندى ومقالاته وكتبه عن الخلافة العثمانية، موسوعة الدكتور عبدالعزيز الشناوى (الدولة العثمانية - دولة إسلامية مفترى عليها) فى ثلاثة أجزاء.

وما كتب عن الخلافة العثمانية أمثال الأساتذة: د. فهمى الشناوى (لاسيما بمجلة المختار الإسلامى)، والأستاذ سعيد الأفغانى، والأستاذ فتحى رضوان، والشيخ رشيد رضا، والأمير شكيب أرسلان. وينظر أيضاً مذكرات السلطان عبدالحميد التى نشرت حديثًا وصححت كثيراً من المفاهيم بعد أن فضحت التاريخ المزور فى العصر الحديث.

الظالمة التى لا تحمل من حقيقة (المحاكم) إلا الاسم، لأنها كانت تنفذ أحكامًا صدرت قبل انعقادها!!

٤- هذه العوامل وغيرها ينبغى أن تحفزنا إلى دراسة ذلك كله بمنهج التفسير التاريخى. وبالنظر إلى أحداث التاريخ بمنظار (التدبر القرآنى) فإننا نرى استمرار تدافع الحق والباطل، ولكى نمسك بخيوط التدافع فى عصرنا الحاضر، لابد أن نبدأ بالغزو الغربى وموجات الاصطدام بالشرق الإسلامى. **وأيضًا فإن (النكبة) التى سببها أتاتورك مازالت تتفجر لتهدم ولا تبنى.**

٥- البحث عن المخطوطات المدفونة فى المكتبات الشرقية والمنهوبة فى المكتبات الغربية واتخاذها كمصادر لأبحاث جديدة بدلاً من الحلقات المفرغة الدائرة فى فلك نفس المصادر المعتادة والتى روجها أعداء الخلافة العثمانية [١].

****

---

(١) ومما يجدر ذكره بهذا الصدد أن فى استانبول وهى العاصمة التى لم يتم غزوها وبالتالى لم تتم سرقة مخطوطاتها ووثائقها وآثارها من قبل المستعمرين.. **ففى تركيا حوالى مليون مخطوطة ومائة مليون وثيقة!!** ينظر استطلاع سليمان الشيخ عن (إعادة كتابة التاريخ الإسلامى فى مركز الأبحاث باستانبول) بمجلة العربى العدد ٣١١ أكتوبر سنة ١٩٨٤.

دور الغرب فى تنفيذ المشروع العلمانى الثورى المعاصر:

لا يمكن إغفال العوامل الآتية فى أى بحث لمعرفة ما وراء المشروع العلمانى الثورى المعاصر:

ظلت الهجمات متلاحقة من الدول الأوروبية بما تحمله من ضغائن للإسلام ودولته الممثلة فى الخلافة العثمانية حيث لم تفتر المعارك العسكرية فى ميادين القتال[1]، وإثارة الفتن والقلاقل فى داخل البلاد، وإذا حللنا عوامل الحركة العدائية نجد أكثرها وضوحًا فى التعصب الصليبى والعداء اليهودى.

أما عن الأول، فإن الأمير شكيب أرسلان يطالعنا بمقاله المسهب فى كتاب (حاضر العالم الإسلامى) على خفايا مذهلة بعنوان «**التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى؟**» فقد لخّص فيه مضمون كتاب (المسيو دجو فارا) [**مائة مشروع لتقسيم تركيا**].. أجل مائة مشروع تقدم بها أوروبيون من أجناس مختلفة ومناصب ومهن متباينة، منهم الأمراء والعسكريون والملوك ورجال الكنيسة. ومما يثير الدهشة أن منهم الفيلسوف ليبنتز صاحب المشروع الرابع والأربعين عام ١٦٧٢م، وقد أعده بغرض محو تركيا، وظل يحرره أربع سنوات وقدمه باللغة اللاتينية إلى لويس الرابع عشر ملك فرنسا، وجاء ضمن اقتراحاته «أنه إذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم إلى البوار» [2].

والقارئ لرسالته المتضمنة مشروعه يرى فيها - كما يصفها عبدالفتاح عبدالمقصود (صورة مكتملة المعالم، واضحة الظلال جلية الأضواء، لأحلام الغرب الصليبيى التى تداعب خيال الملك الفرنسى الكبير.. يستهلها الفيلسوف فيدعو العاهل الفرنسى «مولاى: الملك المسيحى» ويختمها مثيراً لجشعه الذى يشبعه المشروع المطروح، فيقول:

[.. وإنه لمشروع ميسور التحقيق، خليق بأن يعبد الطريق تحت أقدام الفاتحين الغزاة، لاستعادة أمجاد الإسكندر الأكبر!!].

(١) يقول باول شمتز: «**تلك الخلافة التى أجهزت عليها الدول التى قادت الحروب الصليبية**» ص ٢٦ من كتاب الإسلام قوة الغد العالمية.

(٢) شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامى جـ٣، ص ٢٦٣ .

وليت الغرب اكتفى بالبلاد والعباد عقب انحلال عقد الخلافة، ولكنه طمع فى تغيير دينهم كما بينا وكما تشهد به خطط التبشير الماضية قدمًا فى أنحاء البلاد الإسلامية[1].

ولم يكتف أتاتورك بتحطيم الخلافة التى كانت تجمع شمل الأمة الإسلامية طوال نحو أربعة عشر قرنًا من الزمان فكانت - بالرغم من وهنها - فى الحقبة الأخيرة، إلا أنها كانت تربط الأمة بشكل مباشر تاريخيًا بخلافة رسول الله ﷺ وتجعل المسلمين - أينما كانوا - يعتزون بهذا الرباط الذى يجمعهم كأمة واحدة مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وأعرافهم ولغاتهم، حتى صح القول بإن الخلافة كانت [أيدولوچية الإسلام].

وتوغل بعد ذلك أتاتورك فى قلب الشعب التركى وعقله واتخذه عدوًا يحاربه بكل سلاح، قال (**انتصرت على العدو، وفتحت البلاد، هل أستطيع أن أنتصر على الشعب؟**)[2].

يقول الإمام أبو الحسن الندوى:

(إنه انتصر على الشعب حقًا، فقد جعل **الدولة علمانية**، ليس الإسلام دينها الرسمى، أحدث الفصل بين الدين والسياسة، وقرر أن الدين قضية شخصية.. وألغى المحاكم الشرعية، وقانون الشريعة الإسلامية.. ومنع التعليم الدينى.. ومنع الحجاب، وقرر السفور والتعليم المختلط، وألغى الحروف العربية وأبدلها بالحروف اللاتينية، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية، وغيّر اللباس، وألزم لبس القبعّة)[3].

---

(١) وقد أصاب شكيب أرسلان فى مقاله عن (التعصب الأوروبى أم التعصب الإسلامى) حين قال: (**إن الاستبداد المطلق، لاسيما فى الدين، هو منزع أوروبى محض ولا يقاس المسلمون بالأوروبيين فى هذا الأمر فى قليل ولا كثير**) حاضر العالم الإسلامى جـ٣ ص ٣٤١.

(٢) الذئب الأغبر، آرمسترونج نقلاً عن (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية) للإمام أبى الحسن الندوى ص ٢٦٣ تقديم وتعليق محمد عبد الرحمن عوض - دار البشير بالقاهرة سنة ١٩٩٧م.

(٣) نفسه ص ٦٣.

هذه هى مفـردات المشروع العلمانى الذى فـرضه أتاتورك بقوة الجيش على الشعب التركى، وسرت عدواه إلى باقى بلاد العرب والمسلمين.

وأصبح أتاتورك - كمـا يذكر الإمام أبو الحسن الندوى يرحـمه الله تعالى - مع الأسف (طليعة حركة التجدد، وطليعة «التغريب» وقدوة الزعمـاء «التقدميين» فى الدول والحكومـات والأقطار الإسـلامـية. . والمثـل الأعلى للقـادة والسيـاسـيين والمفكرين[1].

وقـد طاف الإمام النووى بدراسـته العـميـقة بـكتابه عن (الصـراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغـربية) بالبلاد العربية والإسلامـية التى حذت حذو أتاتورك، وسجّل تقليدها للمـشروع العلمانى التركى مع تقديرها وإعـجابها بأتاتورك بالرغم من فقره فى النبوغ العقلى والتعمق[2].

وفى كتابه الذى أجاب فيه على السـؤال (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)؟ عللّ قيام هذه البلدان بتطبـيق المشروع العلمانى إلى ضعف وعى الشعـوب العربية والإسلامية، فهى (لا تزال تلدغ من جحـر واحد ألف مرة. . وهى ضحية الذاكرة سريعة النـسيان، تنسى ماضى الزعمـاء والقادة. . وهى ضعيـفة فى الوعى الدينى والوعى الاجتماعى وأضعف فى الوعى السياسى، وذلك ما جرّ عليها ويلاً عظيمًا وشقاءً كبيرًا، وسلّط عليها القيادة الزائفة وفضحها فى كل معركة)[3].

وامتد تأثير القوميـة والعلمانية المدمّر إلى أرض فلسطين، وصبغ قضيتها بصبـغتيهما، مع أن حركات الثورة ضد الانتداب والاستعمار الصهيونى - وفى مقدمتها حركة الشيخ عز الدين القسام - اعتـبرت الانتداب الإنجليزى والاستعمار الصهيونـى (انتهاكًا لسلامة دار الإسلام، مما أفضـى إلى أن الجهاد قد أصبح فـرض عين ملزمًا للأفراد بأشـخاصهم،

---

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية للإمام النووى، ص ٦٥.

(٢) نفسه ص ٦٥.

(٣) ماذا خسـر العالم بانحطاط المسلمين؟ للإمام أبى الحسن الندوى ص ٢٥٢ - مكتـبة الإيمان بالمنصورة سنة ١٩٩٤م.

ومن ثم فقد اعتبـر هذا النضال نضالاً دينيًا صرفًا)[١]**؛ كما لعب الدين دورًا كـبيرًا خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩م**[٢].

ولكن الدكتور رودلف بيترز لاحظ بدراسته عن **عقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث، أنها لم تعد لها اليد الطولى فى الحروب مع اليهود (٤٨، ٥٦، ٦٧، ٧٣)**، وأن (الدعاية المصاحبة لهذه الحروب تُصاغ أساسًا بعبارات قومية وتدعو إلى واجب الدفاع عن الوطن وعن التضامن العربى)[٣].

أما إذا دعت الحاجة إلى ذكر الجهاد فى بعض البيانات اليوم، فهى فى رأيه (شبيهة بعملية المباركة الدينية للأسلحة، ورش المياه المقدسّة على الدبابات، التى يقوم بها الكهنة المسيحيون فى حالة الحرب، أى مجرد تعبير عن الإقرار والتصديق الدينى)[٤].

ثانيًا: لم يعد للإسلام دولته التى كانت تحميه وتذود عن أراضيه لأول مرة منذ عصر النبى ﷺ، وتقوقع المسلمون كلٌ داخل أوطانه يقيمون الشعائر من صلاة وصيام وزكاة وحج، ولكنهم يعجزون عن تقديم العون لإخوانهم فى بلاد أخرى - وربما جيرانهم - لحمايتهم من افتراس أعدائهم، كما حدث فى البوسنة والهرسك والشيشان، وأخيرًا بفلسطين عندما وقعت مجزرة (جنين).

وتحققت بانفراط عقد الخلافة المصيبة الكبرى التى حلت بدولة الإسلام لأول مرة فى تاريخه. يقول الدكتور زكى نجيب محمود بعد عرضه للحوار الذى حسمه أبو بكر الصديق رضى الله عنه حول مشروعية قتال المرتدين عن وحدة الدولة الإسلامية:

---

(١) ص ١٢٣ من كتاب (الإسلام والاستعمار) للدكتور رودلف بيترز.
ويقول مونتجمرى فى كتابه (الحرب عبر التاريخ) «أهم مميزات الجيوش الإسلامية لم تكمن فى المعدات أو التسليح أو التنظيم، بل كانت فى الروح المعنوية العالية النابعة من قوة إيمانهم بالدعوة الإسلامية نقلاً عن كتاب (عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامى، شوقى أبو خليل ص ١٩- دار الفكر - دمشق - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) نفسه ص ١٣٠.

(٣) نفسه ص ١٣١

(٤) نفسه ص ١٣١، ويقول ص ١٣٠ (أما أيدولوچية حركة التحرير الفلسطينية التى نشطت بعد تلك الفترة فهى أيدولوچية علمانية تمامًا).

[بل لعلنا لا نغالى إذا قلنا: إن وجود «دولة الخلافة» التى حماها الصحابة ودعموها بقتالهم للمرتدين - رغم طابعها المدنى - وانتفاء وصف الواجب الدينى، والفريضة الدينية، والدولة الدينية عنها - إن وجودها كان السبيل لما هو أكثر من إقامة (فريضة الزكاة الدينية) كركن من أركان الدين: إذ أنها كانت السبيل لإقامة الإسلام كله كدين.. **«فالدولة» هى التى نشرت الإسلام خارج شبه الجزيرة،** بعد أن أعادت رفع أعلامه التى طواها العرب المرتدون.. **ولولاها لتهددت الإسلام مخاطر أن يصبح مجرد نحلة من النحل التى عرفها التاريخ،** أو ديانة يقف شرف التدين بها عند قلة من الناس.. **لقد كانت هذه «الدولة» هى الأداة التى تحقق بها وعد الله سبحانه فى قرآنه الكريم ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾**[1] [الحجر: ٩].

ونرى بعد ذلك كله، وفق منهج التفسير التاريخى، المؤيد بالوقائع على أرض الواقع التى لا يصح أن تكون موضع شك إلا عند الذين فى قلوبهم زيغ، نرى **خطأ وصف الثورات بأنها تحرر من التخلف الذى يطلقه المتغربون على الحركات الإصلاحية السلفية،** ونرجح الرأى القائل بأن (السلفية هى الثورة الأصلية، لأن الثورة فى حقيقتها هى رفض الواقع لأنه غير جدير بميراث الأجداد، أما الذين يبدأون برفض أجدادهم، والتسليم بأن تاريخهم كان خطأ أو عارًا، وأن التاريخ هو قاطرة تسير دائمًا للأمام، فحاضرهم أفضل من ماضيهم لا لشىء إلا لأنه جاء بعده فى الزمن، فهم لا يثورون، وثوريتهم كاذبة، لأنها بلا أصول وبلا تاريخ تعتز به وتدعو الجماهير إلى الارتفاع لمستواه.. **فالثورة تبدأ بالاعتزاز بالتراث، وجعله قاعدة البناء الحضارى المطلوب، لا هدمه، ولا النوم تحت أنقاضه)**[2].

ننتهى من كل هذا إلى القول بأن من يرد معرفة مدى تقدّم الأمة فى الطريق الصحيح إلى النهضة - أم العكس - فليتخذ من النظرة الشاملة لواقع الأمة حين كانت فى حاجة إلى هذه النهضة الحقيقية من منابعها الأصلية على أن يتولى تنفيذها أحد الأئمة الذين تنطبق عليهم مواصفات المجدّدين[3] **السابقين فى تاريخ أمة**

---

(١) د. زكى نجيب محمود: عن الحرية أتحدث ص ٣٩ دار الشروق، نوفمبر سنة ١٩٨٦م.

(٢) ص ٩٩ من كتاب (السعوديون والحل الإسلامى) محمد جلال كشك.

(٣) يقول الأستاذ/ أحمد أمين رحمه الله:

(وكان المجددون يبعثون بحسب الحاجة إلى التجديد، فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجددًا فى القرن =

الإسلام مع حرصهم على وحدتها. فقد لقيت نظرية فصل الخلافة عن السلطة - وهى الخطوة التمهيدية قبل إلغائها - مقاومة من المعارضين للحكم العثمانى أنفسهم، إذ أنه مع التسليم بالاضطهاد الذى وقع على بعض العرب فى ظل الخلافة العثمانية، فإن الجمعيات السرية التى أسسها العرب لم يكن ضمن أغراضها إزالة الخلافة كنظام للحكم، وإنما كان من أهدافها **إصلاح مفاسدها**، وكانت الآراء التى نشأت فى هذا الصدد ترمى إمّا إلى إحلال الخلافة العربية بدل العثمانية، ويُنسب هذا الرأى إلى العرب المثقفين ثقافة إسلامية، والرأى الثانى يهدف إلى بقاء الخلافة فى آل عثمان **مع تدعيم الوحدة الإسلامية**. أما الرأى الثالث - الذى يعد غالبًا آنذاك وتتبناه قلة ضئيلة متغرّبة، فكان يرمى إلى تخليص البلاد العربية من أى شكل من أشكال الحكم الأجنبى ولو كان حكم تركيا، أو ربط البلاد العربية بنظام لا مركزى مع الدولة العليّة[1].

ومع وحدة الأمة، تأتى شريعتها الإسلامية للمحافظة على أصالتها، ومواجهة العداء الدينى الذى لم يفتر، فقد برهن أهل أوروبا (**بشتى الطرق أنهم مستمرون فى صراعهم ضد الإسلام والمسلمين**، يدّعون الرقى والحضارة والثقافة وهم أهل الأساطير والخرافات. .)[2].

وكان السلطان عبد الحميد سبّاقًا بتسجيل هذا العداء الذى لازلنا نعانيه، وقد

= الثانى لما يلى أمية، وأخلقوا وما مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحمد بن حنبل مجددًا فى القرن الثالث لما أخلق بعض بنى العباس من إلباس السُّنة اتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وقالوا كان الأشعرى مجددًا فى القرن الرابع بهذا المعنى، والغزالى مجددًا فى أواخر القرن الرابع، وأول الخامس لما بزغت نزعات الفلاسفة وزندقة الباطنية، وكان ابن حزم مجددًا فى القرن السادس لما طغت الآراء على النصوص الشرعية، وكان ابن تيمية وابن القيم مجدّدين فى آخر القرن السابع وأول الثامن لما مزقت البدع الفلسفية الكلامية والتصوفية والإلحادية تعاليم الإسلام، ثم شهر مجددون آخرون فى كل قرن، وكان تجديدهم منحصرًا فى قطر أو شعب كالشاطبى صاحب الموافقات والاعتصام بالكتاب والسُّنة بالأندلس وولى الله الدهلوى والسيد محمد صديق خان فى الهند، والمولى محمد بن بير عليا لبركوى فى الترك، ومحمد بن عبد الوهاب فى نجد والشوكانى فى اليمن).

(ص ٢٠٦، ٢٠٧ من كتاب يوم الإسلام) للأستاذ أحمد أمين، دار الكتاب العربى، بيروت ١٩٥٢م.

(١) دكتور محمد بديع شريف: الصراع بين الموالى والعرب ص ٢٠٣ - ٢٠٤، ١٣٧٤هـ - ١٩٥٤م. ويُنظر كتاب (نظام الخلافة فى الفكر الإسلامى) د. مصطفى حلمى، ط دار الدعوة بالإسكندرية.

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد ص ١٨٢.

صدقت فراسته فى استمراره، وحدث ما كان يتوقعه. يقول الأستاذ محمد سيد أحمد. . .

(. . . ومع سقوط الأيدولوجيات العلمانية، ولا أعنى بها فقط الأيدولوجية الشيوعية، أو الأيدولوجية الليبرالية الرأسمالية التى اهتزت صورتها هى الأخرى، بل - فيما يخص **«النظام العربى بالذات - الأبعاد العلمانية لأيدولوجية «القومية العربية»** تعددت الشواهد التى تؤذن بـ «صحوة إسلامية» أو بتعاظم **«الإسلام السياسى» كبديل «للقومية العربية»** على اتساع الأرض العربية، وبأن وقوع مواجهة بين عالم ينسب نفسه إلى قيم الحضارة الإسلامية من جانب، وآخر إلى قيم الحضارة المسيحية اليهودية من الجانب الآخر، احتمال وارد الحدوث بصورة متعاظمة. الأمر الكفيل بإطلاق صيغ مستحدثة **للحروب الصليبية على مشارف الألفية الجديدة**)[1].

*****

(١) ص ١١٠ من كتاب (سلام . . أم سراب)؟ محمد سيد أحمد، دار الشروق ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

الفصل السادس

نكبة فلسطين بين حربى ٤٨ و٦٧

سنبدأ بسرد أخبار الحرب عام ١٩٤٨ بإجمال، ثم نحاول عرض آراء بعض الكتاب والباحثين الذين قاموا بالتحليل والتعليل للهزائم التى مُنيت بها القوات العربية، منها ما هى علل داخلية كانقسام القادة وافتقاد الهدف والغاية واتهام البعض بالخيانة، ومنها ما هو خارجي كفرض الهدنة بتدخل هيئة الأمم لإيقاف القتال، وكانت الجيوش العربية - مع كل ما كانت تعانيه من نقص فى الأسلحة والذخائر - على وشك تحقيق الانتصار!

واتخذ قادة العرب قرار الحرب بسبب رفضهم لقرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود فى ١٩٤٧م، وكان قرارا ظالمًا للغاية (فقد أعطى للفلسطينيين ٤٧٪ من الأرض وأعطى الباقى لليهود، مع أن الفلسطينيين كانوا حينئذ يملكون أكثر من ٩٢٪ من الأرض، وكانت نسبة سكان فلسطين من المسلمين والمسيحيين إلى اليهود أكثر من ثلاثة أضعاف. . وما كان اليهود ليبلغوا نسبة الثلث هذه إلا بدعم حكومة الانتداب البريطانى منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى ومنذ صدور وعد بلفور فى ١٩١٧ بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين)[١].

عندما أعلن اليهود فى مساء الخامس عشر من مايو سنة ١٩٤٨ إنشاء دولة إسرائيل، كانت القوات المسلحة المصرية والدول العربية الأخرى قد سارت نحو أرض فلسطين لتحريرها.

(وهللت الشعوب العربية لهذه الخطوة وأخذت البلاغات الرسمية المصرية من يومئذ تروى تقدم الجيش المصرى فى بلاد بيت المقدس فيقرأها الناس فى الصحف ويسمعونها فى الإذاعة فلا يخامرهم ريب إزاء لهجتها الحاسمة فى أن القضاء لا محالة نافذ فى (إسرائيل المزعومة)[٢].

وظل هذا الوصف يتكرر لمدة طويلة تصويرًا للاستهانة بها والحط من قيمتها، وإعلانًا عن عدم الاعتراف بشرعيتها.

---

(١) ص٢٠١ من كتاب (المثقفون العرب وإسرائيل) د. جلال أمين، دار الشروق ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

(٢) ص ٢٨٥ من كتاب (مذكرات فى السياسة المصرية) د. محمد حسين هيكل جـ٢ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧م.

وبعد أسبوعين تقريبًا اقتربت الجيوش المصرية من تل أبيب، ثم تدخلت الأمم المتحدة وطلبت عقد هدنة مؤقتة لمدة ثلاثة أسابيع وأوفدت مندوبها **الكونت برنادوت السويدى** لمحاولة إيجاد حل، وقبلت - مع الأسف- الحكومات العربية الهدنة.

وكان قبول هذه الهدنة بمثابة الخطأ القاتل بإجماع الدارسين لهذا الطور من النزاع[(١)].

واستؤنف القتال بعد ثلاثة أسابيع لتعقد هدنة أخرى تلاها استئناف الحرب مرة ثالثة، وشعرت القوات العربية بعدها بأن اليهود صاروا أكثر قوة (وشعرت مصر بأن هذه الحرب موشكة أن تطول وأن القضاء على إسرائيل أصبح عسيرًا. فلما عرضت الأمم المتحدة عقد هدنة دائمة بين العرب واليهود تفاوضت مصر وعقدت هذه الهدنة الدائمة ووقعتها مع مندوب دولة إسرائيل. وكذلك فعلت الدول العربية الأخرى)[(٢)].

---

(١) يقول أمين شاكر (.. فامتثلنا للأوامر على مضض، لأن الموقف العسكرى فى الميدان كان **لصالحنا حتى صدور الأمر بوقف القتال**، ص٢١ من كتاب (أخطاء الثورة..) ويقول عميد متقاعد كامل الشرقاوى وكانت فرصة ذهبية للعصابات الصهيونية التى لا تعترف بهدنة أو أى شيء آخر، التى تقدمت لتوسيع رقعة الأراضى التى تحتلها، فتقدمت القوات اليهودية إلى أن استولت على اللد والرملة، ثم اتجهت إلى بئر سبع ومنها إلى كل صحراء النقب حتى ميناء أم الرشراش المصرى (وهو مدينة إيلات الآن) واستولت عليه، ص ٩٤ من كتاب (كيف قامت دولة إسرائيل) ط مطابع الأهرام بكورنيش النيل ١٩٩٩م.

وقيل عن الهدنة الأولى: إن هذه كانت غلطة كبيرة، ص٣٧٧ من كتاب حرب فلسطين ١٩٤٨- رؤية مصرية لواء أ.ح. د. إبراهيم شكيب- الزهراء للإعلام العربى ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

- أما عن مقتل سكرتير الأمم المتحدة الكونت برنادوت، فقد قتله اليهود بسبب ما قدمه من مقترحات جديدة لإعادة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود، واحتج اليهود على ذلك لأنهم كانوا يريدون فلسطين كاملة. ص ٩٤ من كتاب (كيف قامت إسرائيل) عميد متقاعد كامل الشرقاوى.

- ويعلل الأستاذ محمد على علوبة (الوزير السابق ورئيس الاتحاد العربى) سبب قتل برنادوت بقوله (ولما كانت اقتراحات الكونت برنادوت هى العقبة أمام اليهود لتحقيق أطماعهم فى ثروة البحر الميت، فقد حكموا عليه بالإعدام وقتلوه على الفور) ص١٦٣ من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) بقلم: محمد على علوبة وتقديم طاهر الطناحى - كتاب الهلال بالقاهرة مارس ١٩٦٤م

(٢) نفسه ص ٢٨٥.

يقول أمين شاكر (وكنت بحكم موقعى رئيسًا للإشارة والاتصالات برئاسة القوات أطلع على كثير من الأسرار المتعلقة بسير العمليات على أرض القتال وبالاتصالات السياسية بين الحكومات العربية، وبعد =

وإذا نظرنا إلى مصر - مثلاً - فإن قرار دخول حرب فلسطين كان لا صلة له بهدف محدد، أو وفق سياسة استراتيجية معلومة - بل لأسباب لا صلة لها بالحرب فى ذاتها - ويتضح ذلك من الملابسات التى صاحبت إصدار القرار، ففى البداية اتخذ النقراشى (باشا) رئيس الوزراء آنذاك موقف الرفض حتى (لا يدفع الجيش إلى حيث تكون القوات البريطانية المرابطة فى منطقة قناة السويس وراء ظهره)[1].

ولكنه غير رأيه عندما علم أن الفريق حيدر تلقى أمرًا من الملك فاروق مباشرة فأمر فرق الجيش المصرى باجتياز الحدود إلى أرض فلسطين بدون علم النقراشى أو قرار مجلس البرلمان أو مجلس الوزراء.

ويذكر الدكتور هيكل أن هذا التصرف كان مخالفًا للدستور، ومن ثم وجب على النقراشى إعلان استقالة الوزارة وبيان السبب للشعب، ولكن النقراشى (تجاهل ما حدث، وتقدم إلى البرلمان وكأن الأمور تسير فى مجراها الدستورى. وعرض عليه معلومات غير دقيقة أدت إلى موافقة كل من المجلسين (النواب والشيوخ) على إعلان الحرب على إسرائيل)[2].

ويعلل الدكتور هيكل هذا التحول المباغت للنقراشى - كما بينا عند عرض موقفه العام - بمحاولته تغطية الملك إلى جانب اعتبارات أخرى بسبب تطور أمور بالداخل تدعو للقلق كإضراب الشرطة، واضطرار حيدر إلى إنزال قوات الجيش لحفظ الأمن بالقاهرة والإسكندرية.

= قرار الأمم المتحدة بوقف القتال فى نوفمبر ٤٨ اتصل بنا الدكتور فوزى الذى كان يرأس وفد مصر فى الأمم المتحدة فى ذلك الوقت وحذرنا بشدة من قبول وقف إطلاق النار لأنه سيمنح اليهود فرصة كبيرة لالتقاط الأنفاس وإعادة تسليح جيوشهم أثناء توقف العمليات، ولكن أحدًا لم يستمع إلى تحذير الدكتور فوزى الذى ثبت صدقه فيما بعد.. فقد كانت القيادة العسكرية المصرية فى القاهرة غير مؤهلة لتقدير الموقف العسكرى تقديرًا سليمًا، حيث كان حيدر باشا قائدًا عامًا للجيش، بينما كان عثمان المهدى كبير الياوران والقائم بأعمال رئيس أركان حرب الجيش لا يفقه شيئًا فى الأمور العسكرية على الرغم من كثرة النياشين التى وضعها على صدره لتزين بذلته العسكرية وقد صدرت إلينا الأوامر من هؤلاء القادة بالقاهرة بوقف إطلاق النار). من كتاب (أخطاء الثورة - الوحدة مع سوريا - تأميم الصحافة، بقلم سليمان الحكيم، دار الخيال سنة ١٩٩٩م).

(١) ص ٢٧٥ من كتاب مذكرات هيكل جـ ٢.

(٢) نفسه ص ٢٨٠/ ٢٨١.

ثم يعلق فى النهاية بقوله (والالتجاء إلى الحرب لصرف الأنظار عن المشاكل الداخلية، سياسة لجأت إليها الدول الديكتاتورية مرارًا فى التاريخ القديم والحديث)(١).

فوجئت الدول العربية بالأحداث ووجدت نفسها فجأة (تحمل مسئولية قرار سياسى استراتيجى لا تعرف كيف تتصرف إزاءه).

ولم تكن لدى العرب قيادة سياسية أو عشرية تعرف الكفاية عن الحرب ومستلزماتها، بل إن معظم القيادات لم يكن لديها الأساس العلمى الذى يمكن أن تمارس منه التجربة.

أضف إلى ذلك تصور العرب أنهم أقوى من اليهود فى فلسطين، أى أكثر من أربعين مليون فى مواجهة أقل من نصف مليون.

ويقرر الأستاذ هيكل بناء على ما لديه من مستندات أن ذلك لم يكن صحيحًا بحساب أعداد القوات المحاربة بالفعل، إذ كان للعرب نحو ٣٧ ألف جندى، بينما كان للوكالة اليهودية فى فلسطين نحو ٨١ ألف مقاتل.

وكان معظم ضباط وكثير من الجنود اليهود لهم سابق خدمة أثناء الحرب.

وفيما يتعلق بالسلاح والعتاد، كان العرب يملكون ٣٠ طائرة بينما توافر للوكالة اليهودية ٧٨ طائرة(٢).

وتتفق المصادر على أن الجيوش العربية لم تتلق توجيهًا سياسيًا بشأن الأهداف المطلوب تحقيقها، بل مجرد (أوامر بالتحرك إلى أماكن داخل فلسطين)(٣).

وكان إمداد الجيوش العربية يتم إما بواسطة الإنجليز، أو استيراد الأسلحة والذخائر من متخلفات الحرب العالمية الثانية وأكثرها غير صالح للاستعمال(٤).

---

(١) نفسه ص ٢٨١.

(٢) ص ٢٧٣ من كتاب هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل) الكتاب الأول، ثم زادت أعداد القوات المحاربة إلى ٤٦,٨٠٠ عرب مقابل ٩٧,٨٠٠ مقاتل يهودى، بتصرف ص ٢٧٨/٢٧٩.

(٣) هيكل المفاوضات السرية ص ٢٧٣ الكتاب الأول.

(٤) نفسه ص ٢٧٤.

ويروى أمين شاكر تجربته بما رآه على أرض فلسطين بعد بعثة تدريبية إلى إنجلترا، أن الجيش المصرى كان يعانى عجزًا شديدًا فى الأسلحة والذخائر، وأنه كان يحارب بأسلحة بدائية تم إلغاؤها منذ زمن طويل.

ثم يستطرد قائلاً: (وقد تأكد لنا أن الإنجليز خدعونا حين شجعونا على دخول الحرب ضد اليهود فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ففتحوا لنا مخازن الجيش الإنجليزى بالقناة لنأخذ منها ما نحتاجه من أسلحة وذخائر.. ولكن عندما بدأت الحرب أغلق الإنجليز فى وجوهنا أبواب مخازن السلاح والذخيرة)[١].

ويكاد هيكل يتفق معه فى هذه الواقعة، ولكنه يعلل تشجيع الإنجليز على دخول مصر الحرب لتحويل أنظار الشعب والجيش من طلب الجلاء إلى هدف آخر فى فلسطين[٢].

وفى دراسة علمية للواء إبراهيم شكيب (حصل بها على درجة الدكتوراة)، يضيف إلى ذلك أن موقف الذخيرة فى الجيوش العربية كان خطيرًا جدًا بسبب جفاف المنابع، بينما وصلت إمدادات لليهود، علاوة على مصانعهم المحلية، كذلك امتاز اليهود فى المعارك العسكرية بأن (وضع المستعمرات اليهودية وما فيها من استحكامات قوية وإحاطتها بطرق المواصلات اليهودية الرئيسية، جعلت إمكان المناورة والتنقل بسرعة فى جانب اليهود، وساعد على ذلك الخطوط الداخلية فى الجانب اليهودى)[٣].

وحدّث عن الخلافات القيادية ولا حرج، والتى سببت الارتباك (فى العمل العسكرى العربى المشترك فى فلسطين كما حدث فى معركة القدس عندما تقاسم قيادتها ثلاثة من القادة لا اتصال بينهم).

هذا، بينما (جميع اليهود تسيطر عليها قيادة واحدة)[٤].

---

(١) أمين شاكر (أول مدير لمكتب عبد الناصر) يروى (أخطاء الثورة - الوحدة مع سوريا - تأميم الصحافة بقلم سليمان الحكيم ص ١٥ دار الخيال سنة ١٩٩٩م.

(٢) هيكل: المفاوضات ص ٢٧٤.

(٣) ص ٣٥١ من كتاب (حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ رؤية مصرية) لواء أ. ح. د. إبراهيم شكيب ط الزهراء للإعلام العربى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م يُنظر ص ١١ (المنهج..).

(٤) نفسه ص ٣٥١.

تقويم المعارك:

كان هناك رأى آخر يفضل إمداد شعب فلسطين بالسلاح للدفاع عن أرضه بدلاً من دخول الجيوش العربية، إذ يقول الشيخ محمد الصواف - رحمه الله - (وأشهد أن الشعب الفلسطينى المجاهد حينما حمل السلاح وحدة فى وجه الإنجليز واليهود والخونة من العرب فى وقت واحد كان ينتقل من نصر إلى نصر)[١].

واستمر الشعب مجاهدًا حتى طلب العرب منه الكف عن القتال مع الوعد بالمساعدة والإنقاذ، بعد أن كاد ينتصر إذ ارتفع صوت اليهود بالعويل يستنجدون بدول الاستعمار لتنقذهم. ويستطرد قائلاً (. . فدخلت الجيوش، وليتها ما دخلت) ثم يؤيد من عارض فى دخول الجيوش مفضلاً مد الشعب الفلسطينى بالمال والسلاح والمتطوعين المجاهدين من جنود الإسلام)[٢].

ومن رأى الشيخ الصواف أن الجيوش دخلت لتنفذ المؤامرة التى عجز الاستعمار عن تنفيذها، إذ كان الشعب الفلسطينى ينتقل من نصر إلى نصر، والجيش الإنجليزى يطلب الإمدادات بالرغم من جيوشه الجرارة، وسجونه ومشانقه، بينما الشعب يقف صامدًا يقدم الشهداء تلو الشهداء (وهكذا دواليك حتى تدخلنا فكبلنا الشعب الفلسطينى وأتممنا المؤامرة التى حيكت خيوطها فى لندن وواشنطن وباريس منذ خمسين سنة. .)[٣].

ويبدو - بعد نشر الوثائق المتصلة بحرب سنة ١٩٤٨ - أن هذا هو الرأى الأرجح، إذ تبين من الاطلاع على الإشارة التى تسجلها «يومية الحرب» يوم البداية المقررة للعمليات مساء ١٤ مايو (أى أمر العمليات رقم ٢١)، كما يذكر الأستاذ هيكل - أن ذلك لم يكن أمر عمليات بالمعنى الصحيح يستند على خطة كاملة أو شبه كاملة. . كما يحدث فى أى حرب تخوضها قوات متحالفة مشتركة يجمعها هدف استراتيجى واحد وخطة كاملة لتحقيقه.

ثم يقول: (والواقع أن ذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى غياب الهدف الاستراتيجى، فالدول العربية التى قررت **أن تدخل الحرب قبل أيام من بدء المعارك لم**

(١ و٢ و٣) من كتاب (نداء الإسلام)، محمد محمود الصواف ط دار العلم - عمان - ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

تكن تعرف بالضبط ماذا تريد، وكيف يمكن تحقيقه وبأية وسائل..)[1].

وليت الأمر وقف عند غياب الهدف الاستراتيجى، ولكن العمليات العسكرية فى أرض فلسطين تؤيد ما ذهب إليه الشيخ الصواف: ولا يتسع المجال لتتبعها كلها ولكن يغنينا بعض الحوادث لغرابتها.

يروى أمين شاكر أنه عندما كان فى ميدان المعركة فى فلسطين - أرسل إشارة إلى اللواء الركن نور الدين محمود قائد القوات العراقية لإخطاره بتعليمات اللواء فؤاد صادق لكى تتقدم القوات العراقية مباشرة لاحتلال **حيفا وتل أبيب** وكان رده (وصلتنا إشارتكم وسنقوم بتنفيذها فورًا).

ومضى يومان دون تنفيذ.

ولما تحرى اللواء صادق الأمر تبين أن أوامر صدرت للجيش العراقى بالانسحاب شرقًا فى اتجاه العراق (لأن نورى السعيد - بالاتفاق مع السفارة البريطانية فى بغداد - أقنعوا الملك فيصل بإقالة رئيس الوزراء مزاحم الباجهجى واعتقاله وتكليف نورى السعيد بتشكيل حكومة جديدة هى التى أصدرت أوامرها للقوات العراقية..)[2].

ومع الإخلاص التام للضباط العراقيين للقضية، فقد تمردوا على أوامر الانسحاب، فأرسل نورى السعيد قوة للقبض عليهم ومعها بعض المظليين الإنجليز وأعيدوا قسرًا إلى بغداد وأعدموا شنقًا فى ميدان الحسين ببغداد (وظلت جثثهم معلقة على المشانق لمدة أسبوع)[3].

واتضح أيضًا أن الملك عبد الله أمير شرق الأردن طلب إسناد قيادات القوات العربية له شخصيًا لأنه الأدرى بميدان القتال نظرًا للتداخل الشديد بين الأردن وفلسطين (ولقد ظهر فيما بعد أن هذا الطلب كان بإيعاز من بريطانيا)[4].

---

(١) ص ١٢٣ من كتاب (العروش والجيوش).

(٢) ص ٢٥ من كتاب (أخطاء الثورة) أمين شاكر.

(٣) نفسه ص ٢٦.

(٤) نفسه ص ١٦.

ويضيف العميد المتقاعد كامل الشرقاوى أن الملك عبد الله اجتمع سراً بالسيدة (جولدا مائير) للاتفاق على كيفية تسليم مدينتى اللد والرملة للعصابات الصهيونية[1].

ولما كانت تصب عنده المعلومات عن موقف الجيوش العربية فقد ارتكب خيانة لا تغتفر، إذ ظهر أنه كان يقوم بإيصالها أولاً بأول للإنجليز واليهود وكان يجتمع ببعض ضباطهم من وقت لآخر فتغير إسرائيل من خططها وتحركاتها العسكرية[2].

واتضح فيما بعد من الوثيقة التى نشرها الكاتب اليهودى (آفى شلايم) بدراسته عن العلاقة بين الهاشميين والحركة الصهيونية بعنوان «التواطؤ عبر الأردن» سنة ١٩٨٨. اتضح أنه كان هناك اتفاق مسبق وكامل - فور صدور قرار تقسيم فلسطين بين الهاشميين واليهود. (وكان جوهر الاتفاق أنه عندما يسرى مفعول قرار التقسيم وينتهى الانتداب البريطانى على فلسطين فإن دولة يهودية سوف تعلن على الفور فى الجزء المخصص لليهود بمقتضى قرار التقسيم. أما بالنسبة للجزء المخصص للعرب فإنه ينضم إلى شرق الأردن بحيث لا يكون هناك داع لدولة فلسطينية تنشأ بين إسرائيل وبين نهر الأردن)[3].

لم يكن إذن الشيخ الصواف متجنيًا عندما كتب مقررًا أن الجيوش العربية دخلت أرض فلسطين (**لتنفذ المؤامرة التى عجز عن تنفيذها الاستعمار بأحابيله وجيوشه، وظلمه، وغشمه، وسجونه ومعتقلاته، ومشانقه وزنزاناته**)[4].

ولا نشك أنه لإخلاصه وتقواه، كان يرى بنور البصيرة، فقد تبين من مذكرات الملك طلال خيانه أبيه..

وكتب فى مذاكراته يقول تعليلاً لرفضه وصية أبيه - الملك عبد الله - بدفنه أمام قصر بسمان وإقامة ضريح له كأضرحة أولياء الله الصالحين - يقول (غير أنى

---

(١) كيف قامت دولة إسرائيل ص ٩٣.. وقد قام أحد الشباب العرب بإطلاق الرصاص عليه فأرداه قتيلاً فى عام ١٩٥٠م.

(٢) أمين شاكر (أخطاء الثورة) ص ٢٠.

(٣) ص ٣١ من كتاب (العروش والجيوش)، محمد حسنين هيكل.

(٤) نداء الإسلام ص ١٧٠.

رفضت تنفيذ الوصية، لأن الملك عبد الله لم يقم طوال حياته، بأى عمل صالح - بل العكس، كان يتـآمر على بلاده، وعلى بلاد العرب كلها - وكـان ينفذ أى أمر يصدر إليه من بريطانيا، بل إنه كان يتعاون مع اليهود إرضاًء لبريطانيا)[١].

وفى صفحة أخرى من صفحات مذكراته يقول بالحرف الواحد «لقد كان والدى - عبد الله - سببًا فى إيجاد شوكة فى جسم الأمة العربية»[٢]!

وبعـد وحدة مـصر وسـوريا، أرسل الملك طلال رسـالة مطولة إلى ابنه الملك حسين قال فيها:

(إن بلاد العرب كانت قبل الحرب العالمية الأولى «يقـصد أيام الخلافة العثمانية» تشكل وحـدة قـوية، ثم عمـد الاسـتعـمـار إلى تقـسيـمـها إلى دول وإمـارات ومحميات).

ثم علل بمن يحول دون تحقيق الوحدة العربية الشاملة، أى الأسرة الهاشمية فى العراق والأردن[٣].

خلاصة القول: (دخلت الدول العربـية بجيـوشها إلى فلسطـين فى ظل سحب متكاثـفة من **التآمر والخديعة**، وفى ظل حكومـات عربيـة **تخضع للنـفوذ الأجنبى** راضية، أو تخـضع له كارهة، ولكنها لا تستطيع فى الحـالتين، أن تستقل عنه، أو تنجو من أثره، وكانت **الأمم المتحدة ترى هذا وتباركه، لأنها هى فى ذاتها** لم تكن بعد هيـئـة خـالصـة للسـلام وحـفظ الأمن، وإنما كـان حلبـة من حلبـات الصـراع الدولى)[٤].

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب:

---

(١) مذكرات الملك طلال (شاهد على خيانة الأسرة الهـاشمية) إعداد: ممدوح رضا ص ٢٤٣ الزهراء للإعلام العربى - ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

(٢) ص ٣٥.

(٣) مذكرات الملك طلال ص ٢٤٤ وقد اصطدام أيام مدة حكمه القصيرة بالسفير البريطانى الذى صرح له بأن (حكم الأردن أمر صـعب للغاية، ومن الضـرورى، أن يستند حكام الأردن إلى دولة قـوية، تؤمن لهم حكمهم، وتدعمة) ص ١٧٣ ووصف ابنه الملك حسين بالابن العاق ص ٢٣٣.

(٤) ص ٥٠٧ من كتاب (مع الإنسان فى الحرب والسلام)، فتحى رضوان، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٤م.

(إن العرب منذ عـام ١٩٤٨ حتى اليوم - أى عام ١٩٧١ - عانوا مـا عانوا من ضعـف القيـادة العسكرية ومن ضـعف الاتفاقـيات، والمؤتمرات العـسكرية، ومن النكوص عن تطبيـقها بالرغم من ضعفـها، إن قيادتهم الهزيلة لـم تستطع أن تعد جيوشهم للحـرب، ولم تستطع قيادتها فى الحرب، فحلت بالعرب نـكسة قاصمة للظهر فى حرب سنة ١٩٦٧).

ثم يستطرد واضعًا شـروط النصر العسكرى فيقول: (والقيـادات العسكرية الحقة هى التى تغير الموقف العسكرى للعرب من حال إلى حال، وهى التى تقود العرب إلى النصر، وهى التى تجمع صفوف الجيوش الـعربية فى جيش واحد يعمل لهدف واحد تحت قيادة واحدة)(١).

ولعل هذا تحقق جـزئيًا فى حرب سنة ١٩٧٣، وكـان النصر بقدر الاستـعداد. والله أعلم.

وللقارئ بعض مقتطفات من (الوثائق السرية) التى نشرها هيكل:

١ - كان ضغط الشعوب العربية على حكوماتها هائلاً..

.. كانت الوكالة اليهودية قد تحـولت بالفعل إلى حكومة، وكان لهذه الوكالة جيش مـتمثل فى قـوات «الهاجاناه».. وكـان جيشهـا أكبر من كل توقـعات العرب وحتى خيالاتهم(٢).

.. وفى مقـابل ذلك فإن شعـب فلسطين مكشوف ينتظر المدد العـربى. وقد وصلت إلى أرضه بالفعل مجمـوعات من قوات المتطوعين العرب: من سوريا والعراق ومـصر.. لكن قوات المتطوعين على بسالتـها - وخصوصًـا القوات المصرية بقيادة الأميرالاى «أحمـد عبد العزيز» - لم تكن فى وضع يسمح لها بالوقـوف أمـام قـوات الهـاجـاناه التى كـانـت على وشك أن تتـحـول إلى جيش(٣)..

---

(١) ص ١٨١/١٨٢ من كتاب (الأيام الحاسمة قبل معركة المصير وبعدها) للواء الركن محمود شيت خطاب، دار الفكر ط ٣ يناير سنة ١٩٧١م بيروت.

(٢) الوثائق السرية ص ٢٤٠.

(٣) نفسه ص ٢٩٤.

٢ - إن الملك «عبد الله» كان لديه واحد من أقوى الجيوش العربية. . فالفيلق العربى الذى أنشأه الإنجليز وتولوا كل المراكز الحساسة فى قيادته، ووضعوا على رأسه قائده الشهير (جلوب) باشا. .

. . إن معظم الدول العربية كانت تشك فى نوايا الملك «عبد الله» وتتصور أن هدفه هو ضم فلسطين العربية إلى مملكته[1].

٣ - وصلت إلى عمان (جولدا مائير) وكانت متخفية فى زى رجل بدوى لموعد مرتب مع الملك «عبد الله». . قبل أن تقترب الجيوش العربية من حدود فلسطين.

. . وكان اجتماعها هذا تكملة لاجتماع غير حاسم بين الملك وبين موشى شرتوك[2].

٤ - وصف الملك عبد الله الجامعة العربية لـ (إلياهو ساسون): الجامعة ليست جامعة وقراراتها ليست قرارات.

٥ - الفيلق العربى بالأردن. ميزانية الأردن كلها ٧٥٠ ألف جنيه، لكن ميزانية الفيلق العربى مليونان ونصف المليون جنيه، والإنجليز هم الذى يمولونه[3].

سجلت المؤلفات التى صورت معارك حرب سنة ١٩٤٨ كثيرًا من صور البطولات التى ظهرت فى صفوف المتطوعين من الشعوب العربية وحاربت جنبًا بجنب مع الجيوش، ونخص بالذكر أولئك الذين **قادهم البكباشى أحمد عبد العزيز الذى كانت له مكانة خاصة فى قلوبهم (وكان لندائه على المؤمنين تأثير لا يعادله أوامر أى قيادات أخرى)**[4].

---

(١) نفسه ص ٢٥٣.

(٢) نفسه ص ٢٥٦.

(٣) نفسه ص ٢٦٤.

(٤) ص ٣٣ من كتاب (لعبة الأمم وعبد الناصر)، محمد الطويل ط المكتب المصرى الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

وكان أحمد عبد العزيز قد أعد (ما يصل إلى ٢٠ ألف من متطوعى الإخوان المسلمين والفلسطينيين من مدينة الخليل وبيت لحم وصور باهر والقدس العربية ولديهم أسلحتهم وذخيرتهم بالإضافة إلى متطوعين من بئر سبع بالنقب)[١].

وبينما كان أحمد عبد العزيز فى طريقة مسرعًا لإقناع القيادة المصرية لتأجيل قرار قبول الهدنة ولو لمدة ثمانى وأربعين ساعة ليستولى فيها على القدس الإسرائيلية عاجلته رصاصة قاتلة، وعلى أثرها (انصرف المتطوعون وانصرفت معهم آمال الأمة العربية فى تثبيت أقدامها على أرضها)[٢].

وسجل الشيخ محمد الغزالى هذه الفترة من حياته إلى خوض مجاهدى الإخوان المسلمين الحرب لتحرير فلسطين فكانت صدمة هائلة (ولم يكن بد من تدخل أمريكا وروسيا ودول أوربا، لتدارك المصير المحتوم الذى سيقهر إسرائيل من أساسها إذا استمرت دفقات الإيمان فى طريقها المنظور)[٣].

فكانت الهدنة الأولى التى فرضها النقراشى على حكومات العرب.

(ويحدثنا صديق حدثه ممثل اليمن فى ذلك المؤتمر - أيا منذر قائلاً: لقد أعلن النقراشى رغبة مصر فى إعلان الهدنة... وحاول أكثر الأعضاء مناقشة تلك الرغبة الخطرة على ضوء منطق الأحداث، فرفض النقراشى الدخول فى أى مناقشة، وصرح بأن مصر قررت الانسحاب من المعركة منفردة إذا أصرت الحكومات العربية على متابعة الحرب.. وبذلك أكره الجميع على قبول العرض الذى أضاع الفرصة على كل عمل صحيح لمصلحة فلسطين)[٤].

أما فى سوريا، فقد كانت خطب مصطفى السباعى تحرك الهمم وكذلك قاد كتائب الجهاد فى فلسطين، وله موقفه (عقيب الهدنة الأولى، وقد عاد من ساحة المعركة..).

---

(١) ص ٣٣ من كتاب (لعبة الأمم وعبد الناصر)، محمد الطويل ط المكتب المصرى الحديث بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

(٢) وهذا ما يرجحه مؤلف الكتاب (من ص ٣٢ إلى ص٣٤).

(٣) ص ٢٦١ من كتاب (علماء ومفكرون عرفتهم) محمد المجذوب ط دار النفائس ١٣٩٥هـ - ١٩٧٧م.

(٤) نفسه ص ٢٦٢.

وهجر سوريا صفوة من أبنائها (هجروا مدارسهم وجامعاتهم ومتاجرهم ووظائفهم للذياد عن وطن الإسلام، الذى زرعه صحابة نبيهم ﷺ بجماجمهم وأشلائهم ودمائهم. . .).

وأنذر الناس بالخطر (الذى تهيئه الخيانات وراء خطوط النار، ويهيب بالشعوب العربية أن يكونوا حذرين وأن ينهضوا بكل قواهم لإكراه حكوماتهم على تصحيح موقفها بإزاء المعركة)[١].

أما بطولات الشعب الفلسطينى نفسه، فقد تضيق صفحات هذا الكتاب عن تسجيلها، بينما نفخر بآخرها - ونعنى الانتفاضة الثانية - التى أفقدت إسرائيل صوابها وستكون بعون الله المسمار الأخير فى نعشها، وهى فى الحقيقة استمرار لثورات هذا الشعب منذ أن تنبه إلى ما يُراد به منذ الاستعمار الإنجليزى، ونخص بالذكر أحد قادته الكبار الذى تعرّض للابتلاءات الشديدة فصمد وهو الشيخ **أمين الحسينى** مفتى فلسطين.

فقد كان القائد الفذ والرجل الصلب الذى استعصى على الوعد والوعيد والترغيب والتهديد، ولم يتنازل قيد شعرة عن حقوق المسلمين ومقدّساتهم فى فلسطين ولم يفرط بشبر من أرض المسلمين، ولا باع الأرض والعرض بثمن بخس كما يفعل المنهزمون والمستسلمون وعبيد الدينار والكرسى من الأذناب والعملاء وأشباه الرجال من الأقزام المهازيل والدمى المتحركة وأحجار الشطرنج، ولم يهب اليهود رجلاً كما هابوه ولم يكرهوا أحدًا كما كرهوه ولم يحاربوا أحدًا كما حاربوه، كما هللت بريطانيا لموته (فى ٤/ ٧/ ١٩٧٤م) وصدّرت جريدة التايمز البريطانية مقالها الذى عقّبت فيه على وفاة الحاج أمين الحسينى بهذه الكلمات: «مات عدو الصهيونية والإمبراطورية البريطانية»)[٢].

ويتضّح من هذا المشهد المزدوج- أى البطولة من طرف والنكوص من طرف آخر

---

(١) كتاب (علماء ومفكرون عرفتهم)، محمد المجذوب، دار النفائس - بيروت - ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(٢) ص ١٤٢ من كتاب (من أعلام الحركة والدعوة الإسلامية المعاصرة) تأليف المستشار عبد الله العقيل - مكتبة المنار الإسلامية - الكويت، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

- أن الأمة - ممثلة فى زعمائهـا المخلصين وشبابها المجاهد - قامت بواجبها خير قيام، وبذلت قصارى جهدها - كذلك يتضح الانفصام بين الأمة وبين الحكومات، فمنها من تخاذل ومنها من خان!

وأترك الزعيم الوطنى الشهيد **محمد على علوبة** ليتحدَّث فى **الصفحات التالية** عن حرب فلسطين عام ٤٨ ومآسيها والأشخاص الذين لعبوا أدوار الخيانة فيها، والأسباب الكثيرة للنكبة التى جمعها فى **أحد عشر سببًا**:

حرب فلسطين [تحليل وتعليل محمد على علوبة]:

[قال: استفحل شأن الصهيونية فى فلسطين، واعتدوا على حقوق العرب وأمنهم وسلامتهم . . فدفع هؤلاء العدوان بالقوة، وقررت الحكومات العربية الوقوف بجانب الفلسطينيين فى الذود عن حريتهم، وفى حمايتهم من طغيان الصهيونية، التى تريد طرد هذا الشعب العربى من دياره التى سكنها وحماها منذ آلاف السنين.

وقضت بعض الظروف والملابسات، أن تعين الحكومات العربية **الملك عبد الله** قائدًا أعلى للجيوش العربية . .

وأود أن أنبه إلى أن نكبة فلسطين كانت لأسباب وعوامل كثيرة، لاكها الناس فى الأندية وسطرتها الصحف فى أخبارها، أهمها:

أولاً: تواطؤ بعض الدول - وعلى رأسها انجلترا وأمريكا - للقضاء على فلسطين وإعطائها لليهود، ومساعدتهم بالمال والسلاح والذخيرة، وهذا العمل تقع مسئوليته على تلك الدول، وخاصة انجلترا، التى عبثت بوصايتها على فلسطين، ثم أمريكا التى ساعدت اليهود بالمال والسلاح.

ثانيًا: ما قام فى الأذهان من أن الدول العربية كانت فى سبات عميق، ولم تكن مستعدة لخوض غمار هذه الحرب والدفاع عن فلسطين.

ثالثًا: ما عُرف من خيانات فى شراء أسلحة فاسدة، أوقعت البلاد العربية فى ورطة كبرى.

رابعًا: اختيار الملك عبد الله قائدًا أعلى للجيوش العربية . . واعتقادى أن هذا **الاختيار كان أكبر نكبة على فلسطين، وكان خطأ جسيمًا لا يغتفر وقعت فيه الحكومات العربية** . . لا لأن الملك عبد الله أساء إلى الوكالة التى أُعطيت له، **وإنما لأن الأردن كان محتلاً بالإنجليز، وكان قائد الجيش فيه «جلوب» الإنجليزى .. وما كان فى مكنة الملك عبد الله أن يعارض تصرفات هذا القائد وانجلترا تحتل بلاده وتساعدها ماديًا لتحتفظ بكيانها الاقتصادى** .. وكل هذه الظروف كانت تحتم على الدول العربية ألا تجعل القيادة العليا للإنجليز باسم الأردن، وهى تعلم ما ينجم من مآس وأضرار **بإعطاء انجلترا قيادة جيوش تحارب اليهود الذين تحتضنهم هى وتدافع عنهم .. إن هذا هو أفظع ما يكون فى تصرفات السياسة العربية فى ذلك الحين**.

وإن من يتتبع الحوادث فى حرب فلسطين يخرج منها بنتيجتين:

إحداهما: أن بريطانيا عبثت بأمانة الوصاية على فلسطين، وسلمتها لغير أهليها.

والأخرى: وهى أشد إيلامًا، أن قومًا من العرب ظاهروا هذه السياسة، جهلاً، أو جريًا وراء مغانم الدنيا التى لا يدرون متى يودعونها إلى حياة أخرى، لا يغنى عنها مال ولا جاه ولا سلطان.

وبيان ذلك:

أولاً: ترك الإنجليز فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨، وكان الواجب أن يردوها إلى أهلها العرب. ولكنهم لم يفعلوا، **وسلموا مدينة «حيفا» إلى اليهود** . . وأراد عرب حيفا أن يدافعوا عنها، واستنجدوا بقوة أردنية كانت تعسكر حولها، ولكنها لم تحرك ساكنًا.

ثانيًا: كان الجيش الأردنى أقرب الجيوش العربية إلى مدينة القدس، وكان من الطبيعى أن يزحف إليها يوم دخلت الجيوش العربية فلسطين فى ١٥ مايو، ولكنه لم يفعل . . وظل أربعة أيام لا يبدى حراكًا، بينما كان اليهود يهاجمونها بقوة حتى استولوا على أحيائها الجديدة وكادوا يستولون على أحيائها القديمة لولا دفاع المجاهدين الفلسطينيين، **ولولا أن الكولونيل الأردنى عبد الله التل أخذ بأيديهم** –

مخالفًا بذلك أوامر قائد الجيش الأردنى جلوب الإنجليزى - واستطاع المجاهدون الفلسطينيون والقائد عبد الله التل استرجاع القدس القديمة .. وحينذاك دخلها الجيش الأردنى دخول الظافرين.

ثالثًا: من مدن فلسطين المهمة مدينتا «اللد» و«الرملة» وبهما أكبر مطار فى فلسطين، وهو من أكبر مطارات الشرق. **واللد ملتقى سكك حديد فلسطين وخط سكة حديد الحجاز. وكان الجيش الأردنى فى هذا الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة بين العرب واليهود يحتل هذه المنطقة الاستراتيجية الحيوية، ولكن قائده الإنجليزى جلوب أمر بتجريد قوات الجهاد المقدس فيها وكذا سكانها العرب من أسلحتهم، ثم أمر بانسحاب الجيش الأردنى، فاحتلها اليهود دون مقاومة.**

وفى هذه الفترة كان الجيش المصرى يزحف من الجنوب إلى الشمال معتمدًا على معونة الجيش الأردنى فى اللد والرملة، وكان الجيش العراقى يزحف من الشمال إلى الجنوب. **فلما انسحب الجيش الأردنى انكشف جناح الجيش المصرى، وأصبح معرضًا لكارثة كبرى، ولم يستطع الجيش العراقى أن يتقدم لمعونة الجيش المصرى واضطر لأن ينسحب إلى منطقة طولكرم.**

رابعًا: تواترت الأنباء أن العراقيين رغبوا فى نجدة الجيش المصرى، وطلبوا أن تمر قواتهم عبر شرق الأردن لينجدوا قوات الفالوجا، لكن القائد جلوب عارض فى هذا، وبقيت القوات المصرية وحدها فى الميدان.

خامسًا: فى سنة ١٩٤٨ هاجمت القوة الأردنية المجاهدين الفلسطينيين فى منطقة رام الله، وكانت تبغى الاستيلاء على مقر قيادتهم ولكنها لم تفلح .. فأعادت الكرة فى يناير سنة ١٩٤٩ وأرسلت قوة مصفحة استولت على المكان، وشردت المجاهدين، وأخذت أسلحتهم وذخائرهم.

سادسًا: قررت هيئة الأمم المتحدة فى ٩ ديسمبر سنة ١٩٤٩ تدويل مدينة القدس - مع أن الكونت برنادوت كان يرى ضمها إلى فلسطين العربية - وقد وافقت الحكومات العربية على تدويل القدس، لأنها لمست تأهب اليهود للهجوم عليها،

وعدم إمكان الاعتماد على حكومة شرق الأردن فى صدهم، فخافت وقوع القدس فى أيدى اليهـود وقبلت تدويلها. أمـا حكومة شرق الأردن فقـد عارضت تدويل المدينة، وشذت عن إجـماع الحكومات الـعربية. وترمى حكومـة شرق الأردن من وراء ذلك إلى تسليم القدس الجـديدة إلى اليهود نهائيًـا والاعتراف بملكيتـهم لها، على أن تكون القـدس القـديمـة ملكًا خـالصًـا لشـرق الأردن. ولا ندرى كـيف استساغت حكومة شرق الأردن فى ذلك العهد امتلاك القدس القديمة، مع أن هذا لا يتفق مطلقًـا مع ما صرح به الملك عبد الله من أنه لا يبـغى منفعة شخـصية أو فائدة ذاتية، ولا يتفق مطلقًا مع قرارات الجامعـة العربية التى وافقت عليها حكومة شرق الأردن.

سابعًا: قامت بفلسطين حكومة عـربية مستقلة، مؤيدة من الجمعية الـتأسيسية التى انعقدت فى مدينة غزة، وبادرت حكومات الجامعة العربية بالاعتراف بها إلا حكومة شرق الأردن، فإنهـا لـم تفعل - بضغط انجلترا طبعًـا - واصطنعت مؤتمر «أريحا» وساقت إليـه من أهل فلسطين نفرًا ممن كـانوا تحت أمرتها وسلطـانها، لا يملكون حرية القول والعمل، ولا يستطيعون دفع الأذى عن أنفسهم فى هذه المحنة القاسية التى نكبـتهم بألوان من العـوز والضـيق والبؤس والبـلاء. وفى هذا المؤتمر، ومن هؤلاء النفر القليل المـغلوب على أمره، بويع الملك عبـد الله على ما تحت يده من أرض فلسطين، وانتهت هذه المأساة بأن باركـها وأيدها مجلس وزراء شرق الأردن فى ذلك الحـين، إذ قرر الموافـقة على مـا ارتآه مؤتمر أريحـا **(من ضم مـا بقى من فلسطين إلى المملكة الأردنـية)**. وأُبلغ القرار إلى جامـعة الدول العربية، فـاحتجت على هذا القـرار المنافى لجمـيع التعـهدات التى تكونت بمقـتضـاها جامعـة الدولة العربية. والتى دخلت بمقتضاها الحرب لإنقاذ فلسطين من خطر الصهيونية . . وقد وفت مصر بعهدها فلم تفكر فى ضم قطاع غزة إلى أملاكها.

ثامنًا: لم تكتف حكومة شرق الأردن فى ذلك العهد بتسليم منطقة اللد والرملة - وتربو قراها **على خمس عشرة قرية - إلى اليهود، بل سلمتـهم بإيعاز انجلترا بعد اتفاقية رودس فى ٣ أبريل سنة ١٩٤٩ مـساحات كـبيرة من منطقـة نابلس - جنين - طولكرم. ومنطقة بيت لحم - الخليل.**

ومما يوجب الأسى أن منطقة نابلس - جنين - طولكرم، كان يحتلها الجيش العراقى. ومنطقة بيت لحم - الخليل، كان يحتلها الجيش المصرى. وقد سلم الجيشان المصرى والعراقى هاتين المنطقتين إلى الجيش الأردنى - أى إلى جلوب باشا - لاعتبارات عسكرية، بعد أن تعهدت الحكومة الأردنية رسميًا بالمحافظة على عروبة تلك المناطق.

فهل وفّت الحكومة الأردنية فى ذلك الزمن بحفاظها على **عروبة هذه المناطق بتسليمها لليهود؟!!**

وإن الإنسان ليدرك خطورة هذا التسليم إذا عرف مدى انفساح رقعتها، وما تحويه من مشروعات عمرانية وأرض زراعية خصبة.

فمنطقة نابلس - جنين - طولكرم تبلغ مساحتها ٥٢٥,٠٠٠ دونم، أى حوالى ١٣٠,٠٠٠فدان، وهى من أخصب أراضى فلسطين الزراعية، وبها أكثر من سبعة آلاف فدان من البرتقال وغيره، وكل سكانها من العرب ليس بينهم يهودى واحد، ويسكنون قرى عربية أشهرها: أم الفحم ومندلة والمزار والجلة ومقبيلة وعار وعرعرة وباقة الغربية وقلنسوة والطيبة والطيرة وكفر قاسم وجلجولية.

ويخترق هذه الأراضى العربية خط سكة حديد بين حيفا واللد وطوله لا يقل عن أربعين كيلو مترا، وطريق الخضيرة - العفولة ويحيط به مرتفعات لها قيمة حربية كبرى.

ومنطقة بيت لحم - الخليل، تشمل قرى: وادى فوكين ودير الشيخ والقبو والدير وعلين والجمعة وأدنا وحيسان والولجة والحنية ونصف قرية بيت صفاقا وأراضى قريتى بتير وطباليا.

وسلمت الحكومة الأردنية فى هذه المنطقة أيضًا معسكر العلمين وقسمًا من جبل المكبر المطل على القدس، وقسمًا من خط سكة الحديد من محطة القدس إلى محطة مرتوف - القريبة من الرملة - وبهذا أصبح خط سكة الحديد بين **القدس واللد ويافا فى حوزة اليهود.**

وسلمت خمسة وعشرين كيلو مترا من الأراضى الواقعة غربى شاطئ البحر الميت.

وحاول الأهالى العرب مقاومة الاحتلال اليهودى فى هذه المناطق، ولكن قوات الجيش الأردنى أرغمتهم على التسليم، وسلط عليهم جلوب من وسائل البطش والجبروت ما جعلهم يذعنون صاغرين.

تاسعًا: أثار تسليم هذه المناطق شعور العرب فى فلسطين، وأهاج نفوسهم، فقامت مظاهرتان كبيرتان فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٩ احتجاجًا على هذه المنكرات، إحداهما فى نابلس، والأخرى فى طولكرم، فبطش الجيش الأردنى - بأمر جلوب - بالمتظاهرين بطشًا عنيفًا وشتت مظاهرتهم، ولكنه لم يخمد ما فى نفوسهم من نقمة وغضب على فعال جلوب باشا، من تسليم بلاد عربية إلى اليهود بدون قتال..

عاشرًا: مما يزيد فى الألم أن حكومة شرق الأردن أرادت أن تجعل من ضم ما ضمته إليها من فلسطين عملاً شرعيًا لا غبار عليه، فكونت البرلمان الأردنى وأدخلت فيه أعضاء ليمثلوا عرب فلسطين .. وعرب فلسطين إذا تركوا أحرارًا، وبعدت عنهم أسباب الإكراه والعنف لا يرضون بمثل هذا الوضع الشائن، الذى يمزق وطنهم شر ممزق، ويجعله لقمة سائغة للمعتدين والمغرضين.

والأسلوب الكريه الذى استعملته حكومة شرق الأردن - وقتذاك - فى حشد الناس لمؤتمر «أريحا» هو الأسلوب نفسه الذى أكره به عرب فلسطين فى اختيار أعضاء البرلمان الأردنى، فعرب فلسطين مأخوذين بما حاق بهم وبوطنهم وإنسانيتهم من اضطهاد وتشريد وبؤس وامتهان وقد قامت مظاهرتان فى (نابلس) فى ٣١ مارس وأول أبريل سنة ١٩٥٠ نشرت الصحف أنباءهما .. وذكرت أن المتظاهرين من وجهاء نابلس وشبانها المثقفين، قد سيقوا مكبلين بالأغلال، مشاة على الأقدام، تحت ضرب السياط مسيرة ثلاثين كيلو مترا، حتى سقط عدد كبير منهم متأثرًا بالظمأ والألم، ومات أحدهم هو المرحوم السيد «روحى زيد الكيلانى» .. وبعد أن ذاقوا هذه الألوان من العذاب شحنوهم كما تشحن الماشية فى «لوريات»

إلى عمـان، وهناك أودعوا غـياهب السـجن، ولم يطلق سراحـهم إلا بعد أن تم للحكومة الأردنية - أى لجلوب - ما أراد من سلطان جديد. وتكررت هذه المآسى فى الخليل وغيرها من بلاد فلسطين.

حادى عشر: وقد تواترت الأنباء أن جلالة الملك عبد الله ذهب إلى «العقبة» فى شهر فبراير سنة ١٩٥٠، واجـتمع هناك بابن جوريون رئيس وزارة إسرائيل، على ظهر مدمرة إنجليزية اسمها «ماك فـاى» وأنهما وقعا معاهدة صلح بالأحرف الأولى من اسمـيهـما. وقد أنـكرت حكومة شرق الأردن تـوقيع معـاهدة صلح، ولكن الجامعة العـربية مبالغة فى الحيطة والحـذر، قررت فى ١٢ أبريل سنة ١٩٥٠ فصل أية حكومة عربية تعقد صلحًا منفـردًا مع إسرائيل. وصدر هذا القرار باتفاق جميع الدول العربية، ومن بينها حكومة شرق الأردن. ولما صدر قرار البرلمان الأردنى فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٠ بضم جـزء من فلسطين إلى شـرق الأردن، دعـيت اللجنة السياسية لجـامعة الدول العربية . . وبعد المناقشة رأت غـالبية الدول العربية أن فى عمل حكومة شرق الأردن مخالفة صريحة لميثاق جامعة هذه الدول، وأنها تستحق بسببها الـفصل من الجامعة . . ورأى بعضها الآخر أن عـمل شرق الأردن مخالف لقرار مـجلس الجامعة، واكـتفى بأن طلب إلى مندوبهـا أن تعلن أن هذا الجزء من فلسطين وديعة لدى حـكومتها تردها إلى أصـحابها، ولكن حكومـة شرق الأردن رفضت أن تعلن عدولها عن التملك.

نخلص من هذا كله إلى أن حـكومة شـرق الأردن فى ذلك العـهد - بفـضل ضغط انجلترا - اقترفت مخالفـات خطيرة شائنة، أحكم الانجليز تدبيرها، ورسموا خطوطها. . فأصبح لليهود فى فلسطين مركز منيع، وسيادة لم يكونوا يحملون بها.

وضع اليهود أيديهم على أكثر المساحات اتساعًا وخصوبة، وملكوا من فلسطين العربية نحو ثلاثة أرباع مساحتها . . وما بقى تحت يد حكومة شرق الأردن ومصر نحو الربع.

أضف إلى ذلك أن اليهـود قد أقاموا خطًا عـسكريًا من شرق غزة على البـحر المتوسط حتى المرشوش فى خليج العقبة على البحر الأحمر وبذلك وُضع الإسفين

الفاصل بين أفريقية العربية وآسيا العربية، وتم تمزيق البلاد العربية، وفصلت مصر عن سوريا ولبنان والعراق.

وما ذكرناه يثبت أن هذه الأعمال كانت بوحى وتدبير من القائد الإنجليزى للجيش الأردنى، يؤيده فى ذلك المعتمد السياسى البريطانى فى عمان[1].] انتهى كلام محمد على علوبة.

وجاءت ورقة أكتوبر بالنص التالى **تعليلاً للهزائم أمام إسرائيل فى حروب ٤٨ و٥٦ و٦٧**:

(لقد سيقت الأمة العربية إلى الحرب مع إسرائيل عدة مرات خلال ربع قرن من الزمان دون أن يكون هناك إلمام بعشرات من العناصر العسكرية والاقتصادية والسياسية والنفسية المحلى منها والدولى على السواء، ودون تحديد سابق لهدف الحرب وغايتها وكل الاحتمالات التى تصاحبها)[2].

وتتلخص أسباب الهزيمة سنة ١٩٦٧ فى رأى كل من المشير أحمد إسماعيل والفريق الأول محمد عبد الغنى الجمسى فى افتقاد التنسيق بين مصر وسوريا بسبب الشك المتبادل بينهما، وكذلك عدم الترابط والتوازن بين القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والعمل السياسى، ثم جاء **الانسحاب من سيناء** مخاطرة ومجازفة غير محسوبة النتائج، ضاعفت من حجم الخسائر[3].

حرب يونيو سنة ١٩٦٧:

يرجع الفريق صلاح الدين الحديدى - الذى كان رئيسًا للمحكمة العسكرية العليا - هزيمة سنة ١٩٦٧ إلى عوامل كثيرة، فيقول أولاً:

---

(١) فلسطين والضمير الإنسانى، محمد على علوبة من ص ١٤٣ إلى ص١٥١ كتاب الهلال مارس سنة ١٩٦٤.

(٢) د. أحمد شلبى (مصر بين حربين ٦٧ - ٧٣ «دراسة مقارنة») ص ١٢٨ مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٥م.

(٣) نفسه ص ٢٣٠.

(إن تاريخ الأمم لا يمكن تقسيمه إلى عصور أو فترات مستقلة، يُنظر إلى كل منها على حدة، بل هو تاريخ واحد **متصل الفترات والعصور، يُبنى كل منها على ما سبقه من أحداث، ويترتب عليها ما سيحدث من تحول أو انتصارات**).

ولأنه يُعنى بصفة خاصة بحرب عام ٦٧ - وكان رئيسًا للمحكمة العسكرية العليا التى نظرت القضية التى أطلق عليها «**قضية الطيران ومسئولية النكسة**»، فقد استطرد قائلاً:

(فلا شك أن معركة[*] الأيام القليلة الحزينة من يونيو «حزيران» ٦٧، **كانت نتيجة طبيعية للتاريخ العسكرى لوطننا قبل هذا الشهر المنكود، وللأوضاع العسكرية والسياسية التى كانت سائدة وقتئذ، والتى كونت جزءًا من هذا التاريخ، فأحداث اليوم هى تاريخ الغد**)[1].

وقد تجاوز الفريق صلاح الدين تعليل الأسباب الظاهرة إلى تعميق بحثه فأرخ للقوات المصرية (أنها لم تشترك فى عمليات عسكرية واسعة النطاق وبالشكل المفهوم عن الحرب الحديثة فى تاريخها المعاصر)[2].

ونقص التسليح بالمقارنة بإسرائيل كان واضحًا وكانت القوات العربية - والمصرية - لا تملك من الدبابات إلا عددًا قليلاً وغير صالح للاستخدام.

ثم ينتقل إلى تحليل نفسية الجندى المصرى قبل التجنيد الإجبارى حيث كان نظام «البدلية» قائمًا (إنه لا يعنيه شىء)[3].

وكان فشل العدوان الثلاثى (إنجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦) فى تحقيق الهدف الاستراتيجى للعدوان وإجبار أمريكا لهم على الانسحاب، أعطى أجهزة الإعلام المصرية فرصة ذهبية للتهويل من أعمال المقاومة البطولية التى قامت بها

(*) ويسميها فى موضع آخر (كارثة ٥ يونيو ٦٧) ص ١٥٥، بينما يسميها اللواء شيت خطاب (فضيحة ٥ يونيو) كتاب «زعماء ومفكرون».

(١) ص ١٩ كتاب (شاهد على حرب سنة ٦٧).

(٢) نفسه ص ٥٣.

(٣) نفسه ص ٥٤.

مـجمـوعة اللواء المشـاة فى (أبو عجـيلة) وبسـالة رجال المقـاومة فى بورسـعيـد والبطولات الفردية لبعض الضباط والجنود الذين ضحوا بحياتهم بجانب التضحيات المادية الكثيرة وعلى رأسها سلاح الطيران . . (وهكذا ضاعت الحقيقة واختفت معها الأسباب الحقيقية للهزيمة التى وقعت بالقوات المسلحة المصرية)[1].

أما المؤرخ العـسكرى جمـال حماد فـيرى أن القـرارات الأربعة التى أصـدرتها القيادة السيـاسية المصرية عام ٦٧ (عبـد الناصر وعبد الحكيم عامر كـانا يمثلان معًا القيـادة السياسيـة حينذاك)، هذه القرارات كـانت بلا شك من العوامل الأساسـية للهزيمة النكراء التى منيت بها القوات المسلحة المصرية، ومن الثابت أن بعض القادة العسكريين قد أبدوا اعتـراضهم على هذه القرارات ولكن القيادة السيـاسية أصرت على موقفها!

أولاً: طلب سحب قـوات الطوارئ الدولية من مواقـعها على الحـدود المصرية، واعتـبر جمال حـماد أن القيادة المـصرية قد ابتلعت الطعم وانخـدعت بالمعلومات الزائفة عن الحـشود اليـهودية على حدود سـوريا، ولم تنسق مع القيـادة السورية العسكرية لمواجهة هذه الحشود المزعومة.

ثانيًا: كان الـدفاع عن قطاع غـزة ومنطقة رفح يمثل مـشكلة عسكـرية معـقدة، واتضح الاضطراب فى مـعالجة الموقف وكـانت إجراءات تنفيـذ توجيـهات الرئيس سريعة ومـرتجلة ومخالفة لأبسط المبـادئ التكتيكية مما مكن قوات المحـور الشمالى الإسرائيلى من اختـراق المواقع الدفاعية فى رفح دون أية صـعوبة يوم ٥ يونيو سنة ٦٧ والتقدم غربًا فى اتجاه العريش.

ثالثًا: اضطرت القوات المسلحة المصـرية إزاء تنفيذ قرار إغلاق خليج العـقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية بالسرعة الواجبة أن اتخذت عدة إجراءات عسكرية كان من نتيجتهـا زيادة الأعباء على عاتق القوات المصرية وإضعاف قـدرتها القتالية دون أن تجنى من فتح هذا المحور أية فائدة استراتيجية أو تكتيكية.

---

(١) نفسه ص ٥٥.

رابعًا: طلب عبد الناصر فى اجتماع القادة السياسيين والعسكريين يوم الجمعة ٢ يونيـو سنة ١٩٦٧ من القـادة العـسكريين الاستـعـداد لتلقى الضـربة الأولى لأن **(استراتيجية مصر قد تحولت من هجومية إلى دفاعية)**.

وقد عارض الفريق أول صدقى محـمود قائد القوات الجوية قرار الرئيس ولكن الرئيس أصر على رأيه واشترك معه المشير عامر.

وهذا القرار بالذات - كما يذكر جمال حماد - يوضح بجلاء الأثر الخطر الذى يحدثه القرار السياسى الخاطئ على سلامة الأوضاع الاستراتيجية للقوات المسلحة، ويقرر فى النهاية أن هذا القرار الخاطئ كان سببًا فى تدمير سلاح الطيران المصرى على الأرض صـباح ٥ يونيـو سنة ١٩٦٧ فى بضع سـاعات وكـان أحد العـوامل الرئيسية فى هزيمة حرب يونيو سنة ١٩٦٧ الشائنة[١].

أما عن الحشود الإسرائيلية المزعومة على حدود سوريا فإن مؤلف كتاب (سقوط الجولان)، أورد تفـسيرا لا يكاد يصـدقه عقل لفرط غـرابته، قال (قـبل الحرب بما يقارب الأربعين يومًا.. وفى إحـدى السهرات الليلية.. وقف مسئول حـزبى كبير جدا (من حزب البعث) يتبجح، ويقول: «بالأمس كنا فى اجتماع هام، وقد قررنا السعى **بكل وسيلة لتوريط عبد الناصر بالحرب، مهما كانت النتائج.. حتى ولو كان ثمن ذلك، ضيـاع الجولان.. نحن لا يهمنا إلا توريط عـبد الناصر، وكـشفه أمـام الرأى العام العـربى، وإسـقـاطه، وعندها سنـبقـى (يعنى حـزب البـعث) قـادة الثـورة العـربيـة بلا منافس)**[٢].

ومما يُذكر أن الانسحاب من سيناء الذى يعلل به قادة مصر العسكريين الهزيمة، هو نفســه الذى حدث بهضة الجـولان، كما يروى ذلك خليل مـصطفى - ضابط استخبارات الجولان قبل الحرب - إذ اشتهـرت الهضبة بأنها عصية على الوقوع بيد

(١) باختصار من مقال بعنوان (مأساة يونيو ٦٧.. دروس وعبر) الأهرام ١٩٩٩/٦/٧ ص ١٠.

(٢) سقوط الجولان، ص٢٥٧، خليل مصطفى - ضابط استخـبارات الجولان قبل الحرب، دار اليقين، عمان ط٢، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م.

ويذكر أنه قد وردت إشـارات كثيرة إلى هذا المعنى.. تدين البـعثيين بهـذه العقلية، كان أهمـها - حتى الآن- ما أورده سعد جمعة فى كتابه (المؤامرة ومعركة المصير)، وما أتى على ذكره سامى الجندى فى كتابه (أتحدى وأتهم)، وما أوردته مجلة الجديد فى أحد أعدادها.

الأعداء، ووصفت بأنها الجبهة السورية- الإسرائيلية قبل الحرب «بخط ماجينو السورى المشهور، الذى كلف البلاد أكثر من ثلاثمائة مليون دولار، لتحصينه وتجهيزه بأحدث المعدات، والذى اشتهر عنه بأنه لا يؤخذ.. هذا الخط سقط بأيدى القوات الإسرائيلية خلال ٤٨ ساعة فقط)[١].

ونقل المؤلف نصًا من كتاب (أتحدى وأتهم) للدكتور سامى الجندى يقول فيه: (التقارير التى كنت أحملها من لجان «المتابعة» سنة ١٩٦٤ يوم كنت ممثلا لسوريا فيها، ما كانت تدع مجالا للشك فى الهزيمة إذا قامت حرب. كلها كانت تؤكد أن القوة العربية لم تصل إلى نصف قوة إسرائيل.

ولقد دخلنا فى حرب ١٩٦٧ بأقل من نصف قواها، وما كان أحد من المسئولين يجهل ذلك.

لم أخف أبدًا أن الحكم يعد لهزيمة، لا لاسترداد فلسطين.. ومن يعود إلى الصحافة، ويقرأ ما حدث بين ١٩٦٥ و١٩٦٧، يتبين الإلحاح على الحرب دون إعداد عسكرى أو تنسيق سياسى.

لم يكن يعنيهم أبدا أن ينتصر العرب فى حرب حزيران (يونيو) نصرا كاملا. فهم يعرفون أن ذلك مستحيل، وما كانت التقارير التى بين أيديهم تدع مجالا للشك.

.. أنا مؤمن أنه فى اليوم الذى يعود فيه جيش سوريا الحقيقى، لن يهزم أبدًا)[٢].

ولكن مؤلف كتاب (سقوط الجولان) يسجل أيضا بطولات خارقة للضباط والجنود الذين اشتبكوا مع العدو الإسرائيلى، وقاموا بالدفاع عن مواقعهم كأفضل ما يمكن لرجال أن يدافعوا، ثم يتساءل:

(ولكن ما حيلة البطولة إن كانت وحيدة فى وجه موجات متلاحقة من قوى الغزو الباغى؟ وكيف يمكن للرجال الأشاوس أن يستمروا فى ممارسة بطولاتهم..

---

(١) سقوط الجولان، خليل مصطفى ص٣٩ ط٢ دار اليقين، عمان ١٣٩٠هـ- ١٩٧٠م.

(٢) نفسه ص٢٦٤.

ما دام قادتهم يمارسون مختلف صور الخيانة والغدر بهم، وبالبلاد)؟![1].

ويتضح التماثل بالمقارنة العامة بين الموقفين: المصرى والسورى مثل بدء القتال، فقد جمع الدكتور إبراهيم ماخوس، الوزير السورى، جميع رؤساء البعثات الدبلوماسية فى سوريا باستثناء سفيرى أمريكا وبريطانيا وشرح لهم الوضع الراهن، وكان من جملة ما قاله ماخوس (.. إن دولا صديقة عديدة نصحت الدول العربية بأن لا يبدأ العرب العدوان، كما أن كثيرين من السفراء وعلى رأسهم السفير الأمريكى أكدوا أن إسرائيل لا تنوى العدوان، وأن العرب قبلوا النصيحة، إلا أن الشعب العربى دفع الثمن باهظا».

«.. ولو أننا بدأنا الهجوم لسحقنا العدوان وأنهينا العملية فى يوم واحد.. ولكننا فوجئنا أمس بهجوم شامل على جميع المطارات فى البلاد العربية بكثافة لا يمكن معها أن تكون إسرائيل وحدها فى المعركة». وقال: «لقد أسقطنا أمس أكثر من ١٥٠ طائرة وكان الطيران الإسرائيلى مستمرًا وكأننا لم نسقط طائرة واحدة..»[2].

التفسير: ولا نجد تفسيرا لما مر بنا من اضطراب فى القرارات، وتعارضها مع مصالح الشعب والأمة، إلا بالتعرف على أحوال مصر الاجتماعية والسياسية والتعليمية فى عصر الاستعمار البريطانى الذى بدأ منذ عام ١٨٨٢م.

حالة مصر الاجتماعية:

كان المجتمع فى عهد الاحتلال منقسمًا حسب وصف محمد لطفى جمعة إلى طبقة ارستقراطية (تتحكم فى رقاب الفقراء من الفلاحين وغيرهم، ولم تكن لديهم طريقة غير الزلفى للإنجليز واتخاذهم سادة لتمكن أفراد هذه الطبقة من اتخاذ الفلاحين عبيدا)[3].

---

(١) نفسه ص٢٠١ وقد أفرد فصلا كاملا لعرض هذه البطولات تحت عنوان: الوجه المشرق، وجوه ناصعة للبطولة من ص١٩٨ إلى ص٢٠٩.

(٢) سقوط الجولان ص١٣٨.

(٣) ص١٣١ من كتاب (شاهد على العصر: مذكرات محمد لطفى جمعة).

كتب الأستاذ محمد لطفى جمعة عن صداقته لمصطفى كامل فقال (لقيته والمرحوم محمد فريد بمدينة لوزان=

ولم ينتظر فى هذه البيئة إلا تخـريج طامعين فى المناصب والأموال، ولذلك لم يفلت من الإغراءات **إلا الزعيم مصطفى كامل الذى رفض الدخـول فى مفاوضات مع الإنجليز، ورفع شعار (لا مفاوضة إلا بعد الجلاء)**.

وظل مصطـفى كامل حتى وفـاته ممثلا للزعـامة الحـقيـقية للأمـة، متـحرراً من قـيود المناصب السياسية، ولم يتحول كغيره إلى (رجل دولة).

وكشفت حـادثة دنشواى عن معدنه الأصيـل إذ (لم ينهض لمقاومتها أحـد غير مصطفى كـامل، وكان سعد زغلول نفـسه وقتهـا وزيرا للحقانية (الـعدل)، وكان أخوه فتـحى زغلول وكيلا له فى تلك الوزارة، بل كـان أحد القضاة الذين كـتبوا الحكم فى قضية دنـشواى ومهروه بأسمائهم وهو من فريق الـباشوات الذين نشأوا من طبقة الفلاحين كـما كان أخوه الأكبر سعد، ويزيد فتـحى زغلول على شقيقه الذى صار زعيم مصر بعد حادث دنشواى بعشر سنين، إنه كان مثقفًا ثقافة فرنسية، وكان عاكفًـا على نقل بعض كتبهم إلى اللغة العـربية ولاسيما ما كـان ضد حرية الأمم - مثل مؤلفات جوستاف ليبـون- وكانت غاية فتحى زغلول أن يقاوم النزعة الدستورية فى مصر، وأن يحارب مصطفى كامل ومبادئ الحزب الوطنى)[1].

لقد أحدث الاستعمار بإغراءاته بالمناصب وتقريبـه للمتعاونين معه، أحدث شقًا فى زعامة الأمة، وأوقع فى حبـائله الكثيرين، ولم ينج إلا المخلصون الذين سرى فى دمائهم حب الأمة والدفاع المستميت عن حـقها فى الحياة الحرة، فأسلمت لهم الجماهير قيادها.

التعليم والثقافة:

وسجل الأستاذ محمد لطفى جمعة فى مذكراته كشاهد على العصر كيف كانت المدارس الثانوية فى أوائل القرن العشرين أداة من أدوات الحكم البريطانى فى مصر غايتـها تخريج طبقـة من موظفى الحكومة ليـعملوا فى طاعة تحت إشـراف السادة

= بسويسرا سنة ١٩٠٦ فتأكدت بيننا أواصر الصداقة المتينة، وانضممت إلى الحزب الوطنى بارتياح لاعتقادى أن مؤسسه على حق، وقـد استفدت من عشرته كثيرا من المبادئ السامية والاتجاهات الـشريفة ومن بينها عدم التمرغ فى تراب الميرى والنأى جانبًا عن وظائف الحكومة أو السعى إليها) ص٨٧.

(١) نفسه ص١٣١.

الإنجليز، وقد صنعت وزارة المعارف تحت سلطة (دنلوب) - وكان قسيسًا يلبس الثياب المدنى - فحارب اللغة العربية واضطهد المشايخ المخلصين، وعمد وعصابته إلى اضطهاد كل طالب أو تلميذ يظهر عاطفة نحو الاجتماع وتأليف القلوب أو النداء باسم الوطن، وحاربوا التعليم والمهن الحرة لقتل الاستقلال فى العمل وخنق النبوغ فى مهده، وجعل دنلوب لنفسه جيشًا جرارا من الجواسيس وألزمهم بكتابة التقارير إليه ليلا ونهارا[١].

ويعلق لطفى جمعة على ذلك فيكتب (هذا هو الوسط الذى تربى فيه رجال المستقبل وأمل الجيل وذخيرة مصر ورجاء الأمة وذخر الوطن)[٢]؟!

كذلك ضيق الخناق على الأساتذة المصريين فمنعهم من ذكر مصر وتاريخها فى دروسهم، ولم يبح لهم ولا للتلاميذ قراءة جريدة، وكان تاريخ مصر والإسلام نفسه يدرس باللغة الإنجليزية فى بضع صفحات مع تزويره والاستهانة به (وهكذا كان تعليم كل ماله مساس بالوطن واللغة، فكيف نؤمل أن تنتج هذه الأجيال رجالا كالفلاسفة والمصلحين والمكتشفين والمخترعين والمشترعين وكبار الكتاب والشعراء)؟[٣].

ويتبين من كل هذا أن الساسة لم يكونوا على مستوى الأحداث بحكم تعليمهم وصلاتهم بالإنجليز المستعمرين وإحاطتهم بالأحداث وانصرافهم عن الاهتمام بالقضايا العامة إذ كان ولاؤهم للمستعمر قبل كل شىء، فكيف يستقلون بقرارات وطنية بإرادة حرة، وعقول واعية ونوايا مخلصة لقضايا أمتهم؟

ويصف الأستاذ محمد لطفى جمعة هؤلاء بقوله:

(.. كانت فترة التعليم الثانوى بالنسبة لى ولأمثالى فى أوائل القرن العشرين محنة، وإن نال أحد منا شيئًا من المعرفة فبمحض جهده وشغفه وشوقه واستعداده. أما الآخرون، وكان معظمهم من الريف، فكانوا يقبلون على التعليم المدرسى بنية أن يأخذوا شهادة ليتوظفوا بها، وقد نجح كثير منهم وصاروا فى

---

(١) باختصار من كتاب (مذكرات محمد لطفى جمعة) ص٧٥، ٧٩.

(٢) نفسه ص٧٩

(٣) نفسه ص ٧٧/٧٨.

الحكومة باشاوات وبكاوات وأفندية، وهم فى غاية الغفلة من الناحية السياسية والقومية والثقافية، وتراهم الآن كما كانوا من قبل يدافعون عن الحكم القائم الذى صاروا بفضل كرومر وجورست وكتشنر وماكسويل من عباده، ولم يكن ينتظر غير ذلك)[1].

وكان الجو السياسى العام من صنع الإنجليز الذين ألقوا فى قلوب المصريين الرعب وأرهبوهم، **(وأعان الإنجليز على الرعب والإرهاب وغرس بذورهما فى نفوس المصريين، حب الوزراء والكبراء وطبقة الباشاوات للمناصب والمال وطمعهم فى المناصب..)**[2].

وماذا كان ينتظر من جو سياسى موبوء بأفاعيل الاستعمار، أفسد فيها نظام التعليم وخنق فيها الحريات، وضيق على الشعب حياته وسبب له الجوع والفقر والمرض وقرب إليه الخونة والمنافقين والجواسيس، والزعماء الذين صنعهم على عينيه، يخضعون له ويأتمرون بأوامره. وينتهون بنواهيه ويستحيل أن يتخذوا قرارات مخالفة لمصالح أسيادهم، اللهم إذا تصورنا إمكان أن يطعن الإنسان نفسه!.

هل يُنتظر من هؤلاء اتخاذ قرارات تمليها مصالح الشعب والتى تصطدم تمامًا مع الاستعمار وأذنابه؟ وكانت إسرائيل هى الذنب الأكبر!

ولعل أحد أسباب هزائم الجيوش ذلك الاضطراب فى اتخاذ القرارات المصيرية والتردد فى دخول الجيوش العربية إلى أرض فلسطين بين العواطف الحماسية التى لا سند لها من أسس واقعية لتشمل دراسة الظروف السياسية الدولية، والقوى المساندة لليهود، والقوات المسلحة العربية بالموازنة بعصابات الهاجاناه وشتيرن، وكانت أصلا قوات عسكرية حاربت مع الإنجليز فى الحرب العالمية الثانية وتدربت فى ميادين القتال على فنون الحرب بالأسلحة الحديثة الأمر الذى تفتقده حتما

---

(١) ص٨١ من كتاب (شاهد على العصر: مذكرات محمد لطفى جمعة) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ٢٠٠٠. وتشمل المذكرات الفترة من ميلاده سنة ١٨٨٦ إلى ديسمبر ١٩٣٧.

(٢) نفسه ص١٣٠.

الجيوش العربية ومستوى تسليحها إذ لم تكن دول الاستعمار لتسمح بجعلها على مستوى جيوش الغرب تدريبًا وتسليحًا.

ولئن أبلى الجنود بلاءً حسنًا وأثبتوا شجاعة فى القتال، فإن عوامل أخرى فتت فى عضدهم كانفصال قياداتهم الميدانية؛ فوزير الدفاع بالقاهرة يدير المعركة من مكتبه.

ويعلل الدكتور النجار ذلك الاضطراب فى اتخاذ القرارات بأن غالبية حكومات الدول العربية لم تكن تنظر إلى **قضية فلسطين من المنظور الإسلامى**، ولم تكن تقدر خطر اغتصاب فلسطين وحجم التأييد الدولى للكيان اليهودى، فكان دور الجيوش العربية أقرب إلى الدور المسرحى لامتصاص غضبة الشعوب والحركات الإسلامية، وللحيلولة دون أية محاولة جادة للقيام بجهاد حقيقى ضد الصهاينة، والدليل على ذلك قول النقراشى رئيس وزراء مصر؛ قال للواء المواوى وهو يودعه (إن الاشتباكات ستكون مجرد مظاهرة سياسية، وليست عملا حربيًا، وإن المسألة ستسوى سياسيًا وبسرعة، وإن الأمم المتحدة سوف تتدخل)[1].

يستخلص د. رودلف بيترز - الأستاذ بجامعة أمستردام- من دراسته عن (الإسلام والاستعمار) أن هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ كانت حاسمة فى دفع حركة الإحياء الإسلامى فى الشرق الأوسط، ويقرر أنها لم تكن مجرد هزيمة وقعت بالبلاد العربية المجاورة لإسرائيل (بل كانت على الأصح هزيمة نظامين وطنيين عربيين راديكاليين، وبالتالى فقد أسقطت مصداقية الأيديولوجية الاشتراكية والقومية العلمانية التى اعتنقها هذان النظامان)[2].

ثم ينتقل الباحث إلى عامل آخر أكثر أهمية فى الوضع الجديد لقضية فلسطين، وهو التقارب بين (تلك النظم التى كانت راديكالية، وبين الولايات المتحدة الأمريكية. فقد كان قبول عبد الناصر لمشروع روجرز للتسوية فى الشرق الأوسط

(١) المؤامرة ص٦٩ للدكتور زغلول النجار ط نهضة مصر ٢٠٠٢.

(٢) الإسلام والاستعمار، عقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث د.رودلف بيترز ص٢١٤. دار شهدى للنشر بالتعاون مع المعهد الهولندى للآثار المصرية والبحوث العربية - القاهرة سنة ١٩٨٥.

فى سنة ١٩٧٠، مما يشير سلفًا إلى سياسة السادات الموالية للغرب وهى السياسة التى أدت فى النهاية إلى اتفاقية كامب ديفيد فى سنة ١٩٧٩)[١].

وفى رؤيتنا من منظور فلسفة التاريخ لهذا التحول الجذرى، يتضح التذبذب فى الموقف السياسى حيال نكبة فلسطين الدال على افتقاد الاستراتيجية منذ البداية فى التفكير والتخطيط، واتخاذ مواقف مرحلية حسب الظروف والأحوال!.

فبعد أن كانت فكرة الصلح مع إسرائيل جريمة لا تغتفر فى رأى الزعيم السياسى محمد على علوبة وكان هذا موقف الدول العربية حينذاك[٢] أصبحت مطلبًا ملحًا عقب حرب ٧٣ بينما ظلت أهداف إسرائيل ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، فمنها إقامة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات، ومنها بناء الهيكل: قال السير «ألفرد» اليهودى- لورد (ميلتشت) عام ١٩٢٢م (بأن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريبًا جدا، وإنه سيكرس ما بقى من حياته لبناء هيكل سليمان مكان المسجد الأقصى)[٣].

لقد أخذ المشروع التغريبى حظه من التجربة كاملا منذ أتاتورك سنة ١٩٢٤، وكانت مظاهر التراجع إلى صفوف العالم الثالث من حظ تركيا التى كانت -قبله- مرهوبة الجانب من أوروبا بأسرها باستثناء السنوات الأخيرة من عمر الخلافة العثمانية[٤].

---

(١) نفسة ص٢١٥.

(٢، ٣) ص١١٥ من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى) - محمد على علوبة، كتاب الهلال شوال ١٣٨٣هـ - مارس ١٩٦٤م- العدد ١٥٦.

(٤) يلاحظ الدكتور المسيرى ضمن دراسته عن المصطلحات المترجمة، أن من المصطلحات التى ترجمناها بأمانة شديدة وأدخلناها فى معجمنا التحليلى اصطلاح «رجل أوروبا المريض» والإشارة هنا إلى صورة رجل يحتضر يعالج سكرات الموت وهو الدولة العثمانية، والصورة التى يجسدها المصطلح تجعلنا ننظر بكثير من الاشمئزاز على أسوأ تقدير، وبكثير من الشفقة (دون أى احترام) على أحسنه، وننسى تمامًا أن الدولة العثمانية كانت تحمى شعوبها - رغم ضعفها واستبدادها- من الهجمة الاستعمارية الغربية التى عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوروبا لم يكن من أوروبا، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامى زعيمًا وقائدا له.

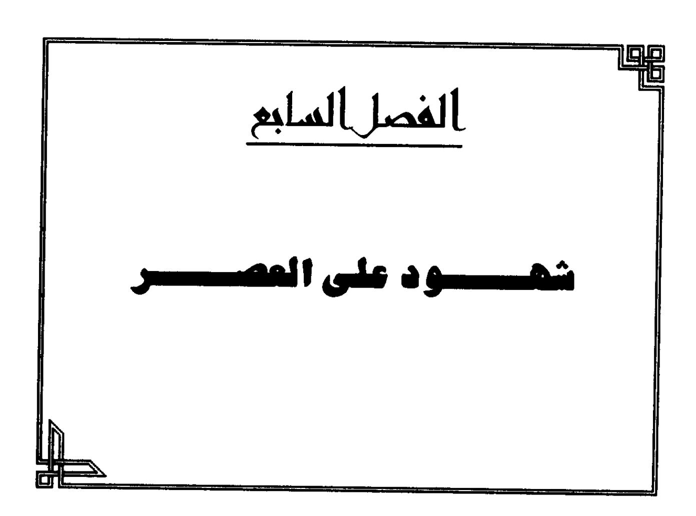
ومن الواضح أن صورة رجل أوروبا المريض تعكس منظورا غربيًا للقضية، ينظر للدولة العثمانية باعتبارها ميراثًا سيقسم ويوزع بين القوى الغربية، وهى رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه =

وجاءت نكبة فلسطين وتداعيـاتها منذ ١٩٤٨م حتى ١٩٦٧م لكى تحسم الموقف فيتهافت المشروع العلمانى القومى الثورى ويسقط تحت أقدام الجيش الإسرائيلى فى يونيو ١٩٦٧ .

*****

= المنطقة.. والمصطلح ينسينا رجلا آخر أكثر أهمية ومحورية وهو «رجل أوروبا النهم المفترس» أى الإمبريالية الغربية التى كـانت تبيد سكان أفريقيـا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعدادا هائلـة من سكان الأمريكتين الأصليين... هذا الرجل النهم كان رابـضًا على حدود العالم الإسلامى بعد أن التف حـوله عدة قرون خشية «رجل أوروبا العثمانى القوى»، الذى كان لا يزال بعافيته..[1].

(١) د. عبد الـوهاب المسيرى: العالم من منظور غـربى ص١٨٥/ ١٨٦ كتاب الهلال (فـبراير سنة ٢٠٠١م العدد ٦٠٢.



الفصل السابع

شهـــــود على العصـــــر

موقف الدكتور زكى نجيب محمود (من المنظور الفلسفى):

وقد صور ذلك أدق تصوير د. زكى نجيب محمود فى مذكراته عندما زار فلسطين (الحبيبة) كما سماها فى يونيو ١٩٣١ عن طريق (اللد) ثم ذهابه إلى (القدس). واستمع إلى شاب فلسطينى روى له حادث البراق، وهو الحادث المفجع الذى أشعل أول ثورة دامية سنة ١٩٢٨.

(والبراق عند المسلمين هو حائط المبكى عند اليهود، وأراد اليهود أن يستولوا عليه بعد أن كان فى قبضة المسلمين، فثار المسلمون، وقمعت حكومة الانتداب البريطانية الثورة بالقوة، وصدرت أحكام بالسجن على ثمانمائة عربى، وأحكام بالإعدام على عشرين)[١].

وها هو يصحح المعلومات الخاطئة عن حائط المبكى، ويفضح دور الإنجليز الملطخ بالعار، إذ خانوا أمانة (الانتداب)، بالسماح لليهود باغتصاب الأراضى، ودافعوا عنهم وقتلوا وسجنوا أصحاب فلسطين الأصليين! وكيف مكنت بريطانيا - دولة الانتداب على فلسطين - اليهود من السيطرة على فلسطين، ففتحت أبواب الهجرة لهم وأعطتهم الأرض التابعة للحكومة ليستعمروها وأذنت لهم بإقامة مدارسهم الخاصة، وكلما احتج العرب، ردت (الدولة المنتدبة بحرمان يقع على العرب بعد حرمان، ومضت السنون، فإذا بالجماعة اليهودية تزداد أضعافًا مضاعفة، فى العدد، وفى المناصب الرئيسية، وفى النفوذ، بمقدار ما يتضاءل العرب)[٢].

وأبدى دهشته أثناء زيارته لفلسطين عندما سأل شابًا يهوديًا عن قوميته، فأجاب (يهودى). فأعاد له السؤال: إننى لم أسألك ما عقيدتك فى الدين، بل سألتك ما قوميتك، فقال (نعم، يهوديتى هى قوميتى)[٣].

---

(١) ص ٢٩٨ من كتاب (ثقافتنا فى مواجهة العصر) ط دار الشروق يناير ١٩٧٦.

(٢) ص٣٠٢ (ثقافتنا فى مواجهة العصر).

(٣) نفسه ص٢٩٦. وانظر ص٢٨٢ وحتى (العلمانى الصهيونى) الذى لا يؤمن بالعقيدة اليهودية.

ومبعث دهشته أن القومية حينذاك فى أوروبا كانت هى الأيديولوجية السائدة حيث اختفت فى طياتها العقائد الدينية. أما اليهود فقد استمسكوا بعقيدتهم ولم يقلدوا أهل أوروبا المسيحيين.

يعرف د. زكى الصهيونية بقوله: (حركة استعمارية، فيها مقومات الحركات الاستعمارية التى أنبتتها، ثم زادت عليها أنها تخفت فى جبن وخبثت فى نذالة، فهى الأفعى تسللت مقنعة بعنصر ودين)[١].

وهو تعريف جامع، يوضح النشأة والصفات، فهى ابنة الاستعمار البريطانى، وقد اعتمدت على جيوشه فى التسلل إلى فلسطين، وسماتها العنصرية (شعب الله المختار)، وهدفها الوصول إلى (أرض الميعاد).

ويستمد من التاريخ ما يبرهن به على أن الغلبة لا للقوة، بل للحضارة والثقافة، فإن جنكيز خان كان يرى السعادة، أقصى السعادة، فى سحق العدو سحقًا حتى يجثو على قدمى المنتصر الذى يسلب المهزوم كل ما يملك[٢].

واستمر فى اجتياح البلاد ونهبها إلى أن هزمه العرب المسلمون وكانوا أصحاب حضارة.. (فليت عظمة الإنسان فى أن ينتفخ كالفقاعة الفارغة، ثم ينفجر جداره الهش، فيذهب كأن لم يكن منذ لحظة، بل عظمة الإنسان هى أن ينتج ما يمكث فى الأرض تراثًا للإنسانية خالدا)[٣]. ونقول: وأى تراث أفضل للإنسانية من تراث مستمد من الوحى الإلهى؟.

وتمضى **حركة التاريخ فى العصر الحديث** أيضا لتدلل على غلبة العقائد والأفكار، فقد انسحبت جيوش إنجلترا وفرنسا من البلاد التى استعمرتها، وكذلك أخفقت أمريكا بتأييدها لكاى شيك صندماوتس تونج المؤيد بالفكر والعقيدة (بالرغم من بطلانها).. وعلى أية حال فقد (ذهبت الجيوش وبقيت العقائد والأفكار).

ولن يسفر الصراع بين إسرائيل والعرب فى نهايته عما تقدم، فلئن كانت عدة

---

(١) ثقافتنا.. ص٣٠٠.

(٢) نفسه ص ٣١١.

(٣) نفسه ص٣١٣.

إسرائيل هى قوة السلاح والعلم، فقوة الأمة العربية مكمنها إيمان بعقيدة وإيمان بمجد قديم(1)(*).

ويقرر د. نجيب فى النهاية: (هذه هى حركة التاريخ، ولن يشذ فيها صراع الأمة العربية مع إسرائيل، فمع إسرائيل القوة التكنولوجية الأمريكية مضافة إلى أساطير، ومعنا التراث التاريخى الحى والفكر الثورى أضفنا إليهما القوة التكنولوجية..)(2).

وكانت كتاباته فى نهاية حياته تحولاً من الفكر العلمانى إلى الفكر الإسلامى، وهى فى ذاتها شهادة كبرى على اضمحلال المشروع التغريبى، فقد كتب شارحًا أحوال التنويريين، وكان رحمه الله واحدًا منهم، ووصف نفسه أنه كان واحدًا من آلاف المثقفين العرب الذين ما أن فتحت عيونهم على فكر أوروبى قديم أو جديد، حتى سيقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنسانى الذى لا فكر سواه، لأن عيونهم لم تفتح على غيره لتراه، ولثبتت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات (أى من كتاب: تجديد الفكر العربى) أعوامًا بعد أعوام: الفكر الأوربى دراسته وهو طالب، والفكر الأوربى تدريسه وهو أستاذ، والفكر الأوربى مسلاته كلما أراد التسلية فى أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب فى التراث العربى لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة، كالأشباح الغامضة يلمحها وهى طافية على أسطر الكاتبين.. استيقظ صاحبنا - كاتب هذه الصفحات - بعد أن فات أوانه أو أوشك، فإذا هو يحس الحيرة تؤرقه، فطفق فى بضعة الأعوام الأخيرة، التى قد لا تزيد على السبعة أو الثمانية يزدرد تراث آبائه ازدراد العجلان)(3).

موقف الإمام حسن البنا من المنظور الإسلامى

كان موقف الإمام البنا واضحًا منذ البداية من الوجهة الدينية، مبينًا أن الخصومة مع اليهود ليست دينية ولكن لأسباب سياسية واقتصادية.

---

(1) نفسه من ص ٣١٨ إلى ص ٣١٩ بتصرف يسير.

(*) .. ويبدو أنه كتب هذا المقال أيام تطبيق النظام الاشتراكى فأضاف: (ثم إيمان بفكر اشتراكى جديد..) ونحن لا نوافقه على ذلك، لأنه بعد إخفاق هذا النظام الاقتصادى قد استبدل به ما يسمى (بالاقتصاد الحر)..

(2) نفسه ص٣١٩.

(3) ص ٥- ٦ من كتاب (تجديد الفكر العربى) دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٢م.

قال أمام «لجنة التحقيق البريطانية الأمريكية بجلستها الأخيرة فى ١٩٤٦/٣/٥:
(باسم الإخوان المسلمين أؤيد ما أعلنه العرب وزعماؤهم ومندوبوهم وكذلك الجامعة العربية.

والناحية التى سأتحدث عنها نقطة بسيطة من الوجهة الدينية، لأن هذه النقطة قد لا تكون مفهومة فى العالم الغربى، ولهذا فإنى أحب أن أوضحها باختصار فأقرر أن خصومتنا لليهود ليست دينية لأن القرآن الكريم حض على مصافاتهم ومصادقتهم، والإسلام شريعة إنسانية قبل أن يكون شريعة قومية، وقد أثنى عليهم وجعل بيننا وبينهم اتفاقا ﴿**وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وحينما أراد القرآن الكريم أن يتناول مسألة اليهود تناولها من الوجهة الاقتصادية والقانونية، فقال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾ [النساء: ١٦٠].

ونحن حين نعارض بكل قوة الهجرة اليهودية، نعارضها، لأنها تنطوى على خطر سياسى اقتصادى، وحقنا أن تكون فلسطين عربية..)[١].

وعندما صدر قرار تقسيم فلسطين وكان له وقع الصاعقة على العرب جميعًا ورفضوه، خطب الإمام حسن البنا فى (مظاهرة مصر الكبرى) فى ١٩٤٧/١٢/١٥، وكان مما أعلنه آنذاك (إن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد فى سبيل فلسطين..).

وكانت الهدنة الأولى أو الكارثة العظمى كما سمّاها الأستاذ محمود عبد الحليم -رحمه الله- فكتب الإمام مقالا فى جريدة الإخوان اليومية فى ١٩٤٨/٦/٣ سجل فيها ثلاث حقائق:

أولا: أن العصابات الصهيونية ارتكبت من الفظائع ما تشيب له الرؤوس وشردت عشرات الألوف من عرب فلسطين.

---

(١) جـ١ ص٤٠٩، ٤١٠ من كتاب (الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ) محمود عبد الحليم - دار الدعوة بالإسكندرية ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

الثانية: أن الجيوش العربية انتصرت وبيدها زمام الموقف والحمد لله، وأن كل يوم يمضى يزيدها ظهورا وتمكنًا.

الثالثة: أن الجامعة العربية أضاعت فرصًا كثيرة فى سبيل الظفر بتقدير الرأى العام العالمى!

وهذه الحقائق الثلاث تفرض على الدول العربية أن ترفض كل اقتراح بالهدنة إلا بعد دخول جيوشها إلى تل أبيب وطرد العصابات الآثمة من حيفا ويافا وعكا وطبرية.. وترد المهاجرين من عرب فلسطين إلى ديارهم[1].

وربما يبدو لأول وهلة التعارض بين موقفى الإمام الأول والثانى، ولكن إذا أخذنا فى الاعتبار مناسبة كل منهما فسيتضح التوافق بينهما إذ عندما عبر عن رأيه فى الموقف الأول انطلق من آيات القرآن باعتبار اليهود من أهل الكتاب. ولكن عندما كشروا عن أنيابهم وانتشروا كعصابات تقتل وتذبح وتشرد أهل فلسطين، فلا علاج إلا بمقابلة ذلك بالقتال والجهاد وبذل الأرواح لإنقاذ فلسطين. وجنّد الآلاف من الإخوان المسلمين للمشاركة فى الجهاد مع إخوانهم أهل فلسطين، وقد أبلوا بلاءً حسنًا بشهادة قواد الجيش المصرى آنذاك.

وقد أجج الإمام البنا العاطفة الدينية لأنه كان يعلم أن اليهود يسعون إلى تحقيق حلمهم الدينى بالرجوع إلى أرض الميعاد، واستجاب له الشباب من المتطوعين حتى قبل دخول الجيوش العربية أرض فلسطين للدفاع عن المسجد الأقصى. يقول الدكتور هيكل: (كان المتطوعون يسافرون من مصر ومن سائر البلاد العربية إلى **بلد المسجد الأقصى،** تدفعها أكثر الأمر عاطفة دينية مشبوبة. وهذه العاطفة هى التى أدت بكثير من الإخوان المسلمين لينضموا إلى صفوف هؤلاء المتطوعين، وليعاونوا الفلسطينيين للدفاع عن وطنهم)[2].

ولم تكن أجهزة رصد الحركات الإسلامية بغافلة عما يدور بأرض فلسطين، فقامت إحدى كبريات الصحف الأمريكية بالكتابة عن حسن البنا ما ملخصه: «وصفه شكلا وثقافة وسنًا وذكاء ومقدرة على حسن الأداء وعلى تملك قلوب

(١) باختصار: نفسه ص٤٢٣.

(٢) د. هيكل المذكرات جـ٣ ص٤١.

سامعيـه وعلى سيطرته على المجتمع الإسلامى، ثم عقـبت على ذلك بقولها: إن هذا الرجل هو أقوى رجل فى العالم الإسـلامى اليوم، ولا يمكن أن يغلب إلا أن تصير الأحداث أكبر منه)[١].

ودأبت الصحف الأوروبية والأمريكية على نشر مقالات للتحذير من الإمام البنا ومن حركة الإخوان المسلمين، ومـنها ما كتبته فتاة صهـيونية فى جريدة (الصنداى ميرور) تطالب هيـئة الأمم المتحدة بإرسال قوة دولية إلى فلسـطين لتواجه الإخوان المسلمين، وخـتمت مـقالها بقـولها (وإذا لم يدرك العالـم هذه الحقيـقة فى وقت قريب، فإن أوروبا ستشهد ما شهدته فى العقد الماضى من القرن الحالى إذ واجهتها حركة فاشية نازية، فـقد تواجهها فى العقد الحالى إمبراطورية إسلامـية فاشية تمتد من شمالى إفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندى)[٢].

موقف الدكتور محمد حسين هيكل من المنظور السياسى:

لشهادة الدكتـور هيكل قيمتها التـاريخية المهمة، لمواقعه التـى احتلها فى المجال السيـاسى فى مصر؛ إذ رأس تحـرير جريدة (السيـاسة) لسان حال حـزب الأحرار الدستوريين، وكان وزيراً للمعارف ثلاث فترات امتدت إلى ثلاثة وأربعين شهرًا - وهو الذى أنشأ جامعـة الإسكندرية - وكان وزيراً للشئون الاجتماعـية ثلاثة أشهر وأيامًا، ورئيسًا لحزب الأحرار، ثم رئيسًـا لمجلس الشيوخ، وعاش الفترتين الملكية والثورية، والتزم كما كتب فى مقدمة مذكراته الحق (**إننى توخيت الحق غاية جهدى فيما دونت**)[٣]، وشهد بأن الحيـاة النيابية فى مصر لم تمنع الطغـيان أو الديكتاتورية المبرقعة حينًا، والسافرة أحيانًا[٤] مشيراً فى مـوضع آخر من مذكراته إلى أن الملك فاروق ورث عن والده التمسك برأيه فلا يستطيع أحد أن يزحزحه عنه[٥].

هذا، وقد خصص الجزء الأكبر من مذكراته السياسية (الجزء الثالث) لتناول نكبة فلسطين من كـافة جوانبـها، مـحلّلاً ومعلّلاً للأحـداث بدراية وعمق. ولم تفـته

(١) الإخوان المسلمون جـ١ ص٤٣٦ محمود عبد الحليم.
(٢) الإخوان المسلمون ص٤٩١.
(٣) ص ٢١ وانظر ص ١٦٠.
(٤) نفسه ص ٢٠.
(٥) نفسه ص ١٣٣/ ١٣٤.

الإشادة بحركة الجماهير العربية فى مقاومة الهجرة الصهيونية، وخصّ بالذكر الشعب الفلسطينى نفسه بقيادة أمين الحسينى مفتى القدس حيث اتجه إلى العرب والمسلمين طالبًا المؤازرة، متزعّمًا حركة المقاومة ودعا إلى عقد مؤتمر إسلامى فى القدس، وقد لبّى دعوته كثيرون من الأقطار الإسلامية المختلفة وكان مجهود أبناء فلسطين مجهودًا قوميّا صادقًا، **وكانت ثورتهم عنيفة غاية العنف بينما كانت الحكومات العربية كلها خاضعة للنفوذ البريطانى**[1].

وهزت ثورة سنة ١٩٣٦ البلاد المقدسة وهزت غيرها من البلاد العربية فأجبرت الحكومات على تغيير سياستها السلبية إزاء القضية الفلسطينية (لذلك دعا - أى مفتى فلسطين - غير الرسميين من أبناء مصر المعنيين بهذه الحركة، وفى مقدمتهم محمد على علوبة باشا إلى مؤتمر عربى يعقد بمصر فى أوائل سنة ١٩٣٨ لمناصرة قضية فلسطين. واشترك فى هذا المؤتمر عدد كبير من ذوى المكانة فى البلاد العربية وفى البلاد الإسلامية)[2].

وفى إيجاز دقيق صوّر دخول الجيوش العربية إلى أرض فلسطين وانطباعات الشعوب المتحمسة لإلقاء اليهود فى البحر، قال: (وهللت الشعوب العربية - وكانت مخدوعة - لهذه الخطوة وأخذت البلاغات الرسمية المصرية من يومئذ تروى تقدّم الجيش المصرى فى بلاد بيت المقدس، فيقرأها الناس فى الصحف ويسمعونها فى الإذاعة فلا يخامرهم ريب إزاء لهجتها الحاسمة فى أن القضاء لا محالة نافذ فى «إسرائيل المزعومة» وفى أن تل أبيب، عاصمة «إسرائيل المزعومة» سوف تسقط فى يد الجيش المصرى بعد أيام. ومرّ أسبوع وأسبوعان واقتربت الجيوش المصرية من تل أبيب ثم إذا بها تقف فجأة وتطيل خطوطها فى اتجاه القدس)[3].

وكانت النهاية الحزينة لهذه الحرب عقب توقّف القتال فى شكل هدنة ثم استئناف القتال لثلاث مرات متوالية، شعرت القوات العربية بعدها بأنها اليهود أكثر استعدادًا مما كانوا فى أول الحرب (وشعرت مصر بأن هذه الحرب موشكة أن تطول

---

(١) جـ٣ ص ١٥.

(٢) نفسه جـ٣ ص ١٦.

(٣) نفسه ص ٢٨٥.

وأن القضاء على إسرائيل أصبح عسيراً، فلما عرضت الأمم المتحدث عقد هدنة دائمة بين العرب واليهود تفاوضت مصر وعقدت هذه الهدنة الدائمة ووقعتها مع مندوب دولة إسرائيل، وكذلك فعلت الدول العربية الأخرى)[1].

وعلل أحد أسباب ضعف الجيوش العربية بانسحاب جيش الأردن من اللد والرملة، ثم كانت هناك اتصالات بين إسرائيل وشرق الأردن، وفوّض العراق شرق الأردن فى التحدّث باسمه، وانسحبت قوات لبنان، ثم تساءل بعد ذلك (تُرى أيكون الأمر قد بلغ إلى حيث استطاعت إسرائيل واستطاعت السياسة الدولية أن تفرّق بين الدول العربية، وأن تصل بين كل واحدة منها وبين إسرائيل لعقد صلح منفرد؟)[2].

وأجاب بأنه لم يكن لديه إجابة بالرغم من أنه رئيس الهيئة التشريعية بمصر، ولكنه علم بعد مقابلته للملك فاروق أن اليهود اتصلوا به للغرض نفسه. قال الملك (لقد بلغ من أمر هؤلاء القوم أن خاطبونى مباشرة بخطاب بعثوا به وكان أمامهم طريق الحكومة أو طريق الديوان)[3].

وعبرّوا بذلك عن منتهى الغطرسة والإحساس بالقوة والنفوذ المستند إلى قوى انجلترا وأمريكا وهيئة الأمم التى قتلوا مندوبها (برنادوت) لاعتراضهم على مشروع التقسيم الذى اقترحه ولم يكن لمصلحتهم.

وكانت هذه هى الحقيقة المرّة سجلها الدكتور هيكل حيث عايشها، ولكن دأب الإعلام الحكومى على التهوين من شأن إسرائيل والإصرار على تسميتها (بإسرائيل المزعومة)!.

وسجّل فى مذكراته الكثير من الملابسات المحيطة بالحرب، كإقدام الحكومة عليها من غير استعداد، وذهاب بعض المصريين عسكريين ومدنيين لعقد صفقات فى الغرب لشراء الأسلحة (وكان كثيرون منهم مثال الطيش والخفّة، وكان أكثر تفكيراً فى منفعته الخاصة منه فى سلامة دولته أو وطنه. وبدأ الساسة فى مصر يتحدثون

(١) نفسه ص ٢٨٥.

(٢) جـ٣ ص ٥٥ المذكرات.

(٣) جـ٣ ص ٥٦.

عن موقف الملك من هذه الحرب وما كان بينه وبين ملك شرق الأردن، الملك عبد الله بن الحسين الهاشمى، من تنافس أيهما يسبق إلى صلاة الجمعة فى المسجد الأقصى ببيت المقدس)[١].

وفى حديثه عن ثورة يوليو عام ١٩٥٢، أطلق عليها اسم (الانقلاب العسكرى)[٢] وأزاح الستار عن سرّ علمه من محمود عزمى أثناء تواجده فى أمريكا فى شتاء ١٩٥١ - ١٩٥٢ نقلاً عن سياسى أمريكى أخطره بنبأ مهم، وهو عدول وزارة الخارجية الأمريكية عن سياسة الاعتماد على الملوك فى الشرق الأوسط (ولم يذكر لى الأستاذ عزمى أكثر من هذه العبارة فى هذا الصدد، وإن رتبّ عليها ما رتبّ من استنتاج)[٣].

وسنوجز الأفكار الرئيسية التى دوّنها فى مذكراته للإحاطة بأهم جوانب نكبة فلسطين، وتتلخص فى الدعم الأمريكى اللامحدود لإسرائيل ومنه التحايل لإصدار قرار التقسيم لصالحها مخالفةً لائحة هيئة الأمم المتحدة بلا وازع من ضمير، وتردد الدول العربية وتخبّطها فى إصدار القرارات بلا سياسة ثابتة ولا تخطيط للمستقبل البعيد (فلم تكن للعرب سياسة كالسياسة الصهيونية تقررت منذ عشرات السنين، فالعرب لا يعملون لتنفيذها بصبر ومثابرة كصبر اليهود ومثابرتهم)[٤].

كما يسجّل تأييد كلٍّ من أمريكا وروسيا كدولتين قويّتين سياسة الصهيونيين.

١- دور أمريكا فى هيئة الأمم المتحدة:

وبحكم تواجده فى هيئة الأمم المتحدة كان يأمل فى كسب الأنصار من أعضاء هذه الأم ليظفر العرب بالثلث فيسقط قرار تقسيم فلسطين بين العرب واليهود وهو قرار ظالم، ولكن أمريكا تدخلت بنفوذها وهددت ممثلى الأمم الصغيرة التى وعدت العرب بالتصويت لكى يمتنعوا عن الحضور، وسارت الإشاعات بأن البوليس الأمريكى تدخل فعلاً لمنعهم (ومع هذا لم ينل قرار التقسيم ثلثى أصوات

---

(١) جـ٢ ص ٢٨٦.
(٢) نفسه ص ٢٠.
(٣) ص ٣١٦ جـ٢.
(٤) جـ ٣ ص ٣٨.

الحاضرين . . . وأبدى اعتراضه على مخالفة الجمعية العامة لنص وارد فى ميثاق الأمم المتحدة واعتبره أمرًا غير مقبول)[1]!

وقد حاول الدكتور هيكل - مدفوعًا بالمثل العليا - إقناع الأمريكيين بخطأ موقفهم فى تأييد إسرائيل، ولكن هيهات. وسجّل خيبة أمله فكتب: (عادت وفود الدول العربية إلى بلادها وقد أيقنت أن **الحق والعدل ألفاظ لا مدلول لها فى قاموس السياسة، وأن الدول صاحبة القوى المادية عسكريًا واقتصاديًا هى صاحبة الكلمة النافذة، وأن التفكير لذلك فى عالم أفضل، أو فى سلام عالمى دائم، لا يعدو أن يكون ضربًا من أمانى الخيال، وأن العالم الإنسانى الذى تقدم فى العلم وسلطانه على الطبيعة لا يزال هو هو، توجهه سلائقه الحيوانية التى توجه السباع وسائر المفترسات غير الناطقة**)[2].

وليس هناك وصف أبلغ وأدق أيضًا مما لا يزال تعانيه شعوبنا العربية والإسلامية ونحن فى بداية القرن الحادى والعشرين. فهل العالم يتقدم أو يتأخر؟!

٢- خيانة إنجلترا دولة الانتداب:

لجأت إنجلترا إلى سياسة مزدوجة، فقد بعثت إلى الدول العربية جميعًا تحذرها من محاربة إسرائيل وتخوفها مغبة هذه الحرب (حسب رواية عبد الرحمن عزام إلى هيكل).

وفى الوقت نفسه أوعزت عن طريقه رجالها **الرسميين أو غير الرسميين** تشجع الدول العربية على دفع قواتها إلى فلسطين، ووعد هذه الدول بالمساعدة، ثم وقفت موقف المتفرج تمد يد العون تارة وتقبضها أخرى، مما دفع عزام باشا بترجيح (أن إنجلترا بدأت تخون الدول العربية بعد أيام معدودة من بدء دخول قواتها فى فلسطين)[3].

٣- تردد الدول العربية بين دخول جيوشها إلى فلسطين أو الامتناع:

يقف الدكتور هيكل أمام الانقلاب المفاجئ فى سياسة الدول العربية، فقد كانت هذه الدول مصممة - إلى يوم ١١ مايو سنة ١٩٤٨- على ألا تدخل قواتها

(١) جـ٣ ص ٣٩/ ٤٠.
(٢) نفسه جـ٣ ص ٤٠.
(٣) المذكرات جـ٣ ص٤٤.

الرسمية أرض فلسطين. ثم تغير موقفها فجأة بعد ذلك اليوم.

ورأى البعض أن الدول العربية فضلت القيام بمظاهرة عسكرية وتتوقع إنكار الأمم المتحدة تصرفها لأنه خروج عن قرار التقسيم وقد تفرض عليها عقوبات اقتصادية (وعند ذلك تنسحب معلنة أنها تلقى على الأمم المتحدة تبعة موقف ظالم فى الحياة الدولية تخشى آثاره على السلام العالمى)[1].

ويعلق الدكتور على هذا التحول المفاجئ بقوله:

(ليس طبيعيًا ألا تكون لهذا الانقلاب مقدسات، لعل الساسة العرب لم يقفوا كلهم على تفاصيلها، لكن بعضهم على الأقل كان يعرف الكثير من هذه التفاصيل)[2] ثم يرجو من بعض العارفين أن يميط اللثام عن الحقيقة لكى تفيد الدول العربية من درس قاسٍ وتجربة مؤلمة.

ونرى فى هذا الموقف المتأرجح دلالة على التخبط فى اتخاذ القرارات - خاصة فى أمور خطيرة كإعلان الحرب على دولة أخرى- ومن ثم تفتقد مثل هذه القرارات الأسس السليمة والدراسات العلمية المستوفاة، فلا تدهشنا توقع الهزائم!.

ودون الخوض فى تفاصيل المعارك العسكرية، إلا أن الدكتور هيكل لاحظ أن ما تنشره الصحف يوميًا عن أنباء الجيوش وتقدمها وأنباء الطائرات المحاربة وإغاراتها على تل أبيب هذه الأنباء **غير مطابقة للحقيقة**، كما لاحظ من متابعته للبلاغات الرسمية أن الجيوش العربية لا تلقى مقاومة لأنها تتقدم فى المناطق التى خصصها قرار الأمم المتحدة للعرب من أهل فلسطين، وإنها إذا التحمت يومًا بقوات معادية، فلن تتقدم بمثل هذه السرعة[3].

القيادة بالقاهرة لا فى مواقع القتال، ويضرب مثالين:

أحدهما: أن قائد الميدان فى (بئر سبع) رأى أن الاستيلاء على الموقع فى اليوم نفسه يكلف الجيش تضحيات وخسائر يمكن تفاديها إذا حوصرت بئر سبع ثلاثة

---

(١) المذكرات جـ٣ ص٤٤.

(٢) المذكرات جـ٣ ص٤٥.

(٣) المذكرات جـ٣ ص٤٥.

أيام (وكان جواب حيدر باشا: كلا لابد من الاستيلاء عليها اليوم بكل ثمن فلهذا أثر سياسى مطلوب فى مصر)[1].

الثانية: تسبب التردد فى الاتصالات التليفونية بين القيادة بالقاهرة وبين القيادة البحرية فنسفت البارجة (مصر)، واضطرت البارجة الأخرى للانسحاب مخافة أن يصيبها طوربيد آخر ينزل بها إلى قاع البحر[2].

وبعد أن ساق هذين المثالين تذكيرًا بأن حملة فلسطين كان مركز قيادتها فى القاهرة، وهذا وضع لم يحدث من قبل! ويفسره بأن الذين أُسندت لهم القيادة المحلية فى فلسطين (لم يكونوا موضع الثقة بالقدر الذى يسمح لهم بتحمل التبعة عن تصرفاتهم أمام الوزير، فكان الوزير يتولى القيادة بنفسه من مكتبه)[3]!

ويرى أن أسباب نجاح اليهود فى إقامة إسرائيل يرجع إلى:

- اشتراك اليهود فى الحرب إلى جانب الحلفاء اشتراكًا فعليًا، وألفوا جمعيات من المحاربين كان لها أكبر الأثر فيما حدث من تطور، كانت فرقة (الهاجاناه) اليهودية من الفرق التى شاركت فى الحرب بنصيب موفور، وقد تألفت فى ظل الوكالة اليهودية جماعات مسلحة انقلبت من بعد جماعات (إرهابية) تسمت إحداها باسم (شترن) وتسمت أخرى باسم (اجون زفان ليومى)[4].

وثق العرب بالإنجليز ولكنها فاجأتهم عندما أعلن الوفد البريطانى فى اللجنة الخاصة بموضوع فلسطين أن الحكومة البريطانية قررت إنهاء الانتداب على فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ وأنها ستسحب كل قواتها من هناك فى أمد أقصاه هذا التاريخ.

ويتساءل الدكتور هيكل (ما معنى هذا؟ وما عسى أن يترتب عليه من نتائج؟ وكيف يمكن لعرب فلسطين أن يواجهوا الموقف يومئذ **وقد جرت السياسة البريطانية فى أثناء الحرب على نزع سلاحهم وإمداد التشكيلات اليهودية بالسلاح)؟** [5].

---

(١) المذكرات جـ٣ ص٤٦.

(٢، ٣) نفسه ص٤٧.

(٤) مذكرات فى السياسة المصرية جـ٣ ص٢٢.

(٥) نفسه ص٣١.

هذا، وقد جنت إنجلترا ثمار هذا التسليح إذ كان اليهود يثورون على الحكم البريطانى ثورة صريحة، وجعلت تشكيلاتهم العسكرية ومنها الهاجاناه وشترن تقاوم الأحكام التى يصدرها القضاة الإنجليز على اليهود فى فلسطين، وتهاجم السجون وتخرج المسجونين.

ولم تثر إنجلترا لكرامتها وتتخذ موقفًا للرد على اليهود كما كان يتوقع الدكتور هيكل بل آثرتهم على العرب.

وترجع مفاجأة العرب إلى جهلهم لما يدور من اتفاقات بين رؤساء اليهود والإنجليز، وبينما كان اليهود المسلحون يمضون قدماً فى تنفيذ أغراضهم جلس بعض رؤساء العرب لافتقادهم الرؤية والتقدير الصحيح يتشككون فى إمكان إنشاء (دولة صهيونية فى فلسطين)، فكان نورى السعيد (مندوب العراق) يرى أنها لن تبقى خمسة عشر يومًا، بينما ظن الأمير فيصل (رحمه الله الذى أصبح ملكًا للسعودية فيما بعد) أن تبقى بما لديها من السلاح الباقى من زمن الحرب سنتين. ولكن وزير المستعمرات البريطانى بما لديه من أسرار ومعرفة بأسلحة اليهود بدقة قال (لعلها تستطيع أن تبقى خمس سنوات)[1].

- كانت خيانة الإنجليز سافرة (وكان على حكام العرب توقع ذلك)، إذ أذاع الدكتور هيكل سرا يكشف حقيقتهم، إذ أنهم سلموا فلسطين لليهود بزعم إنهاء الانتداب الذى فاجأ العرب لغفلتهم، ولم يفاجئ اليهود الذين مهدوا له بواسطة قتل الإنجليز بأسلحتهم.. وبينما خانوا مسئوليتهم فى (الانتداب) كانوا يعترفون فى السر الذى أذاعه هيكل (إلهاب النار بآبار البترول الموجودة بمصر إذا اضطرهم الألمان للانسحاب منها)[2].

- كان حكمه صائبًا على دوافع دخول الجيوش العربية، وبحكم اطلاعه على مجريات الأمور السياسية بمصر، فقال فى مجال تبرير تصرف النقراشى إعلان الحرب على إسرائيل أنه أراد **تغطية الملك فاروق** الذى أمر وزير الدفاع محمد حيدر

(١) نفسه ص٣٣.

(٢) مذكرات فى السياسة المصرية جـ٢ ص٢٢٢.

باجتيـاز فرق الجيش المصرى الحـدود إلى أرض فلسطين بدون علم رئيس الوزراء، ومخالفـا بذلك الدستور. ثم أردف هيكل قائلا: (ولعل اعتـبارات أخرى جاوزت فى نظره احترام الدسـتور هى التى جعلته يغض عن هذا الاحتـرام)، ثم يشرح ما يقصده بالاعتبارات الأخرى بأنها الوضع الداخلى فى البلاد (فقد كانت الأمور فيها تتطور فى اتجاه يدعو إلى كثير من القلق ومن الحذر ومن التفكير. وقد بلغ من هذا التطور أن أضرب رجـال البوليس.. واضطر حـيدر باشا إلى إنزال قـوات الجيش لحفظ الأمن فى القـاهرة والإسكندرية.. **والالتجـاء إلى الحرب لصـرف الأنظار عن المشـاكل الداخلية، سيـاسة لجـأت إليهـا الدول الديكتـاتورية مـرارا فى التاريخ القـديم والحديث)**[1].

*****

(١) مذكرات جـ٢ ص٢٨١.

الفصل الثامن

كيف نكشف الغمّة عن محنة الأمّة؟

[المشروع الإسلامى لا العلمانى هو المنقذ فى صراع الوجود]



تمهيد:

إن الأمة فى محنة حقيقية وابتلاء شديد، لن تخرج منه إلا باستئناف العمل من جديد بالمشروع الإسلامى الذى ألقته وراء ظهرها مرغمة أو طائعة.

وسبق القول بكتاب (الصحوة الإسلامية - عودة إلى الذات) إن من أولويات العودة إلى الذات مراجعة المفاهيم والتصورات - كالعلمانية والقومية - التى غُرست فى عقولنا ونفوسنا أيام هيمنة الاستعمار العسكرى - الذى انحسر سلطانه وبقيت آثاره، ولعل أبعدها شأنًا تلك الآثار الثقافية التى حولت أذهان المسلمين عن خط السير الأصلى الذى سارت فيه أمتهم منذ عصر النبى ﷺ، فأصبح شأنهم فى ذلك - كشأن قافلة كانت تسير فى طريقها الصحيح، ولكن اعترضها الضباب فترة فحجبت الرؤية الصحيحة فتوقفت، وكادت أن تتراجع، ثم ظهر فى الطريق من أراد خداعها زاعمًا أنه يستطيع إرشادها إلى الطريق الصحيح، ولكنه فى الحقيقة كان مخادعًا سيئ النية، يريد تسليم القافلة إلى أعدائها المتربصين بها.

ولما لاحت ضياء الشمس وانقشع الضباب، أصبح الطريق أمام القافلة واضحًا، فبدأت تستأنف سيرها من جديد. هذه هى الصورة المصغّرة لحركة اليقظة الإسلامية بعد فترة الغياب عن الذات)[1].

ولزيادة الإيضاح نضيف:

لقد طُبقت الأيدولوچيات الغربية وتحوّلت من مجال التنظير والغزو الفكرى إلى التطبيق فى كافة مجالات الحياة، وأصبحنا مقلدّين للغرب فى الاجتماع والسياسة

---

(١) الصحوة الإسلامية.. عودة إلى الذات ص ٢٧. د. مصطفى حلمى، دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

وقد حددّ السلطان عبد الحميد - يرحمه الله تعالى - طريق النهضة بقوله (فإذا كنا نريد أن نحيا من جديد وأن نستعيد قوتنا ونبلغ عزتنا التى كنا فيها، علينا أن نرجع إلى المعين الذى أخذنا منه تلك القوة، فالخير كل الخير فى رجوعنا إلى إسلامنا وإلى شريعتنا، والشر كل الشر فى تقليدنا للحضارة الأوروبية الزائفة ... وبالمقارنة مع حضارتنا قال (وفى الوقت الذى قام فيه الصليبيون بغزو البلاد الإسلامية بحجة إنقاذ بيت المقدس، فدمّروا البلاد وقتلوا العباد، وقفنا نحن فى وجوههم فأثبتنا مبلغ عظمة أمتنا ..

ص ١٦٥ من كتاب: السلطان عبد الحميد - مذكراتى السياسية (١٨٩١ - ١٩٠٨) مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

والاقتصاد والتعليم والصحافة والأدب والأنشطة الرياضية والفنية، وفرضت الحكومات الثورية هذه النظم بالقوة، وكفلت لخطة التعريب بيئة ممتازة للتنفيذ، فماذا كانت النتيجة؟

ما الذى أفدناه من **التنوير**[*] والتطوير الغربيين؟ إن التجربة ماثلة أمامنا فى المقارنة بيننا وبين دول أخرى فى آسيا وأشدّها هولاً الهزيمة فى ميادين القتال والوقوع فى مستنقع النكبة الفلسطينية **التى تجمعّت فيها كل مظاهر السقوط للتجربة العلمانية الغربية**.

ولم يبق أمامنا إلا استئناف حياتنا فى كافة دروبها وبالنموذج الحضارى الإسلامى، لأن ما يُسمى بالاستنارة أو العقلانية الغربية لم تمنع الأحداث الرهيبة كما صورّها د. مراد هوفمان: حربين عالميتين وردع نووى وجرائم ضد الشعوب كما سيأتى ويقول: (يمكن للمفكرين الغربيين أن يستنتجوا - وقليل منهم (ومنا) فعلوا، أن الأحداث الرهيبة للقرن الحالى - أى الماضى - نفت إمكانية أن تعتمد الأخلاق على التقدم، تسليم الإنسان للأوامر الأخلاقية ولا شىء غير ذلك، يمكن أن يضبط الأعمال الأخلاقية، للأفراد والجماعات) ولنا الفخر أن حضارتنا قامت على أساسها[1].

وفى الفترة الأخيرة تعمّد بعض (التنويريين) الإساءة إلى تراثنا بزعم (التنوير) ولكن انكشفت حيلهم. قال الأستاذ الشاعر فاروق جويدة:

[ولهذا نخطئ أحيانًا حينما نتصور ذلك الفصل التعسفى بين التنوير فى الفكر، وقضايا الاستغلال السياسى للدول الفقيرة].

(*) يذكرنا مؤلف كتاب (**اليهود فى المعسكر الغربى**) بشعار الماسون - أى (النواريين)، نسبة إلى لوسيفير، إبليس، رمز النور عند اليهود (داود عبد الغفور سقراط ص ١٥ - دار الفرقان - عمان ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م[1]).

(١) ص ٢٩ الإسلام سنة ٢٠٠٠م، مراد هوفمان.

---

(١) ويذكر الأستاذ أنور الجندى أنه ثبت بوثائق أكيدة فى بعض محافل الماسونية قولهم: إن إبليس هو رئيسهم وأنه هو قائد الإصلاح البشرى وهو المطلق لحرية العقل: وأورد نصًا لليهودى لمى يقول فيه [أشيد بذكرك يا شيطان يا ملك وليمتنا واقرئك سلامى الطيب يا إبليس وأرفع إليك بخورى المقدس أنت الذى قهرت إله الكهنة] من مجلة الشرق ص ٤٤١.

ص ٢٠٢ كتاب المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية، للأستاذ أنور الجندى، ط دار الاعتصام بمصر سنة ١٩٧٧م.

وإذا كان تنوير الفكر قد نجح أحيانًا فى إخفاء الوجه الآخر إلا أنه قد عجز عن إخفائه تمامًا أمام كل صاحب بصيرة.

.. الانبهار الواعى الذى يدرك فيه الإنسان ما لدى الآخرين دون أن يفرط فى أشياء كثيرة عظيمة بين يديه][1].

وقال (.. ولكن إذا كان التنوير يحاول أن يغلف السياسة بالفكر وأن يخفى وجهه القبيح أمام مناهج دراسية.. أو كتّاب مغرضين.. أو جامعات لها أهدافها.. أو اختراق لفكر الأمّة ومقوّماتها وجذورها الحضارية أو محاولة تشويه تراث الشعوب، وتبديد ثرواتها الإنسانية، وتغييب وعيها وامتهان مقدساتها، فهنا نحن أول الرافضين..

وعن **الاستنارة والعقلانية** المطلوب منا اقتباسها من الغرب يتساءل الدكتور مراد هوفمان:

(هل لم يستطع الناس أن يتحققوا أن الحكم المستنير للعقلانية والإنسانية لم يمنع حربين عالميتين وحشيتين، استخدمت فيها قنابل الغاز والقنابل النووية، والقصف الاستراتيجى على المدنيين فى مدن مثل درسن، كما فُهم من الجنرال البريطانى (بومبرهارى) الذى كُرّم بنصب تذكارى فى بريطانيا؟

هل رأى العالم جرائم أسوأ مما ارتكبه ستالين فى الاتحاد السوفيتى ضد شعبه، وارتكبه الألمان والفاشيون الآخرون ضد اليهود؟ (ولا ننسى فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان)؟

هل استراتيجية مبنية على الردع المتبادل مع التهديد بالإبادة النووية تعتبر عقلانية؟

يمكننى أن أستمر، ولكن لن أفعل)[2].

ويبدو من رأى الدكتور هوفمان أنه سجّله قبل الأعمال البربرية التى يزاولها

---

(١) مقال بعنوان (قضايا التنوير بين الفكر والسياسة) الأهرام فى ٢٣/٧/٢٠٠٠م ص ٢٦.

(٢) ص ٢٩ من كتاب (الإسلام سنة ٢٠٠٠م د. مراد هوفمان، ترجمة عادل المعلم، مكتبة الشروق سنة ١٩٩٥م.

اليهود بفلسطين (لاسيما فى جنين) ويندى لها جبين العالم (الحرّ) الذى وقف متفرجًا وربما يباركها فى الخفاء! وكأنه يشفى غليله من هزائمه فى الحروب الصليبية!

الحروب الصليبية تتجدد:

إن المخاطر الشديدة التى تتعرض لها أمة الإسلام تنغّص العيش، وتفتت الكبد، وبخاصة العدوان الأمريكى على أفغانستان، وجرائم اليهود فى فلسطين التى بلغت حدًا لا يُطاق وبخاصة بعد جريمة اقتحام (جنين)(١) فكيف نستقبل هذه الكوارث؟

إن الاستغراق فى الإحساس بالآلام لا يُجدى، بل يحقق هدفًا للأعداء. والانتصار الذى حققوه ليس دائمًا ولن يستمر، لأن هذا يخالف سنن الله تعالى فى التدافع بين الحق والباطل، ويصادم أحداث تاريخنا.

فكم من ابتلاءات بالمصائب الكبرى عانت منها الأمة، لا فى العصر الحديث فحسب، بل خلال حروب التتار والحملات الصليبية وخرجت منها الأمة سليمة، ونكتفى بمثال واحد:

عندما وصل الصليبيون إلى القدس، أقاموا فيها - بقيادة جودفرى النورماندى - مذبحة استمرت أسبوعًا (وقد وصف هذه المذبحة شاهد عيان فرنسى بقوله: وصل الدم إلى رواق المسجد، وإلى الركبة، وإلى سروج الخيل)(٢).

لم يقف المسلمون حينذاك أمام هذا الحدث الجلل للبكاء والعويل والتسليم يأسًا وخضوعًا لمنطق الواقع، **بل هبوّا لاسترداد القدس بقيادة صلاح الدين بعد نحو قرن.**

ومن منظور التشّابه بين الحروب الصليبية والهجمة الصهيونية، يقول الدكتور الريس - رحمه الله:

---

(١) يصف الأستاذ جمال الشاعر مذبحة جنين بأنها هولوكست القرن الـ٢١ وتستحق أن يُقام لها متحف دولى ومزار يضم كل الوثائق والأفلام والمقتنيات.. ويقول (ليت أجدادنا الفراعنة كانوا أحياءً ليحنطوا جثث شهداء فلسطين وتظل بشاعة الشيطانية الإسرائيلية حاضرة فى أذهان البشرية).

من مقال بعنوان (صهينة العقل العربى) بقلم: جمال الشاعر، الأهرام فى ٧/ ٥/ ٢٠٠٢م ص ١٣.

(٢) ص ٢٥ (مع الإنسان فى الحرب والإسلام)، فتحى رضوان.

(ما أشبه الليلة بالبارحة، وكأن التاريخ يعيد نفسه. ما واجبنا إذن؟ وكيف نتغلب على هذا العدوان؟ الجواب ظاهر، وهو أن نكون مثـل أسلافنا وتكون لنا صفاتهم وخصائصهم، ونتخذ الوسائل التى اتخذوها ونهج النهج الذى مضوا فيه)[١].

ولنتذكر مرة أخرى نتائج حربىّ ٤٨ و٦٧ التى عرضناها بالفصل السادس، فقد وجدنا الحروب الصليبيـة مجددة فى العصر الحـديث، إذ عاد الغرب وراء إسرائيل هذه المرة وهو يمتلك عناصر النجاح: تقدم علمى وتقنى، تفوق عسكرى فى العتاد والعـدّة، وضوح فى الهـدف ووحدة فى التـخطيط، بينمـا كانت الأمـة العربيـة والإسلاميـة ممزقة، تتفشى فـيها الأمية، وكـان على رأسها ساسـة على غير دراية بأحوال العصر. ومع هذا فقد أبلت الجماهير بـقيادة زعمائها وبشبابها الواعى بلاءً حسنًا وأدت دورها، لأنـها بحسـها الفطرى عـرفت أنها تخوض حـربًا صليبيـة، فاتخذت من الجهاد الإسلامى سلاحًا منقذًا.

يقول فيلسوفنا المسلم محمد إقبال:

[هناك درس واحـد وعيْتـه من **تاريخ الإسـلام**، فـفى اللحظات الحرجـة من تاريخهم كان الإسلام هو الذى أنجى المسلمين، وليس العكس بالعكس، إذا ركزتم نظركم اليوم على الإسلام، واسـتلهمتم المبادئ الحية الدائمة الكـامنة فيه، فأنتم لا تكونون قد فعلتم أكثر من **إعادة تجميع قواكم المبعثرة، واستعادة كيانكم المفقود**][٢].

إذن الطريق واضح، وبشائر النصر بإذن الله لائحـة، لأننا نخوض صراع وجود لا صراع حدود.

الإعلام الكاذب وتزييف الحقائق:

يبدو أن توقعات الكاتب الإنجليـزى چورچ أورول التى صاغها فى قالب روائى بعنوان (العالم سنة ١٩٨٤م) قـد تحققت فى عالم الواقع، إنه حـذّر فى روايته من (إهدار لكرامة الإنسانيـة ومن نفاق زعماء الحروب وتجار الأسلحـة) ص ٧ المقدمة وأماط اللثام عن جـهاز الاستطلاع الذى أطلق عليه اسم «بوليس الـفكر» يستشف الأفكار المخالفة لرأى الحزب الواحد.

---

(١) د. محمد ضياء الدين الريس (مـعارك حول القدس) ص ٤٢ هدية من مجلة الأزهر رجب سنة ١٣٩٢هـ - أغسطس سنة ١٩٧٢م.

(٢) ص ١٧٣ من كتاب (الذين يلحدون فى آيات الله)، د. كامل سعفان، ط دار المعارف سنة ١٩٨٣م.

ربما كان چورج أورول يحذّر بروايته من الأحزاب السياسية اليسارية ومن طغيانها، ولكن ملامح (النظام العالمى الجديد) الذى بدأ يبسط جناحيه على العالم هى نفسها التى حذّر منها المؤلف، فهل استفاد هذا النظام من تجارب أحزاب اليسار وأخذ يطبقُها؟

ترجح استنتاجنا، فمن السخرية بالرأى العام أن نشاهد علامات التزييف فيما يحدث أمامنا، فقد كان (ونستون «بطل الرواية» يعمل فى وزارة **الصدق** مزيفًا للأخبار.. ثم كانت وزارة **السلم** وتختص بالحروب، ووزارة **الحب** وتختص بالتعذيب، ووزارة **الرخاء** وتختص بالتقتير فى الأقوات)[1].

---

(١) من مقدمة الرواية (العالم سنة ١٩٨٤م) - مكتبة الأنجلو المصرية - ترجمة شفيق أسعد فريد وعبد الحميد محبوب، ص ١١ بقلم عبد الرحيم رشوان - مراجع الترجمة سنة ١٩٥٦م.

يضرب الدكتور عبد الوهاب المسيرى مثالاً للحرب النفسية الإسرائيلية عقب هزيمة سنة ٦٧ وحتى أكتوبر سنة ٧٣ (حين كانت لا تخلو الصحف العربية من الحديث عن خط بارليف المنيع، والنابالم الفاتك، والحواجز الترابية الهائلة، والمعونة الأمريكية للدولة الصهونية التى لا تنتهى، وقوة الفتك الإسرائيلية، وذراع جيش الدفاع الإسرائيلى القوية التى تصل إلى أى مكان، دون الإشارة إلى إمكانية تآكل العدو من الداخل إلى الخارج، وأن ننمو نحن أيضًا من الداخل إلى الخارج).

هذا بينما يرى الدكتور المسيرى بدراسته للمجتمع الإسرائيلى أنه يفتقد إلى الثقة بالذات مما جعله يشك فيما تعلنه إسرائيل عن الجيش الذى لا يقهر ولأن اليهود يعرفون أن ثمة نقاط قصور فى تحصيناتهم (ولكنهم يشيعون المعلومات المبالغ فيها والجزئية ليبثوا اليأس فى قلوب الناس، فنخسر المعركة قبل دخولها، بل نحجم حتى عن دخولها).

وعندما قال هذا فى محاضرة فى إحدى الأكاديميات العسكرية العربية فى أبريل سنة ١٩٧٣م، قال المستمعون إننا فى حاجة إلى دراسة علمية تستغرق ما لا يقل عن **عشرين عامًا على الأقل**..

ويقول الدكتور المسيرى (وقد تصورت أنه بعد العبور سيختلف الأمر قليلاً، وسيستعيد الإعلام العربى ثقته فى نفسه، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، فلا تزال الأمور تنسج على نفس المنوال) هذا، بينما قال باراك أمام الكنيست فى ٧/ ٣/ ٢٠٠١م (.. ساعة الرمل فى المعادلة الاستراتيجية تفقد قليلاً قليلاً حبَّاتها: إيران تتزود بصواريخ بعيدة المدى وأسلحة غير تقليدية، العراق يطور قدرته العسكرية حتى فى أوضاع الحصار، الإرهاب الإسلامى الدولى يهدد استقرار المنطقة، مكانة الولايات المتحدة ليست كما كانت قبل عقد الاتجاهات الديموغرافية لا تبشر بميزة إضافية لإسرائيل فى المستقبل»(*).

أما أجهزة الدعاية اليهودية فى أمريكا للتأثير عن الرأى العام هناك (هو محاولة تصوير حلم إسرائيل وكأنه تكرار للمغامرة الأمريكية الكبرى: هجرة من الاضطهاد - حركة استيطان فى أرض جديدة - =

---

(١) ص ٢١٦، ٢١٧ من كتاب (الإنتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية، دراسة فى الإدراك والكرامة) د. عبدالوهاب المسيرى - مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(*) مجلة الدراسات الفلسطينية.

ويحاول بوش الآن إقناعنا بأن شارون (رجل سلام) وعرفات (إرهابى)!، ويقول البعض منّا (نريد سلام الشجعان) وهو يقصد (استسلام الجبناء)!

أما هيكل سليمان عليه السلام فقد أثبت البحث العلمى بآخر التطورات وأحدث الأجهزة وبواسطة إحدى المؤسسات العلمية الأمريكية (جامعة ستانفورد) إذ برهنت الأبحاث الردارية للمسح تحت الأرض على أنه لم يعثر على دليل وجود الهيكل المزعوم فى وقت ما على هذه البقعة، إذ لم يعد لهيكلهم أثر فيها على الرغم من تجديد بنائه فى عهد الرومان بعد عهد الفرس (وذلك عملاً بدعوة المسيح - عليه السلام - فى الإنجيل بأن لا يبقى فيه حجر على حجر)[1].

كذلك أثبتت بحوث عصبة الأمم أيام ثورة البراق فى عهد الانتداب البريطانى أن جميع ما فى الأقصى من بناء وأساس إنما هو بناء إسلامى، وكانت لفتة ذكية ساخرة من الدكتور الدواليبى الذى وجه خطابه للرئيس الأسبق بوش عندما كان نائبًا لريجان وزار حائط المبكى وقبّله قال (إنه حين قبّل جدار المبكى فى المسجد الأقصى فى الأشهر الماضية - لتأليف الكتاب المشار إليه بالهامش - وليس القبّعة اليهودية، إنما قبّل حجرًا إسلاميًا!)[2].

استمرار الصراع مع الروم واليهود:

بدأ الصراع مع الروم واليهود منذ بعثة الرسول ﷺ، واستمرت أثناء الحروب الصليبية بين هزائم وانتصارات، ثم اشتد الصراع فى العصر الحديث عندما جاءت جيوش الغرب لاستعمارنا بالجيوش العسكرية وقوافل المبشّرين.

= خطر عدائى من سكان محليين لا يحسنون استغلال الأرض التى يعيشون عليها، ويمنعون الأقدر والأقوى من تحقيق حلم طموح ومشروع)[1].

(١) أمريكا وإسرائيل للدكتور محمد معروف الدواليبى ص ٦٧، الدار الشامية - بيروت: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار القلم - دمشق ص ٦١.[*]

(٢) نفسه ص ٦٢.

- - - - - - - - - - - - - - - -

(١) ص ١٦٥ من كتاب المفاوضات السرية.. هيكل.

(*) ويقول الأستاذ محمد على علوبة (.. ذلك أن عصبة الأمم حين اشتد النزاع بين العرب واليهود على محل البراق الملاصق للمسجد الأقصى، قررت تأليف لجنة محايدة للفصل فى هذا النزاع .. تكونت من ثلاثة هم: وزير سابق لوزارة خارجية السويد رئيسًا، ووكيل محكمة استئناف برن السويسرى، وآخر هولندى كان حاكمًا لأندونيسيا، كعضوين ... ... قررت اللجنة - اعتمادًا على الحجج الرسمية التى قدمناها - أن البقعة المتنازع عليها ملك للأوقاف الإسلامية .. وأن لليهود أن يذهبوا إليها لتأدية عباداتهم وصلواتهم، باعتبار أن هذا المكان منحة من سلطان تركيا، وتسامحًا منه فى الماضى. ص ٣٨ من كتابه (فلسطين والضمير الإنسانى).

ولكن الظاهرة البادية أمام البـاحث، أن الأمة الإسلامية كـانت تجابه الصراع - باستثناء الأندلس - جبـهة واحدة فى وجه (الكفّار)، ولكنها انقسـمت على نفسها فى العصر الحـديث، وهى الثغرة الخطيرة التـى نفذ منها الأعداء واستطـاعوا تجنيد العملاء والخونة الذين أعلنوا الإسلام ظاهرًا وأبطنوا الزندقة.

ومن أوائل الأئمـة الذين صنفوا المسلمين آنـذاك فى مواقـفهم من الاسـتعـمار الغربى الإمام رشيد رضا، فقال:

[كنا نعد فرق المسلمين الذين يتنازعون أمر الأمة فى هذا العصر ثلاثًا:

الأول: حماة تـقليد الكتب المدونة فى المذاهب المتبعة من سنية وشيعة زيدية وشيعة إمامية وأباحنفية..

الثانية: دعاة الحـضارة العصرية والنظم المدنية والقـوانين الوضعية الذين يقولون إن هذه الشريعة الإسلامية المدونة لا تصلح لهذا الزمان..

الثالثـة: دعاة الإصـلاح الإسلامى المعـتدلين الذين يثبـتون أنه **يمكن إحياء الإسلام وتجديد هدايته الصحيحة باتبـاع الكتاب والسنة الصحيحة وهدى السلف الصالح.. وأنه يمكن الجمع بينه وبين أشرف أساليب الحـضارة والتقدم..** بل يرى هؤلاء أن ما يدعون إليه - وهو أقدم هداية الدين وأحـدث وسائل الحضارة والقوة صديقـان يتفقان ولا يختلفان، وإن كلا منهما يزيد الآخر قوة وشرفًا، فدين العصر الأول للإسلام ينفى خبث المدنية المادية الحاضرة ويـنقى قلوب أهلها من الرجس، وينقذهم من فوضى الحرية البـلشفيـة، وأخطار الفلسفـة المادية، ويزكّى أنفسـهم من الظلم والفـسوق والعصيان، كما أن علومها وفنونها الـصحيحة تظهر من إعجاز القرآن، ومن آيات الله فى الأكوان، ما يكمل به الإيمان ويوجه قوى هذه العلوم إلى العمران وإصلاح نوع الإنسان...][1].

دفع شبهات العلمانية:

يعترض العلمانيون على المشروع الإسلامى لعدة أسباب:

١ - فمنهم من يعتـرض على العقائد نفسها، ناقـلاً الفكر العلمانى بالغرب فى مهده.

---

(١) ص د، هـ مقدمة كتاب (يسر الإسلام وأصول التشـريع العام) (مجردة من تفسير المنار لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ - مطبعة المنار - ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

فقد نشأ الفكر العلمانى فى الغرب، ويتخلص - كما يذكر الدكتور المهندس محمد الحسينى إسماعيل - فى عشر نقاط وهى:

١ - أن الإنسان حيوان طبيعى اجتماعى جزء من الطبيعة.

٢ - على الإنسان حصر اهتماماته بقضايا العالم والطبيعة، لا العالم الآخر وما وراء الطبيعة.

٣ - تبنى - الدين الطبيعى - أى المبنى على العقل لا على الوحى- لا الدين السماوى - ورد الشعور الدينى إلى الخوف الخرافى.

٤ - تحرير العقل من سلطان الدين، ليكون سلطانه مطلقًا.

٥ - إحلال العلم محل الميتافيزيقيا، وإحلال التجربة الحسية محل المعرفة النقلية والوجدانية.

٦ - اعتبار الفكر وظيفة الدفاع، فالمادة مصدر الفكر، وليس هناك نفس للإنسان.

٧ - جعل الإنسان هو «المطلق» بدلاً من الله والدين.

٨ - استنباط الأخلاق من الطبيعة الإنسانية لا من الدين. وجعل السعادة واللذة وليس الفضائل الروحية، هى معيارها.

٩ - إحلال «الاجتماعية» محل «الدينية» سبيلاً للسعادة الدنيوية.

١٠ - رد القوانين إلى أصول فيزيقية وتاريخية، لا إلى الشريعة الدينية، وتحرير الإنسان من السنن الإلهية][1].

وقد قام الدكتور الحسينى بحكم ثقافته العلمية الواسعة بتنفيذ أفكار العلمانيين كلها، وتتلخص فيما يلى:

إنّ العلمانى فى البند الأول قد اضطر أمام الوعى الفطرى الذى يدفعه للاعتقاد فى وجود الإله، جعل (المادة و«القانون الطبيعى» هما الإله الخالق له.. أى استبدل بالديانة الحقة، ديانة أخرى لا تختلف كثيرًا عن عبادة الأصنام، ويصبح طقسها الوحيد هو (هوى النفس)، ويمكن تسميتها باسم: الديانة العلمية.

---

(١) ص ١٩٠ من كتاب (الدين والعلم وقصور الفكر البشرى) دكتور مهندس محمد الحسينى إسماعيل.

ويدل البند الثانى على قصور الفكر العلمانى - ليس أمام الدين فحسب - بل وقصوره أيضًا أمام العلم، لأنه لا يعلم أن (الدين علم) لأن المزاج العلمى يحوى القدرة على البرهنة القاطعة على صحة الدين، فإن الإسلام يطلب من الإنسان الاهتمام بقضايا العالم والطبيعة، ولا يقف بالإنسان عند الحدود الضيقة من المعرفة والفكر المادى. قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ﴾ [فصلت: ٥٣].

أما فكرة «الديانة والطبيعة» فهى نابعة من الفلسفة التنويرية التى ظهرت بأوروبا فى القرن الثامن عشر، وتمثل تجرّد الفكر البشرى على وثنيات الفكر الدينى اليهودى والمسيحى، وطالبت بإصلاح ما أفسدته الكنيسة. أى أن ما نراه فى البند الثالث فى العلمانية هو الناتج المباشر لتجربة الغرب الدينية، بينما لم يمر الإسلام بهذه التجربة قط.

وتنسحب نفس الفكرة على البند الرابع أيضًا، فالديانة الإسلامية تحرر عقل الإنسان من كل ما يقيّده.

ويرى الدكتور الحسينى فى رده على البند الخامس أنه لا معنى لكلمة (إحلال) فى شطرى صياغته، لأن التجربة الحسية هى الدليل المادى على صدق المعرفة الحسية أو الوجدانية، فالعلم - فى واقع الأمر - هو إلهام أو قذف إلهى (أو هو حدسى)، والتجربة المادية هى دليل صدق هذا الحدس. ويضرب الأمثلة بعدة نظريات علمية كقانون الجذب العام لنيوتن، فقد صاغها نيوتن أولاً بالحدس (أو التخمين) ثم أثبتت التجارب فيما بعد صحته. و(النظرية النسبية الخاصة) تعتمد على مسلمتين ليس لهما برهان، أثبتت أيضًا القياسات الكونية صحة نتائجها، وبالتالى صحتها.

ويتبين إذن من صياغة هذا البند جهل الإنسان بموقفه من العلم ومن معناه الفيزيقى والميتافيزيقى.

وفى البند السادس، يقفز العلمانيون فى حقيقة الأمر إلى نتيجة لم تحسمها الفلسفة بعد، وهى (نظرية المعرفة)، وموجزها أن المعرفة تتكون من عنصرين:

معـرفة ذاتية، ومـعرفة مـوضوعيـة، وانقسمت إلى المذاهـب الثلاثة: أى المذهب التجريبى أو الواقعى، والمذهب العقلى والمذهب النقدى.

ولئن لم تحسم الفلسفـة بعد هذه القضية، فكيف حسمـها العلمانى، وعلى أى أساس صاغ عبارته هنا؟!

ويستمدّ البند السـابع مقولته من فلسفة نيـتشه الذى أنكر الإله، ووضع الإنسان الأعلى - أو السوبـرمان - مكانه، بسبب مـعاناته لأزمـة دينية زاعـمًا (أن الإيمان المسيحى معناه الانتـحار المتواصل للعقل البشرى)، وأدّت فلسفتـه وغيرها بالإنسان إلى عصر العدمية، وبذلك لم يعد للإنسان إلاّ ذاته.

ويمكن دحض البند الثـامن بالبرهان الأخـلاقى الموجود بالفطرة لـدى الإنسان، وهو أحـد البراهين الدالة أيضًـا على وجود الله عـز وجل، فليسـت الأخلاق إذن نابعة من مـعايير نفـعية، كـالسعادة واللذة، التى إن اقـتصر الإنسـان على الجرى وراءها فسيجد نفسه فى النهاية داخل سجن حـقيقى لا متعة فيه ولا سعادة، وهذا ما يفسـر ارتفاع نسبة الانتحار فى بلدان الغـرب، إذا لا يرى الإنسان هناك الخروج من هذا السجن إلا بالتخلص من حياته![1].

ويرى المؤلف أن هذه العنـاصر يتنبـاها الفكر الـعلمانى وهـى نفسـهـا [الديانة الوضعيـة]، اعتمادًا على فكر الإنسان المجـرّد، ومستبعدًا الوحى الإلهى كـمصدر للدين الصادر عن الخالق لهذا الوجود، فأصبح الإنسان سجين نفسه.

ويمضى فى الرد على البندين التـاسع والعاشـر بمناقشة قـضايا فلسـفيـة ودينية وعلمية وحضارية ليثـبت أن الدين ليس نظامًا وضعيًا، من وضع الإنسان، بل هو (علم) مصدره الله سبحـانه وتعالى، وإن الفطرة الدينية لدى الإنسان - إنما تعكس فقط اسـتعداد الإنسـان لقبول الفكر الدينى، وأن (الرسـالة الإسلاميـة) هى نهاية رسالات الله عز وجل إلى البشرية جمعاء.

قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

---

(١) باختصار من ص ١٠٩ إلى ص ٢٠٣ نفس المصدر.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وخلاصة القول إن الإنسان حصر نفسه داخل سجن الديانة الوضعية بكل تصوراتها (وقيد نفسه بحدود التناهى.. ويأتى الإسلام ليحرر هذا العقل من حدود المحدود، ويعفيه من حدود التناهى.. ويطلقه فى رحاب آفاق لا نهاية)[1].

ولم تعد تملك العلمانية فى موقفها من الإسلام أية حجة - أمام الحجج العلمية المتنامية - تدافع بها عن نفسها. إنها تتراجع بانتظام أمام كل كشف علمى جديد يدعم الإيمان بالغيب[2] - كالإيمان بالله تعالى والملائكة والبعث والحساب والعقاب.. إلخ. كذلك انتهت إلى غير رجعة الفلسفة الماركسية التى وصفت الدين بأنه أفيون الشعوب أمام اليقظة الدينية بالغرب عقب تهافت الأيدولوچيات.

---

(١) نفسه ص ٢٨٩، ويرى أن فكر العلمانية ينبع أساسًا من الثورة العلمية على تعاليم الديانة المسيحية وطقوسها، ولا علاقة لتعاليم الإسلام بها لا عن قرب ولا عن بعد، ص ١٨٥.

(٢) ناقش الدكتور المهندس القضايا العلمية الآتية تدعيمًا للإيمان المبنى على العلم والعقل تناولها بالتفصيل بالفصل السابع من كتابه بعنوان (العلم والعلماء.. فى الديانة الإسلامية)، مثبتًا أيضًا كون الدين «قضية علمية كلية»، وأن النص الدينى الإسلامى يحتوى على القضايا الكونية والقضايا العلمية المعاصرة:
- النص الإلهى والقانون الفيزيائى.
- من المعارف الدينية فى الكونيات.
- من المعارف الدينية حول وجود ذكاء آخر فى كوننا المادى وفى الأكوان الموازية وإمكانية الالتقاء بهذا الذكاء.
- من المعارف الدينية فى علم الأجنة.
- من المعارف الدينية حول نشأة وتطور الإنسان.
- من المعارف الدينية فى البحار.
- من المعارف الدينية عن طبيعيات الجو وظواهره.
- من المعارف الدينية حول فسيولوچيات ساكنى الجبال.
- من المعارف الدينية حول بحوث إطالة عمر الإنسان.
- من المعارف الدينية حول تأثيرات المواد المتفجرة.
- بين الأداء الإنسانى والأداء الكونى فى بعض مناسك الحج.
- من المعارف الدينية حول العمل على وقف المد الإسلامى.

من كتابه: الدين والعلم وقصور الفكر البشرى من ص ٤٢١ إلى ص ٤٨٤.

٢- إن الحكم بشرائع الإسلام يشبه الحكم باسم الحق الإلهى فى الغرب:

أما الاعتراضات التى يتذرع بها العلمانيون لإبطال الحكم بشرائع الإسلام بأنه يشبه الحكم المستمد من الله فى أوروبا وساد فيه الحكم المطلق فى ظل الحكومة (الدينية البابوية) وإن كان هناك نقاط التقاء فى دراسة الدكتور حامد عبد الماجد؛ أن كلاهما يقوم على الدين واتخاذه إطارا عامًا للتنظيم السياسى رافضًا الفصل بين الحقيقة الدينية والظاهرة السياسية لأن المواطن حقيقة واحدة بحكم كونه كتلة من الشعور واللاشعور وله علاقات متعددة (فلا يمكن الفصل بين المجتمع الدينى والمجتمع المدنى.. حتى لا تكون صورة ممسوخة للحقيقة الإنسانية)[1].

أما نقاط الاختلاف فتتضح فى مفهوم الدين أولاً، إذ الإسلام منهج حياة متكامل وإطار عام للمجتمع بينما مفهوم الدين فى المسيحية علاقة فردية محضة. كما أن السلطة الدينية كانت فى أوروبا مستمدة من الله تعالى وتحمل صفة «القداسة» ومخالفها يتعرض لتهمة (الهرطقة)، أما الدولة الإسلامية فلم تزعم لنفسها أنها تحتكر الرؤية الإسلامية، **لأن العصمة ثابتة للأمة وليست للإمام، والاجتهاد من حق الذى يملك شروطه، ومرتبط بتحصيل العلوم التى تؤهله لذلك،** ولا صلة بعوامل أخرى كالنسب أو الانتماء لطبقة أو مؤسسة معينة، ولا عصمة لأحد (بعد الرسول ﷺ)[2].

كذلك بعد أن عرض الدكتور زكى نجيب محمود للقطاعات والوظائف فى **الدولة الإسلامية،** كأمراء القتال وجنده، وولاة أمراء الأقاليم كالقضاة وعمال الجباية والخراج وعمال الزكاة والصدقات، ومهام أهل الحسبة وصاحب العسس، ومتولى حراسة المدينة والسجان ومقيم الحدود ومتولى التطبيب والعلاج، وأمر الجهاد، والمستخلفون على المدينة والقائمون على متاع السفر.. إلخ.

ذكر أن كثيرا من هذه الوظائف الإدارية كان لها أربابها الذين عينهم الرسول ﷺ.

---

(١) ص٤٧٩ من كتاب (الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية - دراسة منهجية للدولة الإسلامية)، د. حامد عبد الماجد قويسى - دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٢م.

(٢) نفسه ص٤٨٠.

(فنحن أمام [دولة] اكتملت لها المعالم والمقومات.. نشأت كضرورة اقتضاها الدفاع عن حرية العقيدة الجديدة وحرية الدعوة والدعاة للدين الجديد.. وكضرورة لإقامة شريعة الإسلام، وتنظيم المجتمع الذى قام بالمدينة بعد هجرة رسول الله ﷺ)[1].

وكان المصطلح (الأمر) هو المعبر عن الإمارة والسياسية كمعلم من معالم (دولة الإسلام، ثم المعلم الثانى وهو (الشورى)، والذى يميزها عن (دولة الكهانة) و(الدولة الدينية) حيث تستبد بها فئة خاصة بزعم أنها مفوضة للحكم بالحق الإلهى، ثم يتساءل فى النهاية **(فهل هناك بعد هذا الذى قدمنا، مجال لزعم علمانى يدعى أصحابه أن الإسلام «دين» لا «دولة»؟!.**

(لا نظن أن هناك مجالا لزعم الذين أجهدوا الحقيقة ليقرروا «علمانية الإسلام»![2].

الوهم بأن الغرب لا زال يفصل بين الدين والدولة:

برعت حضارة الغرب والأبواق التابعة لها فى إخفاء الحقائق وراء السلوكيات المرئية لنا، إذ خدعتنا - ولا تزال- بالتظاهر بخلع ثياب الدين لأنه من (مخلفات العصور الوسطى) بينما المتابع اليقظ لمجريات الأمور يرى أننا نعيش قرنًا ليس أقل تعصبًا أو تطرفًا من القرون الوسطى، فالذى غاب عن بعض زعمائنا فى التحرر الوطنى أن العالم الغربى (مؤمنه وملحده) يتعامل مع العالمين العربى والإسلامى **على أساس دينى محض، وكيف سيطرت المعتقدات الدينية على رؤساء وساسة** أمريكا وإنجلترا (وعد بلفور)- بل منذ سنة ١٨٨٠ أصدر رجل الدين وعضو البرلمان الإنجليزى (لورانس أوليفانت) كتابًا أسماه (أرض جلعاد) دعا فيها لطرد العرب مثلما حدث للهنود الحمر فى الولايات المتحدة الأمريكية، لأنهم (غير جديرين بأية معاملة إنسانية) فهل هناك غرابة بعد ذلك فى أن يطالب (بن جوريون) بمعاملة العرب على نحو ما عاملت أمريكا سكانها من الهنود الحمر الأصليين؟!)[3].

كذلك يتضح للدارسين للعلوم السياسية وتاريخ تطوراتها، والمتابعين للظاهرة

---

(١) عن الحرية أتحدث ص٤٧.

(٢) نفسه.

.. محمد عصفور (جريدة الوفد القاهرية) بتاريخ ٢/ ٧/ ١٩٨٨.

الدينية فى الغرب، يتضح لهم بما لا يدع مجالاً للشك أن الظاهرة نمت وأينعت، إذ (**عاد الدين الكاثوليكى ليؤسس التجانس والانصهار كما فعل من قبل فى الدولة الرومانية المقدسة**)[1].

وهل نغفل أيضًا الارتباط الدينى بين النصرانية واليهودية الملىء بالأسرار - كما تجليه الباحثة- ريجيينا الشريف - وتلمحه فى الارتباطات والعلاقات فى ميادين (الآداب والتاريخ والعقائد والسياسة حتى التراث الغربى مليئًا بالأساطير اليهودية)[2].

ومن الظواهر التى يجب أن تستأثر باهتمامنا فى مجال استخدام الدين سياسيًا فى الغرب، **هى ظاهرة إلقاء أجهزة الإعلام الغربية الضوء الشديد على التدين فى العالم الإسلامى وحده والتشويه المتعمد للإسلام، كالترويج لكتاب سلمان رشدى الكذاب الأشر، فى الوقت الذى تصمت فيه صمتًا مريبًا عن تمام النفوذ السياسى للكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن حقيقة إنشاء إسرائيل على أساس توراتى ورفع شعار (المناداة بعودة اليهود إلى فلسطين كمقدمة حتمية لعودة المسيح المنتظر تبعًا لنبوءات العهد القديم**)[3].

والدراسات العلمية الجادة التى تصدر تباعًا لتكشف عن هذا الجانب الذى يتعمد العلمانيون إخفاءه لإظهار حضارة العصر وكأنها حضارة لا دينية! فهل هو استخفاف بالعقول؟ أم إيثار للراحة اكتفاءً بترديد أقوال أجهزة الدعاية المضللة؟!

وقد عنى الدكتور عبد العزيز صقر بدراسته العلمية الموضوعية بتتبع دور الدين

---

(١) الدين والدولة فى الواقع الغربى (دراسة لموقع ودور الدين فى الدولة القومية) د. عبد العزيز صقر ص٣٩- دار مكتبة العلم للجميع ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

(٢) الصهيونية غير اليهودية ص١٨ (جذورها فى التاريخ الغربى) ريجيينا الشريف - ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز سلسلة كتب ثقافية (عالم المعرفة) - الكويت ربيع الأول ١٤٠٦هـ- ديسمبر ١٩٨٥م..

(٣) الصهيونية غير اليهودية ص٥٤/ ٥٥ ريجيينا الشريف ترجمة أحمد عبد العزيز. وتبدو الازدواجية الصارخة للغرب فى رأى الأستاذ محمد سلماوى فى الحملات اليومية التى يشنها يوميًا إزاء الإسلام وشعائره مع استماتته فى الدفاع عن سلمان رشدى بزعم الدفاع عن حقه فى التعبير، فى الوقت الذى تمارس فيه جميع أنواع القيود الرقابية ضد رجاء جارودى لإعلانه رأيه فى عدد ضحايا النازى من اليهود. (مقال بعنوان: خطاب السفير الأمريكى) الأهرام ١٦/٣/١٩٩٨م.

فى الغرب كدافع للسلوك السياسى والقيادى وكرابطة اجتماعية وكعامل للتوحيد والتجانس والاندماج السياسى، وخلص إلى النتائج الآتية:

أ- لا يزال الدين أحد متغيرات السلوك السياسى الفردى.

ب- لا تزال الكنائس تدافع عن حقها فى الممارسة السياسية أو على الأقل التوجيه السياسى.

جـ- ولا يزال الدين عاملا مهمًا فى عملية التكتل الاجتماعى والوحدة السياسية.

لقد أمسك الباحث بتلابيب الغرب متلبسًا بتوظيف الدين سياسيًا ببلدانه جميعًا بلا استثناء (فرنسا - إنجلترا- اليونان- إيطاليا- ألمانيا- إسبانيا- بلجيكا- هولندا- أمريكا)(١).

وإذا تتبعنا النبض الدينى فى أوروبا وأمريكا لطال بنا المقام - ولكننا نكتفى بلقطات تغنى عن الاستقصاء (**فإن المفاهيم والقيم والممارسات المسيحية متغلغلة فى الحضارة الأوروبية**). يقول أحد السويديين (ربما كان السويديون أكثر الناس تدينًا فى أوروبا، ولكنك لن تفهم هذا البلد أبدًا إلا إذا أدركت أن مؤسساتنا وممارستنا الاجتماعية وأسرنا وسياستنا وأساليب حياتنا كلها متأثرة بتراثنا اللوثرى)(٢).

كذلك فإن أكثر الأمريكيين يؤمنون بالله (ويعتقدون أنهم شعب متدين، كما يترددون على الكنائس بأعداد كبيرة)(٣).

ولم ينبثق الإحياء الدينى فجأة فى السنوات الأخيرة - كما يوهمنا هنتجتون - بل له جذوره المتغلغلة فى أعماق التراث الثقافى هناك - وربما منذ مارتن لوثر حيث تعانقت المسيحية الصهيونية مع الصهيونية اليهودية لتحقيق هدفها المشترك كما قلنا آنفا(٤).

---

(١) الدين والدولة فى الواقع الغربى (دراسة لموقع الدين فى الدولة القومية) ص ٢٨٥. د. عبد العزيز صقر - دار ومكتبة العلم للجميع بالقاهرة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

(٢، ٣) ص٤٩٣ من كتاب (صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمى) صامويل هنتجتون، ترجمة طلعت الشايب تقديم د. صلاح قنصوة ١٩٩٨م (سطور).

(٤) النبوءة والسياسة: جريس هالل ص١٠٧.(الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية) ترجمة =

ومهما أخفت أجهزة الإعلام - والكتاب المرتزقة- الوجه الحقيقى لهذه الحضارة، فإن الدارس الذى يتتبع تاريخها وفلاسفتها وسياستها يرى طابع التدين بعين لا تخطئ، وأصبح مألوفًا العثور على التفسير الدينى للصراع بين أوروبا والشرق فى كتب مثقفيهم وساستهم ومؤرخيهم وفى مقدمتهم أرنولد توينبى كما أسلفنا بالفصل الأول.

أما الصلح مع إسرائيل فإنه يحمل فى طياته هزيمة داخلية لمقوّمات الشخصية الإسلامية ذاتها، وإذابة كيانها، ويؤجل قيام حركة مقاومة إذ تصبح مهمتها أكثر صعوبة ويفتح الباب لتأثيرات غير محدودة لتذويب المجتمعات حول إسرائيل وسحقها فى ظل نظام اقتصادى أغنى وأقدر على الابتلاع، إلى جانب تقدم مادى كبير واكتساح القيم الأخلاقية بإحلال قيم غربية مستعارة، أى المزيد من التمييع، بل الضياع!

وربما تزعج القارئ كلمة (**الضياع**)، ولكنها مع الأسف هى الغاية النهائية من المخطط الصهيونى، فمنذ سنة ١٩٢٢، صرح السير «ألفرد» اليهودى (بأن اليوم الذى سيعاد فيه بناء الهيكل أصبح قريبًا جدًا، وإنه سيكرس ما بقى من حياته **لبناء هيكل سليمان - عليه السلام - مكان المسجد الأقصى**). ولا زال الهدف ثابتًا بل لم يتزحزح عنه اليهود ومعهم الأمريكان.

كما صرح المستر جابرتنسكى زعيم الصهيونيين الإصلاحيين أمام لجنة «شو» ١٩١٩ بأنه ينبغى صراحة أن تشجع الحكومة البريطانية الاستعمار اليهودى تشجيعًا فعليا، كى توجد فى البلاد أكثرية يهودية.

وصرح الزعيم اليهودى «زينكويل» بقوله: (.. وما على العرب إلا أن يهدموا خيامهم، ويرحلوا إلى الصحراء من حيث أتوا)[١].

إننا جميعًا فى حاجة ملحة إلى وقفات مع النفوس لإحياء الضمائر، لتقف الأمة على قلب رجل واحد لدفع هذا الخطر.

= محمد السماك دار الشروق ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م ويرى د. محمد عصفور أن الحركة الضخمة للأصوليين المسيحيين تضم ما يجاوز المائة والثلاثين مواطن أمريكى، ويشغل بعضهم أكثر وأرفع المناصب والمواقع السياسية والعسكرية والإدارية والفنية والاقتصادية) (الوفد فى ١٩٨٨/٧/٣٠م.

(١) ص١١٥ من كتاب (فلسطين والضمير الإنسانى)، محمد على علوبة.

يقول الإمام الجوينى:

(فأما إذا وطئ الكفار ديار الإسلام، فقد اتفق حملة الشريعة قاطبة على أنه يتعين على المسلمين أن يخفوا ويطيروا إلى مدافعتهم زرافات ووحدانا حتى انتهوا إلى أن العبيد ينسلون عن ربقة طاعة السادة، بل على المرأة القادرة أن تخرج بغير إذن زوجها، وعلى الولد أن يخرج بدون إذن والديه أو أحدهما إذا كان الآخر ميتًا- بل يجب على الأعمى والمريض المدافعة عن ديار الإسلام حسب الإمكان، ويكون ذلك ببذل المال قدر الطاقة.. وأموال الدنيا لو قوبلت بقطرة دم لم تعدلها ولم توازها)[1].

حركات مقاومة الاستعمار من منطلق إسلامى:

لذلك يلاحظ الأستاذ طارق البشرى أن أغلب حركاتنا السياسية كانت تصدر عن المورد الإسلامى العريض، ولهذا نفهم حركات السنوسى والمهدى وابن عبد الوهاب والجزائرى والخطاب - أى أن كل الحركات الإسلامية ظهرت من المورد الإسلامى فى القرن التاسع عشر.. لم يكن هناك ثمة فارق بين الحركة الإسلامية والحركة الوطنية.

وأخذت كل حركة من الحركات الإسلامية تؤكد كل منها على جانب أو آخر مما تحتاجه الشعوب الإسلامية حسب الخصائص التاريخية أو الظروف الاجتماعية والسياسية التى يمر بها كل شعب من شعوبنا، فهناك من الحركات ما حمل السلاح فى سبيل استقلال بلاده مثل أفغانستان.

وعن الاستنارة التى يرفعها العلمانيون كشعار يقول الأستاذ طارق البشرى:

(أنا لا أفهم بالضبط ما هو تيار الاستنارة؟ هناك مرحلة فى تطور الفكر الغربى فى العصر الحديث تسمى عصر التنوير، وهى فترة ظهور التيار العلمانى المنفصل

---

(١) ص ١٨٨ من كتاب (غياث الأمم فى التياث الظلم) للإمام الجوينى ويُنظر كتاب (الاعتصام) للإمام الشاطبى تحقيق د. فؤاد عبد المنعم ود. مصطفى حلمى ط دار الدعوة بالإسكندرية ص٢ سنة ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

عن الكنيسة. . وإذا كانوا يقولون الآن إن القرن الماضى هو قرن الاستنارة والحداثة فهذا مفهوم مغلوط **لأن القرن الماضى فى تاريخنا لا يغلب عليه وصف الاستنارة والحداثة بقدر ما يغلب عليه وصف أنه قرن الاستعمار والإلحاد والغزو والتجزئة السياسية** وهو أيضا قرن تجمع شعوبنا على الدفاع عن أصول العقيدة حتى لا تجتث مثل حركة سعيد النورسى فى تركيا إبان نظام أتاتورك، وهناك من الحركات ما أكد الجوانب العقائدية مع تقديم مساعدات اجتماعية دون الوصول إلى العمل السياسى المباشر مثل جماعة التبليغ فى الهند.

والآن وبعد الأزمات التى تعرض لها الفكر الماركسى والفكر القومى نجدها ترفع راية العلمانية للتخفى وراءها. . والعلمانية المجردة تعانى هى الأخرى من مشاكل حقيقية فى بيئة يصوغ فيها الدين الشخصية والوجدان. . وهى إذا وجدت مكانًا بين بعض المثقفين وبعض الطبقات المرفهة، فإن الجماهير عندنا لا تستسيغها، فهى بطبيعتها متدينة)[1].

ضرورة الوحدة للأمة الإسلامية:

إن إحياء الوحدة السياسية من جديد بعد تحللها بإلغاء الخلافة العثمانية أصبح فرض عين:

وقد سبق لأحد أفذاذ فقهائنا السياسيين - الدكتور السنهورى - تقديم عدة اقتراحات بعد معاصرته لمحنة إلغاء الخلافة العثمانية، وربما توقع بثاقب نظره حينذاك الحصاد المر بهذه المحنة قبل أن تبدأ تداعياتها المضنية التى نحياها الآن، ومعرفته بتعذر (قيام دولة موحدة فى العصر الحاضر) واقترح لذلك إنشاء منظمة إسلامية دولية، وفق ثلاث مقدمات:

١- إن المبادئ التى بنى عليها فقه الخلافة، قام على المبادئ التى توصلت إليها أحدث النظم العصرية والديمقراطية - بل تمتاز عن الفقه العصرى لأن تطبيق مبادئها مرتبط بعقيدة دينية وشريعة سماوية خالدة.

---

(١) ناقش الأستاذ طارق البشرى أصحاب الفكر العلمانى باقتدار (يُنظر كتابه «الحوار الإسلامى العلمانى» دار الشروق ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢- إن الخلافة أنشأت فى منطقتنا أعظم أمة وأقامت أعظم حضارة شهدها العالم عندما كانت أوروبا فى ظلام التخلف والجهل والحروب الدينية ونظام الإقطاع.

٣- تحقيق وحدة الأمة الإسلامية بانشاء عصبة أمم شرقية تتمشى مع الاتجاه العالمى نحو التكتل والتجمع.

ويعلق الدكتور توفيق الشاوى قائلا (إننا نرجو ممن يؤمنون بأن الوحدة هى طريق القوة والتقدم والنهضة الحضارية أن يتدبروا آراء السنهورى واجتهاداته بكل تقدير واحترام)[١].

وأقول: بل تحقيقها على الفور لأنها المنقذ - بعد عون الله تعالى - من الضياع، لأن الصراع صراع وجود لا صراع حدود كما يصرح به زعماء اليهود، فلم يمتد العمر بالدكتور السنهورى - رحمه الله تعالى- ليكابد معنا طبيعة المرحلة التى نحياها، وهى مرحلة تنفيذ مشروع إسرائيل الكبرى، واتفقت إسرائيل مع أمريكا على حرب المسلمين فى العالم أجمع بحجة مكافحة الإرهاب، بينما هم صانعوه![٢].

ومع **الوحدة السياسية** يأتى توحيد قدرات الأمة اقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا. فعلى الصعيد الاقتصادى لابد من إقامة السوق المشتركة بين الدول الإسلامية على غرار دول أوروبا وتوحيد العملة.

وعلى **صعيد التعليم،** لابد من صبغه فى جميع درجاته وأنواعه بالصبغة الإسلامية.

وعلى **الصعيد العسكرى،** يلزم توحيد جيوش الدول الإسلامية قيادة وتدريبًا وتسليحًا، لأن المسئولية مشتركة بينها جميعًا - لا للدفاع عن أراضيها وسكانها وكيانها، بل لإنقاذ المسجد الأقصى من نجس اليهود[٣].

وسنعرض لملامح **النموذج الحضارى الإسلامى** الذى يضمن - لو عملنا به - استئناف نهضتنا بعد المحن التى أصابتنا، ولو طبقناه منذ البداية لتحقق انقاذ أمتنا.

(١) مقدمة كتاب (أصول الحكم فى الإسلام) بقلم د. توفيق الشاوى - مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.
(٢) يُنظر كتابنا (حضارة العصر: الوجه الآخر) دار الدعوة بالإسكندرية.
(٣) نفسه ص٤١-٤٦ وص٩٦-٩٧، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

ولم يغب ذلك عن فطنة أحد أئمتنا - **الإمام النورسى- الذى واجه أتاتورك بمشروع نهضوى حضارى شامل لاقتلاع جذور اللادينية من نفوس الأجيال الجديدة،** وقد نجح إلى حد بعيد، ولا زال الإسلام فى قلوب الأتراك رغم أنف العسكر هناك.

وكان الإمام النورسى يرى أن (**الغزو الحضارى الجاهلى الشامل** على الإسلام والمسلمين لابد أن يواجهه منهج إسلامى شامل متوازن)[1].

وتتأكد فطنته أيضا عندما وصف الغزو بالجاهلية ولم يصفه (بالتنوير والتقدم والرقى) كما فعل المتغربون.

يقول الدكتور مراد هوفمان:

(كان الإسلام، إبان الصراع بين العالم الغربى والشيوعية يستطيع أن يعتبر نفسه الطريق الثالث المباينة لهما، أى أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائديًا، **أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلا لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة)**.

ولهذا فإنه لا يتفق فى الرأى مع فوكوياما صاحب كتابه (نهاية التاريخ وخاتم البشر) وفسره هوفمان بأنه يحمل رسالة مضمونها اعتقاد الغرب (بصفة عامة أن أسلوب الحياة الأمريكى سيفرض نفسه على العالم)..

ويقف بشدة إزاء هذا الأسلوب أو الثقافة الواحدة ويقول بلهجة حاسمة تحمل روح الفهم والإخلاص:

(إذا أردنا نحن المسلمين أن نُترك وشأننا فعلينا أن نجاهد جهادا جبارًا لنحمى حقنا فى الاختلاف الثقافى فى عالم يسعى لفرض النموذج الغربى عالميا)[2].

---

(١) ص ٥٣، ٧٥، من كتاب (النورسى متكلم العصر الحديث) د. محسن عبد الحميد سوزلر للنشر بمدينة نصر - مصر ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.

(٢) كتاب (يوميات ألمانى مسلم) ص٢/ ٢١، د. مراد هوفمان.

هذا وقد أعلن فوكوياما أنه أخطأ فى حديثه حول نهاية التاريخ، فكيف يمكن أن يكون للتاريخ نهاية، عندما لا تكون لتقدم العلم نهاية.

وقد حسم الدكتور زكى نجيب محمود - رحمه الله تعالى- البت فى قضية **الجمع بين التراث والمعاصرة** عندما عرّف بدور الحضارة المعاصرة بأنها تأتينا بعلوم جديدة وأجهزة جديدة. . ونحن بدورنا لدينا أصول راسخة لحضارة أو لحضارات تعاقبت وتراكمت. . ومن حسن الحظ أن ميراثنا الحضارى الغزير، إنما يقع فى أصعب الجوانب اكتسابا، أى الدين والفن واللغة والأدب (أما الجوانب الحضارية التى تأتينا من الغرب الجديد، والتى ندعو إلى قبولها وهضمها والترحيب بها، فهى أيسر الجوانب انتقالا واكتسابا، لأنها - على الأغلب- علوم وما يلحق بها من مهارات مهنية، وتلك أشياء نعلم كم هى يسيرة الأخذ إذا ما أقبل إنسان على أخذها والتمرس بها)(١).

وفى موضع آخر من كتابه يرى أن الإسلام وثقافة العصر ليسا نقيضين، وإنما تجىء تلك الثقافة إلى إسلام المسلم فتلقى فيه رحابة صدر وحسن قبول، ومن أين يأتى التناقض والإسلام أساسًا رسالة أخلاق، وثقافة الغرب والمعاصرة أساسًا ثقافة عصبها علوم)(٢).

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود:

ولو كنا فى حالة انعدام حضارى وثقافى لما صحت لنا دعوة إلى يقظة، لأنك لا توقظ الموتى، والأمر فى هذا شبيه بنعاس النائم، فمهما بلغ النعاس من درجات العمق، فلابد أن تبقى فى النائم بقية من وعى ضئيل. .)(٣).

= مقال بعنوان (التكنولوجيا تدفع فوكوياما لإعادة التفكير فى نهاية التاريخ). . وهو يراهن على دور العلم فى تطور المجتمع البشرى، بجريدة الشرق الأوسط ص١٣ بتاريخ ٧/٥/٢٠٠٢م بقلم ستيف كيتمان.

وقد سبق أن عرضنا لنظريته الاولى بمنهج نقدى بكتاب (الفكر الإسلامى فى مواجهة الغزو الثقافى فى العصر الحديث) دار الدعوة بالإسكندرية ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

(١) ص٣٣٩، ٣٤٠ عن الحرية أتحدث.

(٢) نفسه ص ٢٣٠ ويقول: وكثيرون هداهم علماء الإسلام فى عصرنا هذا، الذين نالوا درجاتهم العلمية من جامعات الغرب، ولم يكن ليؤثر ذلك فيهم إلا أن ازدادوا بإسلامهم وعيًا ولإسلامهم فهمًا.

(٣) ص٣٤٠ من كتاب (عن الحرية أتحدث) د. زكى نجيب محمود - دار الشروق ١٩٨٦م.

ملامح النموذج الحضارى الإسلامى:

ربما يعلقّ قارئ على العنوان فيدور فى ذهنه السؤال الآتى: وأين نجد هذا النموذج مطبقًا فى الواقع؟

والإجابة تقتضى مراجعة تاريخ المسلمين الأوائل فى عصر النبوة والخلافة الراشدة - لا رجوعًا إلى الوراء بالمعنى التاريخ الاستردادى - ولكن ارتفاعًا إلى القمم التى شادوها فى العقائد والعبادات والأعمال، فإن التاريخ - كما نرى - (معمل تجارب إنسانية)، ويخضع منطقه لاستقراء صحيح.

وما دامت **هذه القيم باقية فإن تطبيقها متاح عندما نصرّ على التقيد بها وتطبيقها كما فعل المسلمون** - ويفعل بعضهم حتى الآن! وذلك مصداق حديث رسول الله ﷺ **«لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتى أمر الله»**[1]. ونحن فى أمسّ الحاجة إلى هذه القيم الآن ونحن نخوض صراع وجود، لا صراع حدود.

ولئن كانت الحضارة بالمفهوم الجارى على الألسنة هى نتاج التقدم العلمى بفروعه المختلفة فى ميادين الهندسة والصناعات واستخدام الآلات لخدمة الإنسان ورفاهيته وإقامة المدن وتمهيد الطرق، والاستخدام الأمثل لظاهر الأرض بزراعتها وباطنها باستخراج البترول والمعادن وغيرها، كل ذلك يعبر عن جانب واحد من التصور الإسلامى للحضارة، لأننا نقرأ فى القرآن أن الله تعالى سخر لنا ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا، وكان ذلك سببًا فى ازدهار العلوم عند المسلمين، ولكن تبقى (الثقافة) كعنصر مهم من عناصر الحضارة - أى ما تتضمنه من عقائد وقيم تتمثل فى تعريف الإنسان بخالقه عز وجل وحضه على النظر فى الكون حوله وبيان الحكمة من خلق هذه الحياة وطبيعتها ومآلها، وتنظيم سلوكه وأخلاقه تهذيبًا وارتقاءً إلى الأسمى، وإخضاع غرائزه ودوافعه إلى نظام محكم فى

---

(١) وبهذه المناسبة نود أن نشير إلى أن هذا الحديث لا يتعارض مع حديث (خير القرون قرنى ..) الذى يفسره بعض المتغربين بأنه يقتضى وصف الماضى دائمًا بالأحسن، فإن الجمع بين الحديثين يؤدى إلى تصوير الأمة الإسلامية بأن كثرتها الغالبة المستمسكة بتعاليم الإسلام تحققت فى القرون الأولى، ولا يمنع ذلك من حفاظ الطائفة الظاهرة على الحق على هذا مع قلة عددها بالمقارنة بالمسلمين الأوائل.

العبادات وقواعد التشريع والمعاملات حتى تنتظم علاقاته على أقوم سبيل ممكن بالنظر للطبيعة البشرية القابلة للاستقامة أو الانحراف «**وهديناه النجدين**».

ومن هنا كانت الحضارة التى ترعرعت فى ظل الإسلام هى أرقى حضارة عرفها الإنسان، حيث كفلت له السعادة والأمان، وحققت له حرية الاعتقاد والعمل، وكان العلم فيها خادمًا للإنسان، فلم تنفلت نتائجه المدمرة لتسبب الكوارث كما حدث فى أوروبا فى حربين عالميتين قتل خلالهما وشرد الملايين، وكانت وصمة عار فى جبين هذه الحضارة. كذلك خلت الحضارة الإسلامية من الأزمات النفسية والعصبية المنتشرة كالأمراض المعدية فى كيان الحضارة الغربية.

ولنا أن نباهى إذن بحضارتنا بالرغم من انحسارها الحالى إذا بينّا أن الجانب (الثقافى) مازال ثابتًا حيًا محتفظًا برونقه لم يمس، وها هى أدلتنا:

١- **التوحيد**: وهو جوهر الإسلام ولبه، وإذا كان علماؤنا قد اهتموا بدوائره الثلاث (الألوهية والربوبية والأسماء والصفات) فذلك لكى تتضح عقيدة التوحيد وترسخ فى النفوس والقلوب فلا تشوبها أية شائبة.

وربما يأتى هاتف فيوسوس لك عن الحكمة فى بيان هذه الدوائر، ولكن سرعان ما تعرف الحكمة إذا شرحنا المقصود منها، فتوحيد الألوهية يعنى إفراد الله تعالى بالعبادة، رجاءً وخوفًا ومحبة - وهى من أعمال القلوب - والصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك وهى أعمال الجوارح. ولا يصح للإنسان أن يتوجه لغير الله تعالى بهذه الأعمال التى يقصد بها التقرب إلى الله تعالى إذعانًا وخضوعًا واستسلامًا.

ونفهم توحيد الربوبية على ضوء التيقن بأن الله سبحانه هو رب كل شىء ومليكه وهو تعالى الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور بتشريعه الحكيم، فمن زعم الاستقلال بتشريع أو بنظام من عند نفسه فقد أخل بهذا التوحيد، وأقل ما يوصف به آنذاك أنه استهان بشرع الله تعالى، فهل لنا أن نطالب المستمسكين بالقوانين الوضعية بإعادة النظر فى عقيدتهم على ضوء هذا الشرح؟

أما توحيد الأسماء والصفات فيميز المسلمين الموحّدين عن غيرهم الخارجين فى عقائدهم عما وصف الله تعالى به نفسه من صفات وأسماء حسنى.

٢- التطبيق العلمى بواسطة الرسول ﷺ: فقد وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها بأن خلقه القرآن فلم يعد لأحد حجة فى الانحراف عن سننه وطريقته فى الحياة.

٣- البدائل الإسلامية فى العقائد والنظم: إن الركائز التى تستند إليها العقيدة والنظم فى هذا المجال ثابتة وأصيلة، فضلاً عن أنها تميزّها كأمة، وتقدّم لنا البدائل فى المجالات العقدية الثقافية والأخلاقية السلوكية والعلاقات الاجتماعية بحيث تجعل من حضارتنا حضارة متميزة بخصائص لا تشاركنا فيها أية حضارة أخرى ولعل أدق وأشمل ما قيل عنها هو ما ذكره ابن القيم فى نص طويل يضعنا على الطريق الصحيح فى تقويم عقائدنا ونظمنا وسلوكياتنا بميزان الإسلام:

قال ابن القيم: (إن الله سبحانه أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة وما يسره من الدين على لسان رسوله ﷺ وسهله للأمة من الدخول فى الآصار:

كما أغنانا عن كل باطل ومحرم وضار بما هو أنفع لنا من الحق والمباح النافع).

ويمضى مستطردًا موضحًا طريقة الحياة وفق منهج الإسلام الذى يشبع الاحتياجات الإنسانية وينظم نشاط الإنسان فى الميادين المختلفة مع تحديد القيم المعنوية الأخلاقية بحيث يتقيد المسلمون بهذا المنهج فى اجتيازهم لطريق الدنيا وفقًا لشرع الله تعالى وقواعده القائمة على دعائم الحق والمباح النافع ويميزّه عن كل ما عداه.

ونحن نقتبس النص بكامله هاهنا ونحن نتحدث عن معالم ذاتية الأمة لأنه يحسم قضايانا المثارة على الساحة الآن بين حركات اليقظة الإسلامية ومعارضيها.

يقول ابن القيم: فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين.

وأغنانا بوجوه التجاريات والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار.

وأغنانا بزواج ما طاب لنا من النساء مثنى وثلاث ورباع والتسرى عن الزنا والفواحش.

وأغنانا بأنواع الأشربة اللذيذة النافعة للقلب والبدن عن الأشربة الخبيثة المسكرة المذهبة للعقل والدين.

وأغنانا بأنواع الملابس الفاخرة من الكتّان والقطن والصوف عن الملابس المحرمة من الحرير والذهب.

وأغنانا عن سماع المعازف وقرآن الشيطان بسماع الآيات وكلام الرحمن.

وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام طلبًا لما هو خير وأنفع لنا استخارته التى هى توحيد وتفويض واستعانة وتوكل.

وأغنانا عن طلب التنافس فى الدنيا وعاجلها بما أحبه لنا وندبنا إليه من التنافس فى الآخرة وما أعد لنا فيها، وأباح الحسد فى ذلك وأغنانا به عن الحسد على الدنيا وشهواتها.

وأغنانا بالفرح بفضله وبرحمته وهما القرآن والإيمان عن الفرح بما يجمعه أهل الدنيا من المتاع والعقار والأثمان فقال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس: ٥٨].

وأغنانا بالتكبر على أعداء الله تعاليا وإظهار الفخر والخيلاء لهم على التكبر على أولياء الله تعالى والفخر والخيلاء عليهم فقال ﷺ لمن يتبختر بين الصفين: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**»[(١)].

وأغنانا بالفروسية الإيمانية والشجاعة الإسلامية لنصرة دينه عن الفروسية الشيطانية وحمى الجاهلية.

وأغنانا بالخلوة الشرعية حال الاعتكاف عن الخلوة البدعية التى يترك لها الحج والجهاد والجمعة والجماعة.

كما أغنانا بالبراهين والآيات التى أرشد إليها القرآن عن الطرق المتكلفة المتعسفة المعقدة الكلامية.

قال المبعوث بالحنيفية السمحاء «**ما تركت من شىء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به، ولا تركت من شىء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به وتركتكم على البيضاء. ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك**».

---

(١) ٦٤/ ٦٦ إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ٢ ط الحلبى ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.

٤- الحض على طلب العلم وإجلال العلماء.

٥- تكريم الإنسان وتقرير حقوقه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكان الإسلام أسبق من حيث إقرار حقوق الإنسان التى جعل منها دنيا ودينا، وأقامها على دعائم أخلاقية وروحية تسمو كثيرًا على ما جاء بميثاق هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٨م.

وتقوم حقوق الإنسان فى الإسلام - كما يذكرها الدكتور بيومى مدكور - **على الحريات الخمس** التى تباهى الحضارة الغربية بالكشف عنها، متجاهلة أن الإسلام قد وجه إليها من قديم وهى حرية الاعتقاد، وحرية الرأى والتعبير، وحرية العمل، وحرية التعلم، وحرية التملك والتصرف(١).

٦- العالمية: قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال عز وجل ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِى وَيُمِيتُ**﴾ [الأعراف: ١٥٨].

لذلك سعى النبى ﷺ إلى نشره فى أنحاء العالم، (فكتب إلى ملوك البلاد المجاورة وحاكميها أن يدخلوا فى دين الله، فإذا أسلموا وشعوبهم، بقيت لهم ممالكهم، فالنبى ﷺ - لم يكن فاتحًا ولا حاكمًا، ولا ينبغى أن يكون ملكًا لأية أمة حتى لموطنه بلاد العرب، فهو ﷺ رسول ليس غير، اختاره ربه عز وجل لتبليغ رسالته لتكون دستورًا للعالم كله، فرسول الله ﷺ لا يريد سوى تطهير النفوس، وجعل الناس أمة واحدة كجسد واحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

ولكن هؤلاء الملوك الحاكمين رفضوا ما عرضه عليهم رسول الله ﷺ بأنفة وكبرياء بل باستهزاء، وأقاموا بين ممالكهم وبين الرسول ﷺ ودينه ستارًا حديديًا حتى يمنعوا تسرب العقيدة إلى شعوبهم، ولم يكتفوا بذلك بل خاصموه وناوشوه وأخذوا فى الاعتداء على بلاده حتى يخنقوا هذا الدين فى مهده .. فكان لزامًا

(١) د. إبراهيم بيومى مدكور: فى الفكر الإسلامى ص ١٧٠، سميركو للطبع والنشر سنة ١٩٨٤م.

على الرسول ﷺ - ودينه دين عـالمى - أن يمنع الأذى، وأن يخيّر غيـر المسلمين فى أحد أمور ثلاثة:

إمّا اعـتناق الإسلام فتكون لهم الحـرية الكاملة والاستقـلال الكامل، وإما دفع جزية مع بقـائهم على دينهم فيـصبحـون فى أمن وسلام - والجزية ليـست سوى نفقات تحـمّل المسلمين الدفاع عنهم وصدّ أى عـدوان على بلادهم - فإن لم يكن هذا ولا ذاك كـانت الحرب، وهى حـرب لا مناص منهـا بسـبب تعدد الحـوادث والاعتـداءات من دولتين كـانتا مـتاخمـتين لبـلاد العرب - وهمـا: دولة الرومان الشرقية المعبّر عنها بدولة الروم، ودولة الفـرس . . وقد كانتا منغمستين فى المظالم والاستـبداد والاسترقـاق والفوضى، **وكـانتا مع ذلك تبـغيـان القـضاء على العـقيـدة الإسلامية والشرّ لا يطيق بقاء الخير بجواره.**

وهكذا كانت أسباب الحـروب الإسلامية الأولى فى عهد تطبـيق قواعد الإسلام تطبيـقًا صحيحًـا، فلم تكن الحروب غزوًا أو طمـعًا فى ملك أوسلطان، وإنما هى رسالة لعقيدة يجب أن تسود العالم بالحسنى والموعظة الحسنة[1].

٧- **تفـوّق النموذج الإسـلامى**: ووفقًا للـمفاهيم السيـاسية المعاصرة يظـهر تفوق النموذج الإسلامى أيـضًا كما يقرر الدكـتور حامد ربيع ذلك بقـوله: (فهو نموذج واضح لحضارة سائدة استطاعت خلال أقل من قرن أن تسيطر على جميع الشعوب الممتـدة من وسط آسيـا حتى نهـاية غرب البـحر المتوسط. أيـدلوجيتـها واضـحة ومحددة: نشـر الدعوة وفرض السلام الإسـلامى حيثما اسـتطاعت القوة والإرادة العربية أن توطد أقدامها.

كذلك فإن الاستمـرارية التاريخية تميز الحضارة الإسلاميـة وتجعل منها النموذج الوحيد الذى يربط - دون أى قطيعة - العالم القديم بالعالم المعاصر)[2].

---

(١) ص ٢٠٩، ٢١٠ من كتاب (فـلسطين والضمير الإنسـانى)، محمد على علوّبة، وتنظر الدراسـة الشاملة الممتازة لفضيلة الشـيخ محمد الراوى بكتابه (الدعوة الإسلامية دعوة عالميـة) وتقع فى نحو ٦٠٠ صفحة من الحجم الكبير، دار العربية - بيروت.

(٢) د. حامد ربيع: سلوك المالك فى تدبير الممالك، ص ١١٩، جـ١، دار الشعب ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

٨- الشريعة للمحافظة على ذاتية الأمة:

لم يبق من الأجيال التى عاصرت الخلافة العثمانية إلا القليل النادر، وفيما عداها تحتاج إلى قراءة ودراسة واعية لكى تعرف أن مجتمعاتها كانت محكومة بالشريعة الإسلامية بواسطة المحاكم الشرعية، وأن التحول من حكم الشريعة إلى القوانين الوضعية قد فرض عليها قسرًا بواسطة قوى الاستعمار وأذنابه عندما كانت مقاليد الأمور بأيديهم، فكانت كالطارئ والغريب الوافد مع جيش الغرب العسكرى حيث كسرت شوكة الجيش الوطنى، ثم تحوّلت إلى تراث الأمة التشريعى لتزيحه من طريقها وتنشئ أجيالاً أخرى على تراث الغرب وقوانينه، وسلكت فى ذلك عدة مسالك ضمن خطط متكاملة لتغريب الأمة أهمها:

أ- فرض الوطنية وتجزئة أراضى المسلمين على حساب وحدة الأمة الإسلامية.

ب- القوانين الوضعية بدلاً من الشريعة الإسلامية.

جـ- نظام التعليم وفق المناهج والأساليب الغربية، ودست فيه فلسفة اليونان والفلسفة الحديثة بكليات الآداب والمعاهد المشابهة كما قررت فى كليات الحقوق دراسة القوانين الوضعية.

وقد تصدى علماء المسلمين من شيوخ الأزهر للوقوف فى وجه المستعمرين وأتباعهم.

وأثيرت معركة دار فيها النقاش حول علماء الإسلام فى دفاعهم عن الشريعة والسائرين فى ركاب الغرب الثقافى.

وبعد انحسار موجة الاستعمار العسكرى فإن التصرف المنطقى المعقول أن نواصل ما انقطع ونسترجع نظامنا التشريعى الذى حكمنا طوال تاريخنا عندما كنا أحرار الإرادة، وما أصدق الشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله فى قوله بإحدى محاضراته: (وكما عرفنا بعد الحرب الماضية كيف نسترد استقلالنا السياسى أو أكثره، فسنعرف الآن كيف نسترد استقلالنا التشريعى، والعقلى كله، وسنعيد للإسلام مجده، إن شاء الله)[(١)].

---

(١) الكتاب والسنّة يجب أن يكونا مصدر القوانين فى مصر ص ٢٨، ط دار الكتب السلفية بالقاهرة سنة ١٩٨٦م.

وذكّر الحاضرين فى كلمته أن مصر كلها فرحت حين تمكن مندوبوها فى مؤتمرات أوربا منذ بضع سنين أن يقنعوا المؤتمرين ليصدروا قرارًا بأن (الشريعة الإسلامية تصلح أن تكون مصدرًا من مصادر القوانين)[1].

وربما تصلح تصرفات الإنجليز بمصر كنموذج طبقته الدول الاستعمارية الأخرى كفرنسا وإيطاليا وغيرهما فى باقى بلاد المسلمين.

إن ما حدث فى مصر يعد نموذجًا عظيم الدلالة على ما فعله الاستعماريون لتخريب الشخصية المسلمة من الداخل وتفكيك الأمة الإسلامية وتفتيت وحدتها، ثم توجيه الطعنة القاتلة إليها بإبعادها قسرا عن شرع الله تعالى وإخضاعها لقوانينهم.

ويذكر الأستاذ طارق البشرى أن الإنجليز شرعوا منذ سنة ١٨٩٩م فى النفاذ إلى المحاكم الشرعية بما صاغوه من مشروعات يرمون بها إلى إلغاء هذه المحاكم **بزعم الإصلاح!**

وقد قوبلوا بمعارضة شديدة من علماء الأزهر وقاضى القضاة وشيخ الجامع الأزهر حينذاك، وكان أعوان الاستعمار يصفونهم **بالجمود**.

وإذا تجاوزنا تفاصيل المراحل التى اجتازتها المعارك بين هذا الجانب وذاك، فإن ما يهم هو الدلالة حيث يقول الأستاذ طارق البشرى (والدلالة التى تهم من هذه الواقعة فى الموضوع المعروض، أن دعوة الإصلاح هنا التبست ببسط النفوذ الإنجليزى، وأن حركة مقاومة هذا النفوذ اتصلت بنزعة الحفاظ على المؤسسات التقليدية. وكان غالب الرأى العام المصرى - فيما يبدو مؤيدًا هذا الموقف الثانى والدلالة أيضًا أن هذا الموقف «الشرعى» كان يحمل موقفًا سياسيًا فى طياته. وأن تقويم المواقف لا يجوز أن يقتصر على القول بأن فكرًا جامدًا حال دون إصلاح ما، إنما كان الأمر مرجعه إلى موقف سياسى ظاهر الدلالة بيّن التّصور سواء المشروع الإنجليزى أو المقاومة الوطنية له)[2].

---

(١) المرجع السابق ص ١٢ واستطرد قائلاً: (وظننتّ أنها أوتيت فتحًا مبينا!) نعم فتح مبين هناك، ولكنه فى بلادنا ضعف وهوان، لأن شريعتنا يجب أن تكون وحدها هى مصدر القوانين فى البلاد الإسلامية.

(٢) الأستاذ طارق البشرى: حركة التجديد فى التشريع الإسلامى ص ١٠٧ مقالة بمجلة (الحوار) العُدد ١ - ربيع ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ (النمسا).

وكذلك إذا صُوِّرت القضية بأنها نزاع بين طرفين: علماء الشريعة ورجال القانون، فهى تجانب الحقيقية لاسيما إذا خاض البعض بالباطل وحاول إيهام الناس بأن علماء الشريعة أو الفقهاء يسعون لتولى مقاليد الحكم والتفرد بالسلطة، ويخلطون بين مكانة فقهاء الإسلام وبين (علماء الدين) حسب النظام الكنسى فى الغرب، وشتان ما بينهما كما هو معلوم.

وهذه القضية المثارة الآن كإحدى قضايا الساعة قد أثيرت من قبل عقب انقضاء الحرب العالمية الثانية، ربما بنفس الشكل بين الغالبية الساحقة التى تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، وبين القلة المتغربة التى تلقى بسهامها الطائشة وتتذرع بنفس الحجج الواهية التى قتلها علماء الشريعة بحثًا وأجابوا عليها إجابات مستفيضة.

يقول الشيخ أحمد شاكر مجليًا هذه النقطة: (كلاّ، فإن الأمر أخطر من ذلك، ومقصدنا أسمى من أن نجعله تنازعًا بين طائفتين، أو تناحرًا بين فريقين. إنما نريد رفع ما ضُرب على المسلمين من ذل، وما لقيت شريعتهم من إهانة بوضع هذه القوانين الأجنبية إنما ندعوكم بدعوة الله، ندعو الأمة أن تعود إلى حظيرة الإسلام، ندعو إلى وحدة القضاء، وإلى التشريع بما حكم الله **﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [النور: ٥١].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ضعوا القوانين على الأساس الإسلامى، الكتاب والسنّة، ثم افعلوا ما شئتم، فليحكم بها فلان أو فلان، لسنا نريد إلا وجه الله[(١)].

٩- الإسلام دين (علمى موثّق):

ومن المقومات الذاتية المميزة للإسلام أنه دين علمى موثق بكل المعايير المعترف بها، وإلاّ فكيف نعلل إسلام بعض أفذاذ فلاسفة الغرب وعلمائه فى وقت انحسار

---

(١) الكتاب والسنّة: ص ٢٩ / ٣٠ وهذا النص مقتبس من محاضرته الملقاة بتاريخ ٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٠هـ الموافق ٣ أبريل سنة ١٩٤١م (الشيخ أحمد شاكر).

حضـارة المسلمين؟، مع مـلاحظة ازدياد أعداد المعتنقـين للإسلام فى الغـرب بعد أحداث أمريكا فى ١١ سبتمبر.

ما الذى جذب هؤلاء إلى الإسـلام ودفعهم إلى دراسته والترحيب بـعقيدته عن اقتناع ويقين؟

الجواب بلا شك يكمن فى الدعائم التى يقوم عليها الإسـلام، فهو يعتمد على الحجج والبـراهين العقلية، فـهو دين (علمى) إن صح التعـبير حـيث يقدم الأدلة الموثقة تاريخـيًا على صحة مـصادره، ويخاطب البـشرية فى العصور كلهـا باللغة الملائمة لها، قال تعالى: ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ﴾ [فصلت: ٥٣][١].

كذلك نرى فى إسلام أمثال هؤلاء الجـهابذة ما ينبهنا إلى الكنوز التى بين أيدينا ويحفزنا إلى العناية بها والعمل على ضوئها ودعوة البشرية إليها، أى القيام بالدور القيادى مرة أخرى كما قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وإننا معشر الأمة الإسلامية مهما حدث لنا سواء بأيدينا أو بأيدى أعدائنا - على أثر الاستعمارين الظاهر والباطن - مازلنا فى المكانة الأفضل بالمعنى الحضارى الذى نعنيه: حضارة القيم الإنسانية والمثل العليا والفـضائل الأخلاقية، قد لا تكون عامة كما كانت فى أجيال مضت، ولكنـها موجودة على أية حال، ومازال الحرص على

---

(١) على سبيل المثال يُنظر كتاب موريس بوكاى: التـوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة الشيخ حسن خالد - المكتب الإسلامى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

ويقول الأستاذ وحيد الدين خان:

(فى القرن التاسع عـشر ظهرت ثورتان كانتا على درجة كـبيرة من الأهمية من وجهة الـنظر الإسلامية: الأولى تمثلت فى تصحيح الاستشراق الذى استمر سبعمائة سنة، وكأنه كان اعترافًا عمليًا من أهل الغرب بصدق الإسلام، والثانيـة ظهور فن النقد الأعلى Higher Critisism وكان بمثابة اعـتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتـاب ثابت تاريخيًا، وهكذا وضع القرن التاسع عـشر أرضية علمية على مـستوى رائع للدعوة الإسلامية بطريقة مدهشة حقًا).

من كتاب (واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام) ص ٢٥٦ / ٢٥٧ ترجمة د. سمير عبدالحميد إبراهيم. ط دار الصحوة بالقاهرة ١٠٤٥هـ - ١٩٨٤م.

عبادة الله تعالى بالصلاة والزكاة والصيام والحج كائنا، وأعداد المقبلين على التدين يزداد.

ومازالت غالبية سكان العالم الإسلامى محافظة على الإيمان بالله تعالى، ومازال التقيد بأعمال البر والتحلى بالفضائل ملاحظًا مشهودًا فى قطاعات اجتماعية لها وزنها فى الريف والأحياء الشعبية بالمدن.

كذلك فإن الأسرة المسلمة مازالت فى أغلب بلاد الإسلام متماسكة تحافظ على بر الوالدين وصلة الأرحام. ومازال شبابنا بالمقارنة بشباب أوروبا وأمريكا بخير وبخاصة الشباب المتدين.

وهناك مؤشرات لا تخطئها عين الباحث: مثل الإقبال الهائل على المصارف والشركات الإسلامية، وزيادة عدد المعتمرين والحجاج عامًا بعد عام.

وما على القادة والساسة والعلماء إلا تحريك إيمان الأمة وتوظيفه واستثماره - إن صح التعبير - والإفادة من إشعاعه على مستوى العمل والإنتاج وإيقاظ الهمم والتنافس على التقدم التكنولوجى فى العصر الحديث.

وإن تاريخنا المعاصر ليشهد بتجارب مشابهة فى ميادين القتال خاصة فى حرب رمضان (أكتوبر) فى سيناء، وانتصار المجاهدين الأفغان، والانتفاضة فى أرض فلسطين المغتصبة التى تقف مدافعة عن الأمة فى الخطوط الأمامية فى مواجهة باسلة لرأس الحربة فى الحرب الصليبية التى تشعلها أمريكا حربًا صليبية على المسلمين أجمعين.

وقد لا نجد بين أيدينا الإحصائيات اللازمة للاستقراء، ولكن هناك مؤشرات لها مدلولاتها، التى لا تخفى على عين أى باحث أو مراقب:

منها الحنين الجارف إلى الدين والعودة إلى واحته الوارفة الظلال، وهى ظاهرة عامة فى أنحاء العالم الإسلامى كله بل امتدت إلى القارتين: أوروبا وأمريكا، وليست منحصرة فى الشباب وحدهم بل شملت فئات كثيرة، وتشملها طبقات اجتماعية مختلفة، ودخل فى دائرتها شخصيات مختلفة العقائد والثقافات والمهن، ونلمح أيضًا تحولات - ممن بدأوا حياتهم من موقع ثقافى غربى - لدى بعض

الشخصيات البارزة إلى اقتناع نهائى بسمو الإسلام على سائر الثقافات والأنظمة.

ونحن فى حاجة إلى مراكز بحوث علمية إسلامية ترصد هذه الظواهر إذا أردنا التهيؤ لحياة المستقبل كما تفعل دول الغرب بمؤسساتها ومراكز بحوثها المنتشرة فى العالم وهى لا تكل من مراقبة العالم الإسلامى بعيون الخبراء والعلماء المؤهلين للرصد والتحليل والدراسة ووضع الخطط للتعامل الاقتصادى والسياسى[1].

١٠- استمرارية الأمة:

إذا لجأنا إلى التاريخ فإننا نهدف فقط إلى إثبات استمرارية الأمة حية بالرغم من السهام التى صوبت إليها والأزمات التى حلت بها.

ويزداد يقيننا بهذه الحقيقة إذا تدبرنا كتاب الله تعالى ونظرنا فى بعض آياته. قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ [النور: ٥٥].

وقال عز وجل: ﴿ **إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال سبحانه: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وعندما فهم المسلمون هذه الآيات وعملوا بها وارتفعوا إلى مستواها ليصبحوا أهلا للنصر، أخذ الله تعالى بأيديهم إلى النصر بالرغم من قلة عددهم وعدتهم وتفوق أعدائهم عليهم جيوشًا وأسلحة، وهاكم (هرقل) ملك الروم يبدى دهشته ويتعجب من ذلك فيسأل من حوله هذا السؤال الباحث عن السر، قال فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منهم أضعافًا فى كل موطن، قال: فما بالكم تنهزمون؟ فقال شيخ من عظمائهم: من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ويوفون بالعهد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر

(١) على سبيل المثال يُنظر كتاب: (الأصولية فى العالم العربى) تأليف ريتشارد هرير دكمجيان ترجمة وتعليق عبد الوارث سعيد، ط دار الوفاء ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ونزنى ونرتكب الحرام وننقض العهد ونغضب ونظلم ونأمر بالسخط وننهى عما يرضى الله ونفسد فى الأرض فقال: (أنت صدقتنى)[1].

وإذا التزمنا بنفس صدق مستشار هرقل عند تحليل أوضاعنا الراهنة على ضوء المستوى الذى بلغه أهل تلك القرون، **لأصبح معقولاً ومنطقيًا أن نلحّ على طلب الارتقاء للوصول إلى مراتبهم ودرجاتهم العالية بالسير على مناهجهم مع معرفتنا بصعوبتها على النفوس المترفة اللاهية.**

ولكننا مع الأسف نُفجع - خلافًا للمعقول - بالعبارة الساخرة التى يرفعها أصحاب هذه النفوس فى وجوهنا قائلين (أنتم تريدون الرجوع بنا إلى الوراء)!!

وهى مغالطة سافرة، وتحمل فى طياتها أيضًا التعبير عن إرادة عاجزة عن القيام بتلك الأعباء الثقال!

وندعو القارئ ليتدبر على مهل رأى مستشار هرقل مرة أخرى، وحينئذ سيستخلص سنة من سنن الله تعالى فى النصر والهزيمة، وأصبح واجبنا الأخذ بهذه السنّة والالتزام بها.

وأما الآية التى وعد الله تعالى بها نصرة دينه وظهوره على الدين كله بقوله: **﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** [الصف: ٩]، هذه الآية لا تتعارض مع ما قبلها من حيث الأخذ بالأسباب، إذ لو فهمها الرسول ﷺ أنها ماضية تلقائيًا بغير جهد إنسانى متواصل لما قرأنا فى سيرته أنه دعا إلى الله تعالى بالكلمة والحجة وجاهد فى سبيله عز وجل بالنفس والمال والسلاح، ولكنه فعل ذلك كله ﷺ.

ألا تحثنا الآية على الوقوف عند مغزاها ومدلولاتها، وتجعلنا نستضىء بأعماله لنوقن بأن الظهور لا يأتى إلا إذا أخذنا بأسبابه وتحركنا بدواعيه؟ **هذا هو الدرس الأول.**

أما الدرس الثانى فلكى نتأكد من بقاء الأمة واستمراريتها على مدى القرون، وذلك بخلاف الرأى المخالف الذى يصور انتهاء الأمة ونظامها بانتهاء الخلافة

---

(١) ابن كثير «البداية والنهاية» نقلاً عن (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) للعلامة أبى الحسن الندوى.

الراشدة فيتجاهل بذلك تاريخًا حيًا واقعيًا مازالت آثاره ماثلة أمامنا، إذ أن الأمة لم تنته ولم تفقد ذاتيتها بانتهاء الخلافة الراشدة، كذلك لم يقتصر نظامها السياسى فقط على هذه الفترة المثالية. صحيح أنه فقد مثاليته ولكنه ظل باقيًا.

يقول الإمام المودودى - رحمه الله تعالى: (بيد أنه من الخطأ الشديد أن نظن أن هذه التغييرات السياسية قد قضت على نظام الحياة الإسلامى كله قضاء تامًا، إذ أن بعض الناس طالعوا التاريخ مطالعة سطحية **ثم قرروا ببساطة أن الإسلام لم يعش غير ثلاثين عامًا** انتهى بعدها تمامًا، مع أن الأمر يختلف عما قرره كل الاختلاف) ولم يفطن هؤلاء إلى أن كل ما حدث ما هو إلا انقسام فى القيادة فقط إلى قسمين - القيادة السياسية والقيادة الدينية. ويقرر المودودى رحمه الله أنه لم يتأثر من المسلمين بهذه التفرقة المذهبية غير ثمانية أو عشرة فى المائة على الأكثر، أما بقيتهم الباقية فكانت على مذهب الجمهور[1].

وهذا أيضًا ما يقرره الدكتور حسين مؤنس، فبعد بيان أن الأنظمة الخاصة للأئمة قامت على أكتاف القضاة والفقهاء فنجت الأمة من مساءات الحكام ومظالمهم، وظلت الحضارة الإسلامية كثمرة لجهود الأمة نشطة معظم الوقت تقريبًا، وحتى فى أحوال الركود، فإن الأمة كانت تغذى مؤسساتها الحضارية كالقضاء والتعليم والفقه والحسبة وغيرها مما لم يصل بحالة الركود إلى درجة الجمود التام[2].

ونعتقد أننا بذلك نكون قد وجهنا أنظار خصوم التراث السياسى الإسلامى إلى مصادر أخرى لإعادة النظر فيما ورثوه من أفكار (جاهزة) إما بسبب قراءات مجزّأة أو استمداد مصادرهم من المستشرقين وتلاميذهم.

ونرشح من البحوث والدراسات العميقة المبتكرة دراسة الدكتور حامد ربيع التى تجعلنا فى موضع الفخر بتراثنا السياسى لأنه قلب الموازين وخلص إلى حقائق مذهلة تفاجئ كل من اعتاد ترديد الأحكام الجاهزة عن طريق التلقين بالطعن فى النظام السياسى الإسلامى بل إنكاره!

---

(١) المودودى / الخلافة والملك ص ١٣٥، ١٤٨ تعريب أحمد إدريس ط دار القلم بالكويت ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٢) د. حسين مؤنس / الحضارة ص ١٧٤ الكويت.

ويستخلص الدكتور حامد ربيع من بحوثه المتشعبة فى هذا الميدان أن المفهوم الإسلامى للممارسة الديمقراطية كفلسفة للحياة وللتعامل ظل ثابتًا ونبعت منه أربعة متغيرات:

المتغير الأول: احتقار الحياة وازدراء المظاهر المادية للوجود الإنسانى مستندًا إلى كتاب «خالد» إلى ملوك الفرس حيث قال: (ادخلوا فى أمرنا ندعكم وأرضكم. وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب، على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا).

المتغير الثانى: خضوع الإنسان للقدرة الإلهية ظل ثابتًا خلال جميع مراحل التاريخ الإسلامى فلم نعرف أى خليفة شكك فى هذه الحقيقة أو خرج عليها علانية وبصراحة.

المتغير الثالث: تقديس الالتزام الاجتماعى.

المتغير الرابع: استعداد الفرد للمخاطرة بحياته فى سبيل حماية الكرامة الفردية، وهناك أمثلة كثيرة لعل أبرزها محنة ابن حنبل وابن تيمية وهما يعبران عن تماسك التقاليد الإسلامية من جانب القيادة الممارسة بالرغم من مرحلة التحلل حينذاك[1].

١١- تعليل الاختلاف بين المسلمين: إن من أدق صور التنازع أو الخلاف ما أورده ابن قتيبة على لسان المأمون:

قال المأمون لمرتدّ إلى النصرانية:

خَبِّرنا عن الشىء الذى أوحَشَك من ديننا بعد أُنْسك به واستيحاشك مما كنتَ عليه. فإن وجدتَ عندنا دواءَ دائك تعالجتَ به، وإن أخْطَأ بك الشِّفَاءُ ونَبَا عن دائك الدَّواءُ كنت قد أعذرتَ ولم ترْجِع على نفسك بلائمة وإن قتلناك قتلناك بحُكم الشريعة وترجع أنت فى نفسك إلى الاستبصار والثِّقةِ ونعلم أنك لم تُقصِّر فى اجتهاد ولم تُفَرط فى الدخول من باب الحزم فى المرتدّ:

أوحشنى ما رأيتُ من كثرة الاختلافِ فيكم.

قال المأمون: لنا اختلافان: **أحدهما** كالاختلاف فى الأذان والتكبير فى الجنائز

(١) سلوك المالك فى تدبير الممالك جـ١ ص ١٤٧/١٤٨ باختصار ط دار الشعب ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

والتشهُّد وصلاة الأعـياد وتكبير التشريق ووُجُوه القراءات ووجـوه الفتيا وهذا ليس باختلافٍ، إنما هـو تخيرٌ وسعةٌ وتخـفيفٌ من المِحْنة فمن أذنَّ مثنى وقـام مثنى لم يخطئْ مَن أذَّن مثنى وأقام فُرادى ولا يتعايرون بذَلك ولا يتعايبون **والاختلافُ الآخر** كنحو اختـلافنا فى تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث مع اجـتماعنا على أصل التنزيل واتفـاقنا على عين الخـبر، فإن كـان الذى أوحشك هذا حـتى أنكرت هذا الكتاب فقـد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التـوراة والإنجيل متفقًـا على تأويله كما يكون متفقًا على تنزيله، ولا يكون بين جمـيع اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات وينبغى لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف فى تأويل ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيـائه وورثة رُسله لا يحتاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئًـا من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية، ولو كـان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة، وذهبت الـسابقة والمنافسـة ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله الدنيا.

قال المرتد: أشهـد أن لا إله إلا الله وأن المسيح عبدٌ، وأن محـمدًا ﷺ صادقٌ، وأنك أمير المؤمنين حقا»[1].

تم الكتاب بحمد اللّه تعالى وتوفيقه

(١) ابن قـتيبـة: عيـون الأخبـار المجلد الثـانى ص ١٥٤ (٢١٣/٢٧٦هـ) طبعـة دار الكتب. وينظر كتـابنا: (الصحوة الإسلامية.. عودة إلى الذات) دار الدعوة بالإسكندرية.

المراجع

- **محـاضرات فى فلسفـة التاريخ** - ترجمة د. إمـام عبد الفتاح، مراجـعة د. فؤاد زكريا - ط دار الثقافة بالقاهرة - ١٩٨٠م.
- **التوراة الهيروغليفية**. للدكتور فؤاد حسنين على ط دار الكاتب العربى
- **زوال إسرائيل حتمية قرآنية** - الشيخ أسعد التميمى - ط المختار الإسلامى بمصر.
- **وجع فى قلب إسـرائيل** - أنيس منصـور، المكتب المصرى الحديث بالـقاهرة سنة ١٩٧٩م.
- **الماسونية تحت المجهر** - د. إبراهيم فؤاد عبـاس - دار الرشاد - جدة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- **فلسفة وايتـهد فى الحضارة** - تأليف أ.هـ جونسون - ترجمـة عبد الرحمن ياغى المكتبة العصرية - صيدا - بيروت سنة ١٩٦٥م.
- **جريدة الحياة** - لندن ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢م مقال بعنوان (عن البعد المسيحى فى المعركة الراهنة) بقلم صلاح حزين.
- **الصهيـونية غير اليهودية .. جـذورها فى التاريخ الغربى** - ريجينا الشريف، ترجمة أحمد عبـد الله عبد العزيز، سلسلة كتب ثقافيـة (عالم المعرفة) - الكويت ربيع الأول ١٤٠٦هـ - ديسمبر ١٩٨٥م.
- **المسألة اليهودية - القـبيلة، الشريعة، المكان** - لإيلاف هاليفى، ترجمة نصر سمالى مكتبة الخدمات - دمشق - ١٩٨٦م.
- **إسرائيل (فتنة الأجيال)** - إبراهيم خليل أحمد، مكتبـة الوعى العربى بالفجالة - القاهرة - المحرم ١٣٩٠هـ - مارس ١٩٧٠م.
- **عاصفة الصـحراء، المبررات والدوافع** - أحمد ديدات - ترجـمة محمد مـختار - المختار الإسلامى - ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

- **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** - للإمام أبى الحسن الندوى - مكتبة الإيمان بالمنصورة - سنة ١٩٩٤م.

- **معجم العلوم السياسية الميسر** - د. أحمد سويلم العمرى - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٥م.

- **غياث الأمم فى التياث الظلم** - للإمام الجوينى بتحقيق د. فؤاد عبد المنعم - د. مصطفى حلمى - دار الدعوة بالإسكندرية.

- **فى فلسفة التاريخ** - د. أحمد صبحى، ط مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية.

- **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح** - مطبعة المدنى بمصر - بدون تاريخ.

- **التنوير الزائف** - سلسلة اقرأ، دار المعارف سنة ١٩٩٩م.

- **المد والجزر فى تاريخ الإسلام** - الشركة المتحدة بيروت - دمشق - دار القلم - ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

- **السلطان عبد الحميد: مذكراتى السياسية** - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

- **الرد على العلمانيين** - الزهراء للإعلام العربى - القاهرة - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- **غارة التتار على العالم الإسلامى وظهور معجزة الإسلام** - أبو الحسن الندوى - ط المختار الإسلامى بمصر - سنة ١٩٨٥م.

- **جريدة الأهرام** - من مقال بعنوان (رؤية إمبراطورية) بقلم السيد يس - بتاريخ ٢٩/٦/٢٠٠٠م.

- **الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية** - للإمام أبى الحسن الندوى - تعليق محمد عبد الرحمن عوض - دار البشير بالقاهرة - سنة ١٩٩٧م.

- **حرب فلسطين سنة ١٩٤٨.. رؤية مصرية** - لواء أ.ح.د. إبراهيم شكيب - ط الزهراء للإعلام العربى - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- **مصر بين حربين: ٦٧-٧٣ - دراسة مقارنة**- مكتبة النهضة المصرية- سنة ١٩٧٥م.

- **المخططات التلمودية اليهودية الصهيونية** - للأستاذ أنور الجندى - ط دار الاعتصام بمصر ١٩٧٧م.
- **جريدة الأهرام** - بتاريخ ٢٣/٧/٢٠٠٠م ص ٢٦ - مقال بعنوان (قضايا التنوير بين الفكر والسياسة).
- **جريدة الأهرام** - ٧/٥/٢٠٠٢م ص ١٣ - مقال بعنوان (صهينة العقل العربى).
- **البداية والنهاية** - ابن كثير.
- **الخلافة والملك** - أبو الأعلى المودودى - تعريب أحمد إدريس - ط دار القلم بالكويت - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- **عيون الأخبار** - ابن قتيبة ط دار الكتب.
- **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان** - ط الحلبى - ١٣٨١هـ - ١٩٦١م.
- **الكتاب والسنة** - الشيخ أحمد شاكر.
- **أخطاء الثوار** - أمين شاكر.
- **تفسير ابن كثير** - دار الفكر - بيروت - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- **تاريخ الصحافة الإسلامية - المنار**، دار الأنصار بالقاهرة - سنة ١٩٨٣م.
- **الغرب والشرق الأوسط** - برنارد لويس، تعريب نبيل صبحى.
- **الإسلام قوة الغد العالمية** - باول شمتز.
- **أصول الحكم فى الإسلام** - د. توفيق الشاوى - مكتبة الأسرة - ١٩٩٨م.
- **الإعلام الأمريكى الصهيونى .. حرب معلنة ضد العرب** - إعداد تامر الكتبى.
- **الدولة اليهودية** - تيودور هرتزل، مراجعة ودراسة د. عادل حسن غنيم، ترجمة محمد يوسف عدس - دار الزهراء للنشر - ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- **ثقافتنا فى مواجهة العصر** - ط دار الشروق - يناير ١٩٧٦م.
- **اليهودية فى تاريخ الحضارات** - جوستاف لوبون - ترجمة عادل زعيتر - ط الحلبى.

- **مقومات العمل الإسلامى - اتجاهات وبرامج وآراء للحركة الإسلامية** - إعداد جماعة مسلمى يوغوسلافيا - شركة الشعاع للنشر - الكويت - ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- **المثقفون العرب وإسرائيل** - د. جلال أمين - دار الشروق - ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

- **النبوءة والسياسة** - جريس هاليل.

- **التنوير الزائف** - د. جلال أمين - سلسلة اقرأ - دار المعارف.

- **جريدة الأهرام** - بتاريخ ٧/ ٦/ ١٩٩٩م - مقال بعنوان (مأساة يونيو ٦٧ - دروس وعبر).

- **العربية لغة العلوم والتقنية** - د. حامد ربيع - ط دار الاعتصام - بالقاهرة - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- **الثقافة العربية بين الغزو الصهيونى وإرادة التكامل القومى** - دار الموقف العربى بالقاهرة - ١٩٨٢م - د. حامد ربيع.

- **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** - للنيسابورى - تحقيق وتعليق د. حمزة النشرتى، الشيخ عبد الحفيظ فرغلى، د. عبد الحميد مصطفى.

- **الحضارة** - د. حسين مؤنس.

- **نظرية المصلحة فى الفقه الإسلامى** - د. حسين حامد - مكتبة المتنبى بالقاهرة - سنة ١٩٨١م ونص الإمام الشافعى من كتاب الرسالة.

- **سلوك المالك فى تدبير الممالك** - د. حامد ربيع - ط دار الشعب.

- **حضارة العصر - الوجه الآخر** - دار الدعوة بالإسكندرية - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- **الوظيفة العقيدية للدولة الإسلامية** - دراسة منهجية للدول الإسلامية - د. حامد عبد الماجد قويسى - دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة - ١٩٩٢م.

- **سقوط الجولان** - خليل مصطفى - ضابط استخبارات الجولان قبل الحرب - دار اليقين - عمان ط٢ - ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- **اليهود فى المعسكر الغربى** - داود عبد الغفور سنقراط - طبعة دار الفرقان - عمان - ١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ.
- **الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية** - رجاء جارودى - ترجمة قسم الترجمة - دار الغد العربى بالقاهرة.
- **الإسلام والاستعمار وعقيدة الجهاد فى التاريخ الحديث** - د. رودلف بيترز - دار شهدى بالتعاون مع المعهد الهولندى للآثار المصرية والبحوث العربية - القاهرة - ١٩٨٥م.
- **صراع المذهب والعقيدة فى القرآن** - عبد الكريم غلاب - دار الكتاب اللبنانى بيروت - ١٩٧٣م.
- **علم التاريخ** - هيرنشو - ترجمة عبد الحميد العبادى.
- **المصحف الميسر** - عبد الجليل عيسى.
- **التفسير الإسلامى للتاريخ** - د. عماد الدين خليل - دار العلم للملايين - بيروت - سنة ١٩٧٨م.
- **جريدة الوفد** - ١٦ ذو القعدة ١٤٢٢هـ - ٣٠ يناير ٢٠٠٢م - مقال بعنوان (أولى حروب القرن على الإسلام وليس الإرهاب) بقلم اللواء عبد الهادى بدوى.
- **الصراع الكبير بين الشرق والغرب** - اللواء عبد الحميد شرف - ط الأهرام ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- **الصهيونية العالمية** - الأستاذ عباس محمود العقاد - مكتبة غريب بالقاهرة ١٩٦٨م.
- **الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام** - د. على عبد الواحد وافى - مكتبة نهضة مصر بالفجالة - مصر - ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- **الإسلام والتـاريخ** - د. عـمـر فـروخ- ط دار الكتـاب العـربى - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- **مكائد يهودية عبر التاريخ** - عبد الرحمن حبنكة - ط. دار القلم - بيروت.

- **مقدمة البروتوكولات** - عباس محمود العقاد.

- **معركة الوجود بين القرآن والتلمود** - د. عبد الستار فتح الله سعيد.

- **معالم تاريـخ الإنسانية** - ج ولز - تعريب عـبد العزيز توفـيق جاويد - مراجـعة زكى على - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٨.

- **تاريخ التاريخ** - سلسلة كتابك رقم (٦) دار المعارف بمصر ١٩٧٧م.

- **الاستيطان الأجنبى فى الوطن العربى** - سلسلة عالم المعرفة.

- **النشاط الصهيونى** - د. عبد الرحيم أحمد حسين.

- **الدولة العثمانية .. عوامل النهوض وأسباب السقوط** - د. محمد على الصلابى ط دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة - ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

- **هجمات مضادة فى التاريخ** - د. عماد الدين خليل - مكتـبة النور بمصر الجديدة - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

- **صليبيـة إلى الأبد** - عبد الفتـاح عبد المقصود - الهيئة المصـرية العامة للكتاب - ١٩٧٥م.

- **أيديولوجية الصراع السياسى** - د. عبد الرحمن خليفة.

- **اقتضاء الصراط المستقيـم مخالفة أصحاب الجحيم** - تحقيق عصام الدين الصبابطى - دار الحديث - القاهرة - ١٤١٢هـ.

- **العالم من منظور غربى** - كتاب الهلال - سنة ٢٠٠١م العدد ٦٠٢٠.

- **الدين والدولة فى الواقع الغربى** - دراسة الموقع ودور الدين فى الدولة القـومية - د. عبد العزيز صقر - دار مكتبة العلم للجميع - ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

- **العربية لغة العلوم والتقنية** - د. عبد الصبور شاهين - ط. دار الاعتصام.

- **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٨٤م.
- **مقالة بجريدة الحياة** - بتاريخ ٢٣/ ١١/ ١٩٩٥م - نقلاً عن (آليات الاختراق الإسرائيلى للمنطقة العربية)- مصطفى عبد الرزاق - كتاب الغد.
- **تاريخ وقواعد الحضارات** - فرناند بردويل - ترجمة وتعليق سفير د. حسين شريف - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٩٩م.
- **مصرع الخلافة العثمانية** - د. فهمى الشناوى - المختار الإسلامى - سنة ١٩٩٥م.
- **الإسلام والمسلمون** - فتحى رضوان - دار الشروق.
- **حقيقة اليهود** - فؤاد عبد الرحمن الرفاعى - دار القسام بالكويت.
- **العالم الإسلامى والمكائد الدولية** - مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- **مع الإنسان فى الحرب والسلام** - فتحى رضوان - دار المعارف - بمصر سنة ١٩٦٤م.
- **اليهود فى كتابهم المقدس** - كمال أحمد - ط. دار الشعب.
- **معارك فى سبيل الإله - الأصولية فى اليهودية والمسيحية والإسلام** - كارين آرمسترونج - ترجمة د. فاطمة نصر، ود. محمد عنانى - ٢٠٠٠م.
- **محمد ﷺ** - كارين آرمسترونج - ترجمة د. فاطمة نصر - د. محمد عنانى - ط ١٩٩٨م.
- **كيف قامت دولة إسرائيل** - مطابع الأهرام بكورنيش النيل ١٩٩٩م - عميد متقاعد كامل الشرقاوى.
- **الذين يلحدون فى آيات الله** - د. كامل سعفان - ط. دار المعارف سنة ١٩٨٣م.
- **الحملة الفرنسية .. نذير أو تزوير** - د. ليلى عنان.
- **الثورة العقائدية فى الشرق الأوسط** - ليونارد بانيدر.

- **المفاوضات السرية** - محمد حسنين هيكل.
- **النبوءة والسياسة** - **الإنجيليون العسكريون فى الطريق إلى الحرب النووية** - ترجمة محمد السماك - دار الشروق.
- **الخطر اليهودى** - **بروتوكولات حكماء صهيون** - ترجمة محمد خليفة التونسى وتقديم الأستاذ عباس محمود العقاد - مكتبة دار التراث - مصر.
- **الصهيونية العالمية** - للعقاد، تعقيب محمد خليفة التونسى.
- **المسيح المنتظر وتعاليم التلمود** - د. محمد على البار.
- **مجلة الدراسات الفلسطينية**.
- **جريدة الوفد** - (٣٠/٧/١٩٨٨م) - د. محمد عصفور.
- **جريدة الوفد** - (١/٧/١٩٨٨م) - د. محمد عصفور.
- **أسرار المفاوضات** - محمد حسنين هيكل.
- **الماركسية والغزو الفكرى** - محمد جلال كشك - الدار القومية بمصر - ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.
- **جريدة الشعب القاهرية** - ١٤/٤/٢٠٠٠م - مقال بعنوان (هل كان قلب البابا مع الفلسطينيين وسيفه مع الإسرائيليين) بقلم د. محمد على الفرا.
- **مذكرات فى السياسة المصرية** - ط دار المعارف بمصر - سنة ١٩٧٧م.
- **السعوديون والحل الإسلامى** - محمد جلال كشك - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م - المطبعة الفنية - القاهرة.
- **ملف إسرائيل** - **دراسة الصهيونية السياسية** - ترجمة د. مصطفى كامل فودة - دار الشروق - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- **ثورات العرب في سنة ١٩١٩م** - **المقدمة من الحروب الصليبية إلى حرب السويس** - محمد على الغتيت - الدار القومية للطباعة والنشر.
- **حوار فى أنقرة** - محمد جلال كشك - ط المختار الإسلامى - ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

- **الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية** - الشيخ مصطفى صبرى - دراسة وتحقيق د. مصطفى حلمى.

- **الغارة على العالم الإسلامى** - محب الدين الخطيب.

- **جريدة الأهرام** - بتاريخ ٢٢/ ١٠/ ١٩٤٤ مقال بعنوان (آخر الخلفاء) نقلاً عن الكتاب الكبير للشيخ مصطفى صبرى.

- **الاستعمار والمذاهب الاستعمارية** - ترجمة محمد عوض محمد.

- **الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر** - د. محمد محمد حسين - مكتبة الآداب بالجماميز - القاهرة - ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

- **سر إسلام الأمريكيات** - ترجمة محمد عبد العظيم - ط دار المنارة - المنصورة - مصر - ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

- **البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة** - د. محمد حرب، المركز المصرى للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركى والبلقان - ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

- **الإسلام بين الشرق والغرب** - ترجمة محمد يوسف عدس - مجلة النور الكويتية ومؤسسة بافاريا - ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- **الإسلام والخلافة فى العصر الحديث** (نقد كتاب الإسلام وأصول الحكم) - منشورات العصر الحديث - ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- **فلسطين والضمير الإنسانى** - بقلم محمد على علوبة - تقديم طاهر الطناحى - كتاب الهلال - بالقاهرة - مارس ١٩٦٤م.

- **نداء الإسلام** - محمد محمود الصواف - ط. دار العلم - عمان - ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م.

- **العروش والجيوش** - محمد حسنين هيكل.

- **مذكرات الملك طلال (شاهد على خيانة الأسرة الهاشمية)** - إعداد ممدوح رضا - الزهراء للإعلام العربى - ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

- **الأيام الحاسمة فى معركة المصير وبعدها** - اللواء الركن محمود شيت خطاب - دار الفكر - ط٣ يناير سنة ١٩٧١م - بيروت.

- **لعبة الأمم وعبد الناصر** - محمد الطويل - ط المكتب المصرى الحديث بالقاهرة - سنة ١٩٨٦م.

- **علماء ومفكرون عرفتهم** - محمد المجذوب - ط دار النفائس - ١٣٩٥م - ١٩٧٧م.

- **شاهد على العصر : مذكرات محمد لطفى جمعة** - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب - سنة ٢٠٠٠م - وتشمل المذكرات الفترة من ميلاده سنة ١٨٨٦م إلى ديسمبر ١٩٣٧م.

- **الإخوان المسلمون - أحداث صنعت التاريخ** - محمود عبد الحليم - دار الدعوة بالإسكندرية - ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

- **الصحوة الإسلامية .. عودة إلى الذات** - ص ٢٧ - د. مصطفى حلمى - دار الدعوة بالإسكندرية - ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- **الإسلام سنة ٢٠٠٠م** - د. مراد هوفمان.

- **معارك حول القدس** - د. محمد ضياء الدين الريس - هدية من مجلة الأزهر - رجب سنة ١٣٩٢م - أغسطس سنة - ١٩٧٢م.

- **أمريكا وإسرائيل** - للدكتور محمد معروف الدواليبى، الدار الشامية - بيروت - ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م - دار القلم - دمشق.

- **تفسير المنار** - مطبعة المنار - ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.

- **الدين والعلم وقصور الفكر البشرى** - دكتور مهندس محمد الحسينى إسماعيل.

- **العلم والعلماء فى الديانة الإسلامية.**

- **جريدة الوفد** - د. محمد عصفور - بتاريخ ٢/ ٧/ ١٩٨٨م.

- **حضارة العصر - الوجه الآخر** - د. مصطفى حلمى - دار الدعوة بالإسكندرية.

- **يوميات ألمانى مسلم** - د. مراد هوفمان.
- **التوراة والإنجيل - القرآن والعلم** - موريس بوكاى - ترجمة الشيخ حسن خالد - المكتب الإسلامى - ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- **قاموس التوراة** - سلرينبر - نيويورك ١٩٠٩م.
- **ثأر الله - الحركات الأصولية المعاصرة فى الديانات الثلاث** - جيل كيبل - ترجمة نصير مروة - دار قرطبة - قبرص - ط٢ سنة ١٩٩٨م.
- **صدام الحضارات** - هنتجتون.
- **الأسفار المقدسة** - د. وافى.
- **واقعنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام** - وحيد الدين خان - ترجمة د. سمير عبد الحميد إبراهيم - طبعة دار الصحوة بالقاهرة - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- **البعد الدينى فى السياسة الأمريكية تجاه الصراع العربى / الصهيونى** - د. يوسف الحسن، مركز دراسات الوحدة العربية - سلسلة أطروحات للدكتوراه بيروت - فبراير ١٩٩٠م.
- **جوانب مضيئة فى تاريخ العثمانيين الأتراك** - زياد أبو غنيمة - ط دار الفرقان - عمان - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- **المؤامرة** - للدكتور زغلول النجار - ط نهضة مصر ٢٠٠٢م.
- **المسلمون والحرب الرابعة** - زهدى الفاتح.
- **عن الحرية أتحدث** - د. زكى نجيب محمود - دار الشروق - نوفمبر ١٩٨٦م.
- **المسيخ الدجال** - سعيد أيوب - ط دار الفتح للإعلام العربى بالقاهرة - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
- **إعادة كتابة التاريخ الإسلامى فى مركز الأبحاث بأستانبول** - مجلة العربى العدد ٣١١ أكتوبر ١٩٨٤م.

- **أخطاء الثورة - الوحدة مع سوريا - تأميم الصحافة** - سليمان الحكيم - دار الخيال - سنة ١٩٩٩م.

- **جريدة الشرق الأوسط** - بتاريخ ٧/ ٥/ ٢٠٠٢م - مقال بعنوان (التكنولوجيا تدفع فوكوياما لإعادة التفكير فى نهاية التاريخ) بقلم ستيف كيتمان.

- **حاضر العالم الإسلامى** - شكيب أرسلان.

- **من مقدمة رواية (العالم سنة ١٩٨٤م)** - مكتبة الأنجلو المصرية - ترجمة شفيق أسعد فريد وعبد الحميد محبوب - مراجع الترجمة: عبد الرحيم رشوان - سنة ١٩٥٦م.

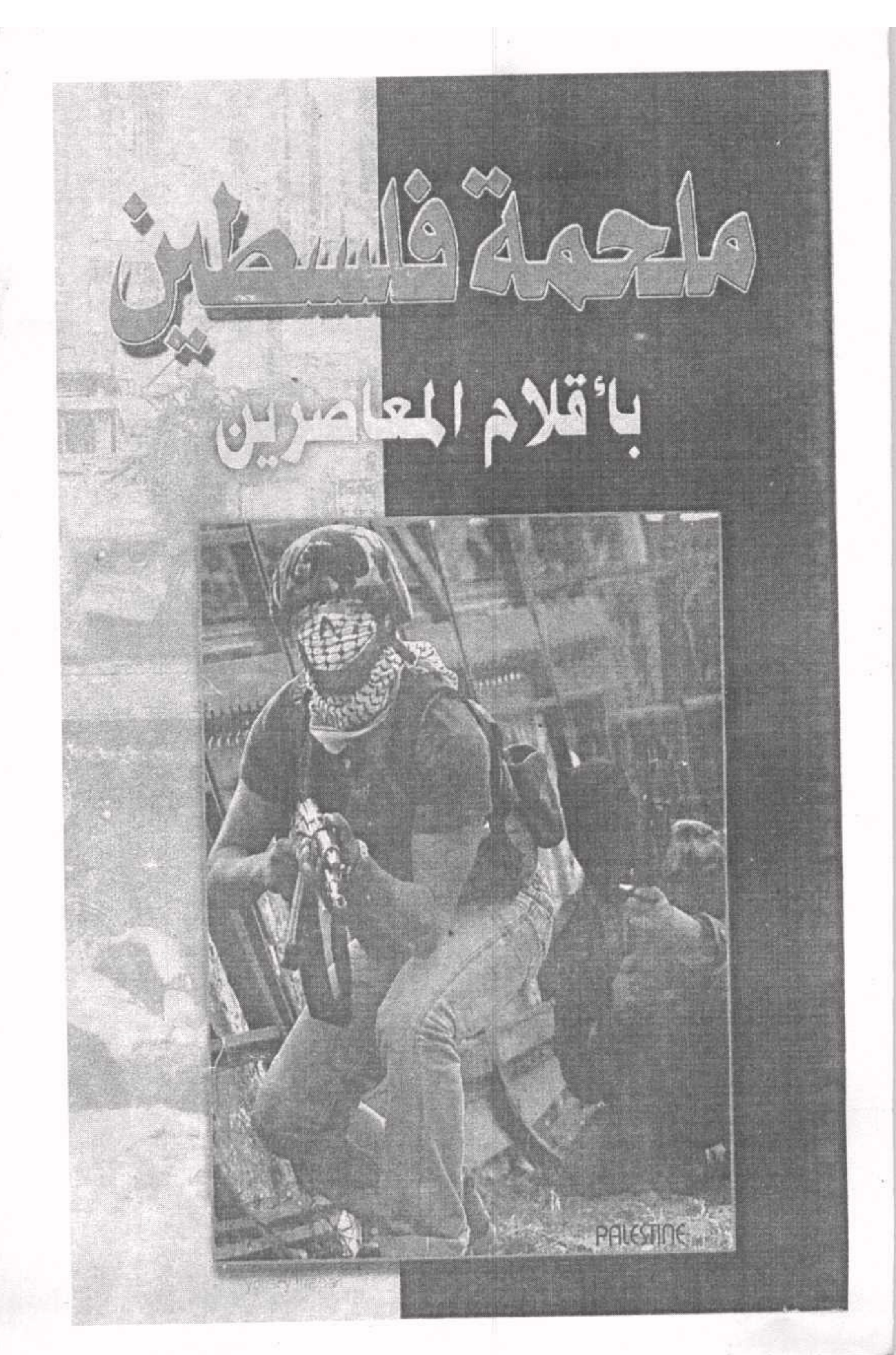
- **جريدة الحياة** - لندن ١٤/ ٤/ ٢٠٠٢م - مقال بعنوان (عن البعد المسيحى فى المعركة الراهنة) - بقلم صلاح حزين.

- **الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية (دراسة فى الإدراك والكرامة)** - د. عبد الوهاب المسيرى - مكتبة الأسرة سنة ٢٠٠٠م - الهيئة العامة للكتاب.

- **صدام الحضارات - إعادة صنع النظام العالمى** - صمويل هنتجتون - ترجمة طلعت الشايب - تقديم د. صلاح قنصوة ١٩٩٨م.

- **مقالة بمجلة الحوار** - العدد ١ ربيع ١٩٨٦م/ ١٤٠٦هـ - النمسا - بقلم المستشار طارق البشرى.

فهرست الموضوعات


ملحمة فلسطين
بأقلام المعاصرين
PALESTINE